نور عبد المجيد



الدار المصرية اللبنانية

أنت مني

رواية

نور عبد المجيد

الدار المصرية اللبنانية

أنتِ مني: رواية /نور عبد المجيد .- ط4.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

456 ص؛ 20 سم.

تدمك: 978 - 977 - 795 - 224 - 8

1- القصص العربية.

أ- العنوان. 813

رقم الإيداع: 2019/ 3844

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2019م

الطبعة الثانية: 2019م

الطبعة الثالثة: 2019م

الطبعة الرابعة: 2019م

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى شهد..

وترابُ قدميكِ مسكُ أيامي.

هي حتى لا تعلم معنى كلمة "تعالٍ" أو "غرور"..

كلمات لم تمر يومًا بمعجم لغتها البسيطة الذي إن عَدَّدت مفرداته على أصابع كفيها ربما ما استنفدتها.. هذا الجمود الذي على وجهها.. هذا الوجه الذي لم يبتسم وهذه الشفاه التي لا تُحيي أحدًا بفعل الوجع لا فعل الترفع..

"حميدة" ذاتها تنظر إلى كل وجوه النساء حولها وتندهش كيف يبتسمن ومن أين لهن بكل هذه الحكايا والثرثرة والنكات؟! جربت زمنًا أن تشاركهن، حاولت كثيرًا أن تجاريهن، لا هي ضحكت ولا هن احتملنها.. ابتعدت عنهن شيئًا فشيئًا حتى باتت إن وصلت إلى السوق حاملة قفص دجاجاتها فوق رأسها يتركن لها مكانها، لا واحدة منهن تقترب صوبها ولا هي تلقي السلام على أحد منهن..

زبائنها لا يطيلون معها الحديث كثيرًا، إن رفعت السعر لا أحد يجادلها، وإن أمسكت بالدجاجة وقالت لا بيع لا أحد حتى يسألها عن السبب.. لا هي تدرك ولا هم يعلمون لماذا؟

شيء في وجهها غائب وشيء آخر حاضر ليس كمثله شيء على وجوه البشر.. وجه بلا ابتسامة سهل أن تتخيله لكن صعب جدًا أن تلقاه!

رفعت إبريق الشاي المتآكِل، سكبت كوبًا آخر والتقطت قطعة صغيرة من "القُرص" التي تجيد صنعها لتضعها في فمها وتنظر حولها في سكون..

هادئ هو البيت في غياب ابنتها، صاخبة هذه الفتاة كصخب أبيها..قلبت شفتيها حين تذكرته.. تكره أن تتذكره، جبان أحمق لا يستحق أن تتذكره.. خذلها مرتين، مرة حين تزوجها وأحضرها إلى أمه في هذا البيت، والمرة الكبرى حين مات وتركها لها من جديد!

كانت ابنتها في السنة النهائية من المرحلة الابتدائية في مدرسة "ملحقة المعلمات".. رسبت في الشهادة وأعادتها ثلاثة أعوام وثلاثة أخرى في الإعدادية!

كادوا يموتون جميعًا معه، رفض أن يذبح دجاجة مريضة فقتله ما يسمونه "انفلونزا الطيور".. قتله البخل أم الجهل!

ما عاد يعنيها، كان يستحق الموت على كل الأحوال لكن لم تكن هي أبدًا تستحق تَحمُّل مسئولية أمه وابنته ودجاجاته وحدها!

وقفت على تململ منها تنظر إلى الدجاجات المنتشرة حولها.. من منهم تأخذه إلى سوق الجمعة غدًا؟! ربما مسعد سالم أو ربما علوان وزكي.. نادتهم بأسمائهم وفي داخلها يقين أنهم يفهمون.. نادتهم وشعرت أنهم للحظة

يقفون وينظرون إليها وهم يدركون أن نداءها لهم يعني رحيلهم عن هذا البيت.. نظرت إلى مسعد بطرف عينيها، سعيدة هي بخروجه واستقراره في أحشاء من سيشترونه.. صياحه أعلى من أقرانه حتى عُرف رأسه الأحمر فيه شيء مختلف.. كل الأشياء المختلفة تستحق الكراهية، فلمَ تتوقع أن يحبها أحد وهي تختلف؟! "لطيفة" أيضًا دجاجة تختلف لكن لن تبيعها، تبيض كثيرًا وإنتاجها غزير وفير..

نحتفظ بما نكره ومن نكره إن أمدونا بما نحتاج!

ربما لهذا أبقت عليها أمُّ زوجها في الدار حين مات.. أبقتها لخدمتها وتربية حفيدتها، ذبحت كل الطيور بعد رحيل ولدها، حَرَّمت على نفسها وعليهما أن يتذوقن لحم الدجاج ورضخت!

رضخت دون أدنى اعتراض.. لا مكان لها ولا أهل.. من كان بلا مكان أو أهل لا حق له في مجادلة أو اعتراض!

من أين كانت تنفق حماتها؟ في الفجر بل في كل فجر كانت تضع في يدها ما تقرر من نقود وتخبرها ماذا تشتري وكم قطعة تشتريها وكم قرشًا تنفقه..

في ذاك الركن تجلس كل يوم، تغزل من جريد النخل قطعًا من سلال خوص، لم تر الفيوم بأكملها أبهى أو أجمل من قطعة تخرج من تحت كفي تلك العجوز! لم

تحاول أن تعلمها ولم تقترب هي منها أبدًا لتتعلم.. بقيت "عطيات" تغزل من الخوص جمالًا يحصده بائع واحد يأتيها في نهاية كل أسبوع.. يأخذ ما صنعت ويمنحها النقود التي تنفق منها عليها وابنتها ويضع لها في داخل الدار ما تحتاجه من الخوص لحصاد الأسبوع التالي..

منذ مات رجلهن لم تسمح لأحد بدخول البيت، إن طرق جار أو جارة أو عابر سبيل باب منزلهن ترسل حفيدتها لتفتح وتقول "أمي عطيات لا تستقبل أحدًا"!

حين مات زوجها كان عمرها تسعة وعشرين عامًا، أم لفتاة في نهاية المرحلة الابتدائية ورغم هذا كانت تخشى حماتها وتخافها أكثر مما تخافها الصغيرة.. ظنت أمه تموت في اليوم التالي لكن كفكفت دمعها وأغلقت بابها عليها في اليوم الثالث للعزاء وأصدرت تعليماتها ولم تغادر هذا البيت إلا يوم أودعوها مقبرتها..

خائنة كولدها، قاسية مثله.. رحلت في سكون دون أن تخبرها كيف تحيا أو حتى كيف تقترب من صغيرتها التي ما التصقت إلا بجدتها.. ماذا فعلت بعد خروجها إلى تربتها؟ ماذا كان أول شيء صنعته بتلك القروش القليلة التي وجدتها في جلبابها؟! هزت رأسها في سخرية..

حين عودتها من المقابر وبعد أن هدأ بكاء ابنتها ونحيبها لم تفكر من أين تأتي بالنقود اليومية أو كيف تنفق على

مدرسة الصغيرة أو ماذا تقول لمحروس إن جاء يسأل عن خوص الأسبوع.. كل ما فعلته أنها اشترت دجاجة ذبحتها وطهت منها وجبة كانت محرمة عليها زمنًا!

***

ألقت أبلة مها بالكراسة في وجهها وهي تصيح:

لا أريدك معي العام القادم.. أعلم أنكِ تعيدين نهاية كل مرحلة في ثلاثة أعوام، لا أريدك في المدرسة بأكملها.. إن بقيتِ على هذا الحال تعيدين الثانوية العامة عشرة أعوام ولن تنجحي!

استدارت نحو سبورة الفصل وواجهت بنات الغرفة المتآكلة وصاحت كعادتها بعد كل اختبار تعود بأوراقه إليهن.. صاحت تخبرهن أن الثانوية العامة ليست هزلًا وأن امتحاناتها تحتاج مجهودًا أكبر وعناء أكثر.. في قسوة اقتربت منها ونظرت إلى عينيها وقالت كأنها تخاطبها وحدها:

لا أحد منكن يملك أهلها نفقات درس خصوصي أو حتى مجموعة.. أنا هنا أفني نفسي شرحًا لمساعدتكن وكل ما تفعلنه زخات من عطر رخيص وألوان بائسة تلطخن بها شفاهكن.. أفِقْنَ.. إنها الثانوية العامة..

لِمَ هي بالذات؟ لِمَ هي بالتحديد تخصها بصراخ أقسى وتأنيب أعنف رغم أن هناك درجات أقل منها وأوراقا

تخلو من الإجابات، لماذا تعاملها مها بهذه القسوة دون بنات الفصل أجمعين..

تعاملها بهذه القسوة من أجل الدجاجات التي تمنحها إياها أمها كل أسبوع لتنقل لها أخبارها وتحركاتها.. تذهب إلى سوق الثلاثاء لأنها لا تريد أن تراها تلميذتها تبيع سرها بزوج دجاجات وبضع بيضات.. تتمنى لو تصيح في وجهها وتخبرها أنها تعلم لكن تقتلها أمها إن فعلت بل وربما أجبرتها على الذهاب معها إلى السوق يوم الثلاثاء.. جحيم يوم الجمعة يكفيها!

تركلها أمها بقدمها في فجر كل جمعة لتنهض وتعد الإفطار ثم ترفع لها قفص الدجاج على رأسها وتحمل هي سلة البيض ودومًا تحمل كتابًا تتذرع بالقراءة فيه عن البيع والشراء.. يكفيها أن تجلس بين صياح الطيور ورائحة الفضلات..

لو كانت تملك أن تقول لا..

امرأتان تخشاهما وتتمنى لو تختبئ منهما وإن كان في قاع المحيط.. أمها وهذه ال"مها"!

أفاقت على ارتعاشتها بعد أن دقت المعلمة بكفها على طاولتها الخشبية بعنف لترفع رأسها تنظر إليها وصاحت تقول:

غدًا الجمعة.. صباح الأحد هناك اختبار جديد في الفصل السابع بأكمله.. فرصة أخيرة أمنحها لكُنّ.. إن تكررت الدرجات أستدعي أولياء أموركن..

أرخت الشابة عينيها وهي تعلم أن جميع من حولها يعلمن أنها أكثر من كانت تعنيه بغضبها وصياحها بل ربما بقرار إعادة الاختبار نفسه!

تنهدت حين دق الجرس وجمعت أوراقها لتضعها في حقيبتها وقبل أن تغادر شعرت بقبضة مها تمسك بذراعها في قسوة، حين استدارت إليها والتقت عيناهما قالت:

لا أمزح.. إن لم تتحسن درجتك استدعيت أمك وجعلتها توقع تعهدًا.. هل تفهمين يا زينب؟!

***

ركلتها بقدمها البيضاء في قسوة.. لِمَ تقترب "دلال" من قدميها دومًا كلما أرادت النوم، بل لِمَ أسمتها أمها هذا الاسم وأي أحمق على وجه هذه الأرض يطلق أسماء كهذه على دجاجات يربيها ليبيعها ويتم ذبحها؟! نفخت في غضب وهي تنظر حولها لتتأكد أن أمها نائمة ولم ترها، تقتلها إن رأتها تركل "دلال".. هي من أهم دجاجاتها بل ربما كانت أهم وأجلّ من ابنتها نفسها..

لا تنام، وكيف تفعل والغيظ يلتهمها في نهم.. لو كان بيدها لحملت سكينًا ذبحت به أبلة مها وهذه الدلال..

لو أنها فقط تعفيها من السوق! لن يجديها أبدًا أن تخبرها عن إعادة الاختبار والاستذكار بالإضافة إلى شراء علف الدجاجات ونقع حبات "الذرة المدشوشة" من أجل إطعام فراخها الصغيرة..

لا شيء يعفيها!

اعتدلت من نومها ورمت بعينيها إلى النافذة الصغيرة المطلة على الأزقة التي حول بيتهم..

كل بيوت "البارودية" في الفيوم سواء، جميعها بيوت صغيرة من الطين، متلاصقة لا أرض لها ولا سقف كأرضيات أو أسقف البشر.. جميعها مسكونة بالأرانب والدجاج والبط..

رحم الله جدتها، كان البيت نظيفًا لا نهيق فيه ولا فضلات.. ابتسمت ابتسامة صغيرة ساخرة، الدجاجات لا تنهق وإن كان تظن نهيق حمير البارودية جميعها أجمل من صوت دجاجات أمها..

تكره كل شيء منذ رحيل جدتها، لا تعلم لماذا تصر أمها على أن تتعلم ولماذا تخشاها إلى هذا الحد.. تعلم أنها أعادت الشهادة الإعدادية في ثلاثة أعوام، كادت تقبِّل قدمي أمها لتعفيها من الذهاب إلى المدرسة لكن في كل

عام كانت ترسبه كانت قسوة أمها وجمودها يكبران.. تشعر بالألم حين ترى نفسها أكبر تلميذات الفصل.. ليست غبية لكن الأمر يحتاج دروسًا وكتبًا ووقتًا وهدوءًا.. هو العام الأخير.. تعلم أنها قد تحصل على الثانوية العامة لكن ماذا بعد؟!

جامعة الفيوم تنتظرها، وإن كرهت يجب أن تذهب، ستبقى الدراسة وحدها تعفيها من الذهاب مع أمها إلى سوق الثلاثاء، وحدها الكتب والاختبارات ذريعتها لتتخلف عن حمل قفص الدجاج أو الجلوس به على أرض السوق وسط رائحة الدم وبقايا الريش والأحشاء وزمرات الذباب التي تحوم حول وجهها..

ماذا لو انتهت من الجامعة؟ هل تنتظر أمها أن تجد وظيفة تنفق منها على البيت، والله إن أحجمت عن الاتجار في الطيور تمزق نفسها في الاستذكار والتفوق لكن تعلم علم اليقين أن لطيفة لن تغادر المنزل.. ستبقى هي ودلال رفيقات أمها..

أمها لن تتخلى عن طيورها وإن تطايرت أوراق النقود حولها أو أمطرت فوق رأسها.. هي تحبهم لأنهم وسيلة انتقامها من عطيات.. قبضة من نار تلتف حول قلبها كلما تذكرت جدتها.. ليت أمها ماتت ولحقت بأبيها وبقيت عطيات..

أغلقت النافذة وهي تسمع صيحات مسعد يعلن بزوغ الفجر.. صيحاته اليوم كصيحات من سبقوه، عالية.. حزينة.. تستجير بمن لا يجير.. مسعد ككل من سبقوه كل أسبوع يعلم أنه راحل..

مجنونة هذه الأم، تبيع من الطيور ما لا تحبه ومجنونة زينب.. مجنونة وأكثر جنونًا من أمها لأنها تبقى في بيت تحت سقفه طيور تولد لتموت وامرأة قاسية لا قلب في أضلعها ولا ابتسامة واحدة تعبر ملامحها.. امرأة اسمها حميدة!

***

كل شيء في أبهى صورة..

الحديقة الكبيرة أُضيئت بخيوط رائعة تعانق أشجار أسوارها، طاولات الضيوف ترتعش عليها الشموع المحاطة بباقات زهر ملونة كأنها قاعة عرس أميرة من أميرات الأساطير..

بعينيها التقطت أواني الطعام الكبيرة المغطاة، يتم صفها على طاولات البوفيه الكبير حيث اصطف أفراد "الكاتيرنج" القادمون من فندق "كمبينسكي" كلًا في مكانه ككل عام..

دقائق ويبدؤون في الحضور..

انحنى "المتر علي" أمامها في احترام كبير يطلب منها أن تتجول معه لتخبره بأي ملاحظة قبل بدء وصول الضيوف.. قبل أن تخطو معه سمعت صوت ابنتها يناديها واستدارت تركض نحوها خارج شرفة الفيلا الكبيرة مُلوِّحة لها بيدها.. ركضت جودي إلى أمها وضمتها إلى صدرها قائلة:

أصبحوا عشرة!

ابتسمت إيمان في حنان رغم نظرة اللوم التي طفت في عينيها.. في خطواتهما إلى طاولات البوفيه أكملت الشابة في انطلاق تصيح:

رغم السرية علمن أن شادي وحليم مدعوان..

قالت الأم في هدوء:

ألا تشعرين مثلهن بالسعادة، كل هؤلاء الفنانين حولكِ وفي بيت أبيكِ.. تطلبين منهم ما تشائين ويسعدهم أن يجيبوا..

في مرارة أجابتها:

لا يشغلني أمرهم ولا أمر بيت بابا.. يشغلني دواخلهم، يشغلني أن هذا ما يسعدهم.. يشغلني أن هذا ما يحضرهم.. أحبهم لكن..

أمسكت بإيمان بيدها وقالت:

أسأل عنك لا عنهم..

وضعت قبلة سريعة على وجنة أمها وقالت:

الأمر كبير ويحتاج قطعة من الجمبري..

مدت إيمان يدها لتلتقط إحدى حبات "الجمبرى" من الهرم الكبير ووضعتها في فم ابنتها لتمنعها عن أن تكمل..

لا تريد ابنتها أن تقول إن شابات الجامعة الأمريكية يأتين فقط ليتفحصن وجوه الفنانين.. يأيتين لتناول

الطعام والتقاط الصور ثم يغبن باقي العام وحتى حفل العام القادم.. لكنها الحقيقة، إن كان الفنانون نفسهم يأتون في هذا اليوم ليعانقوها في حب ويحملون معهم بعض الهدايا من الزهر والكريستال حتى تشعر أنهم تاريخ حب وعمر صداقة ثم يغيبون جميعًا ولا يرسل أحدهم برسالة إلا إن وقّع زوجها مع أحدهم عقد فيلم العام..

"ما رأيك سيدتي؟!".

قالها "المتر علي" كأنه يريدها أن تعود من شرودها إليه، ابتسمت وهي تبتلع القطعة الثانية من قطع الجمبري قائلة:

لا نثق إلا بكم فعلام تسأل؟!

تحب هذا الرجل وتطمئن إلى كل شيء في وجوده، هو أيضًا
لا يخرج مع طاقم تقديم إلا إلى منزل ناجي الكبير.. يجزل ناجي له العطاء ويمنحه مبلغًا كبيرًا قد يعادل دخله شهورًا من عمله كمدير مطاعم الفندق الشهير..

رغم بهاء المنظر، رغم ثراء ما يقدم من لحوم وأسماك لكن لو أنها كانت من تطهو لكان الطعم أجمل..

استدارت بسرعة وهي ترى "جودي" تركض إلى داخل البيت حين شعرت بوصول الضيوف.. تتمنى لو تتزين

ابنتها كصديقاتها لكنها أبدًا لا تفعل، جميلة، كل ملامحها جميلة لكنها لا تضع ألوانا ولا ترتدي ثياب سهرة، دوما متمردة ثائرة على كل ما تفعله البنات.. أحيانًا تعجز عن فهمها..

تدعو صديقاتها إلى حفل كل عام وتجلس لترقبهن يحبسن أنفاسهن أمام الفنانين والفنانات ووحدها لا تمد نحوهم كفًا
ولا تلتقط معهم صورة..

جودي تختلف.. ليتها ما أسمتها على اسم الطبيبة التي قامت بتوليدها في ذاك المستشفى الأمريكي.. ربما أخذت صفاتها وجنونها حين أصبح لها اسمها!

استدارت تنظر إلى الضيوف وابتسمت ابتسامة واسعة..

جاءت ماجدة ونبيلة وعلياء وزوجها، أسرعت إيمان ترحب بهم في دفء.. ما أن جلست بهم على طاولتهم المغطاة بمفرش رقيق من الساتان الأبيض المزركش بزهرات حمراء صغيرة حتى بدأت مجاميع كثيرة من الفنانين والمخرجين تتوافد..

أداروا الموسيقى وبدأ الجميع في الثرثرة وتناول المزات الموجودة على الطاولات، بدأت إيمان في التنقل بينهم والترحيب بهم.. الجميع يحبها.. جميلة في نهاية الأربعينيات، أنيقة في احتشام، دافئة في استقبالها،

صادقة في ابتساماتها.. لا تنفعل أبدًا حين تُلقي الشابات من الفنانات بأنفسهن بين ذراعي زوجها، بل دومًا تبتسم لهن ابتسامة حانية كأنها تخبرهن أنها تراهن وأنهن وأيًا كان ما فعلنه سيبقى ناجي الكبير لها وحدها..

يحبها الجميع لأنها مريحة هادئة، لا تثير مشاكل ولا تقطب حاجبيها في وجه أحد.. يحبها الجميع لأنها زوجة رجل دونه لا يصبحون ما هم عليه.. يحبها الجميع رغم أنها لا تحب أحدهم أبدًا..

هي ليلة واحدة كل عام، تنتظرها ابنتها لتُحضر صديقاتها منذ أيام المدرسة وحتى دخولها الجامعة لترى في عيونهن شهقات صغيرة كأن من يرينهم ليسوا بشرًا..

شعرت بصوت يهمس في أذنيها وهي على مقعدها، رفعت وجهها لتجد خلفها مراد السمنهوري المخرج الكبير يسألها عن زوجها.. ابتعدت برأسها عن أذنيه وقالت في هدوء:

رغم أنه صاحب الدعوة إلا أنه دومًا آخر من يحضر وأنت تعلم..

صاح مراد يقول:

يكفينا أنكِ معنا..

ابتعد عنها واتجه إلى ابنتها التي أقبلت هي وصديقاتها.. أصبحت قطعة من أمها.. ذات الجمال ممزوجًا بروح الصبا ونضارة الجهل وحسن النيات.. أخذها إلى ذراعيه قائلًا:

ألا تقنعين أباك بالتمثيل؟

نظرت إلى أمها نظرة سريعة وأرخت عينيها قائلة:

التمثيل يهين المرأة في بلادنا!

ضحك السمنهوري إحدى ضحكاته الصاخبة ومشط شعره بأصابعه قائلًا لصديقاتها:

مع من تريدن صورة هذا العام؟!

ركضن جميعًا حوله ليذهب بهن إلى طاولات النجوم بينما أمسكت إيمان بهاتفها لتستعجل زوجها الحضور لكنها أعادته إلى الطاولة حين رأت كل الأعين تتجه إلى نقطة واحدة..

لا بد أنه وصل! الرؤوس جميعها تستدير حيث تتمركز النقود! نهضت دون حتى أن تتأكد، تثق أنه ناجي..

هو قانون سكان الأرض.. الرؤوس لا تستدير إلا لثلاث "المال والسلطة والجمال".. زوجها يملكهم معًا!

وقفت عن مقعدها تنظر إليه يتقدم في حلته السوداء التي انتقتها له من بوتيك "روبيرتو كافالي" حين كانا في ميلانو منذ شهور.. وسيم رغم أعوامه التي جاوزت الخمسين حتى شعره الناعم البني الذي يجمعه في شريطة صغيرة لتتدلى خصلة قصيرة منه يبدو مثيرًا أنيقًا.. عارضت كثيرًا أن يفعل هذا لكن حين أطاله قليلًا وجمعه في هذه الشريطة السوداء المطاطية أيقنت أن العيب أبدًا ليس في شكل ما نرتديه أو نصنعه بوجوهنا وخصلات شعرنا..

العيب أو الميزة فقط في من هو الذي يفعل؟!

أقبل ومعه رجلان من شركة "نت فليكس".. هذا ما أخَّره إذن، حضورهما معه لا معنى له سوى أن الكبير سيصبح الأول الذي يوقع عقدًا رسميًا مع شركة عالمية كهذه..

كان بعينيه يبحث عنها، رآها تقف على طاولتها لتتسع ابتسامته وزادت ثقة خطواته..

جميلة إيمان.. وجهها الأبيض المستدير، غمازات عينيها الواسعتين وشفتيها الرقيقتين.. لا يهدأ ولا يطمئن إلا إن رآها.. تقدم ومعه ضيفاه نحو طاولتها يحيي كل الموجودين بكفيه وابتسامته.. هي أيضًا أسرعت إليه ليمد ذراعه ويضمها إليه في عناق سريع، دومًا تتمتم بآيات قرآنية في صدرها كلما ضمها..

صافحت الرجلين في ترحاب هادئ صادق لا مبالغة فيه، وابتسما لها في انبهار واضح لا ادعاء فيه..

ثوبها الأبيض الخالي من أي نقوش أو تطريز يقف في بهاء على جسدها المستدير، رائحة عطرها ملأت صدريهما بالسكون والارتياح..

استأذنهما ناجي وهو يعلم أن إيمان تتكفل بهما حيث أخذ يجوب الطاولات لتلتف حوله الفنانات، منهن من تعلم ألا فائدة من نصب الشباك حوله ومنهن من تحاول في فجاجة ليصدها في أدب..

حين رآها على البعد انفرجت أساريره واتسعت ابتسامته حتى كاد وجهه القمحي الوسيم أن يختفي خلف اتساع الابتسامة وسحرها، ركضت نحوه دون تحفظ أمها وضمها ليقرأ هو الآيات هذه المرة..

ابنته تسقط أمامها كل أقنعة الوقار!

استدار بها إلى حيث تجلس أمها لكنها أخبرته أنها يجب أن تعود إلى صديقاتها وضحك ناجي قائلًا يغمزها بعينيه:

لا واحدة منهن تريدك الآن!

استدارت الشابة إلى حيث نظر والدها، هو دومًا على حق.. الصبايا مع نجوم حفل العشاء.. كل واحدة منهن

تحاول أن تكون الأقرب لتظهر كأنها رفيقة أو صديقة قديمة في "سيلفي" تجوب به أروقة الجامعة وتتصدر به وسائل الميديا الاجتماعية..

رمت برأسها على صدره وانطلقا إلى إيمان التي لم ترهما لاتساع الحلقة حولها، أفسح الجميع الطريق لناجي ليقدم ابنته لرجلي الوفد ودارت الأحاديث بعضها بالعربية والآخر بالإنجليزية، تدخل السمنهوري في الحديث واختطف أطراف الحديث وجمع الخيوط كلها..

لبق هو، ماهر وخفيف الظل، سمع ناجي "نسمة" تسأل السمنهوري عن اسم من يراها نجمة العام.. سكت الأخير بعد السؤال وابتسم ناجي..

مغرورة نسمة، جميلة مثيرة يحبها الرجال وتشتري اسمها المحطات العربية والمصرية لكن هو قرر ألا يتعامل معها مرة أخرى.. أتعبته كثيرًا بعدم التزامها واحترامها له رغم أنه يوم وقعت معه العقد أمسك بيدها قائلًا:

"أنتِ من نجوم الصف الأول لكن وجودك في شركة الكبير يعني شيئًا آخر.. أجرك أكبر.. اسمك يلمع أكثر.. إن لم تلتزمي وتتعاوني تكونين الأخيرة"..

نسيت كل هذا وتظن ناجي والسمنهوري للنجاح الكبير الذي حققه العمل ينسياه..

رمقها الأخير بطرف عينيه ورفع ذات العين إلى ناجي الذي نظر إليها في هدوء قائلًا:

ما زالت النجمة الكبيرة غائبة عن الساحة!

شهقت إيمان شهقة صغيرة أرخت عينيها بعدها بسرعة، حين رأى ناجي اتساع عيني نسمة أكمل:

ما زالت فنانة كسعاد أو فاتن تشتاقها الكاميرا، سأبقى أبحث عنها ولا أطلق على سواها اسم نجمة!

قال كلماته في بساطة لا إهانة فيها ولا تجريح لكن رسالته وصلت إلى الجميع..

نهضت إيمان تدعوهم إلى البوفيه وتقدم الجميع، ابنتهما وصديقاتها معهم.. ناجي كان يسير إلى جوار زوجته في بطء خلف جميع الحاضرين وحين ابتعد كلٌّ بطعامه مالت على أذنيه تخبره أنها ستعد له صحنًا وفي صدق كبير نظر إلى عينيها قائلًا:

غدًا هناك نأكل.. لا طعام على الأرض له طعم ما تصنعينه لي في ذاك البيت..

كانت يدها بين أصابعه ورفع كفها يقبله في حب وفي طريق عودته به إليها لمح نسمة تمسك بصحنها وتشتعل

عيناها شررًا وحممًا اعتاد رؤيتهما في عيون الكثيرات..

***

لماذا الفيوم؟! لماذا بحيرة قارون؟!

لماذا وناجي الكبير يملك قصورًا في أبهى قرى الساحل الشمالي والبحر الأحمر.. لأنه حين وقع في غرام إيمانه كان يصطحبها كل ليلة إلى الفيوم، بسيارته الصغيرة القديمة كان يقف معها على أطراف بحيرة قارون في الظلام والسكون حتى يبدأ الفجر في البزوغ..

مع إشراقة النور الأولى كان يضمها ويعودان إلى القاهرة، تنزل من سيارته في خفة على ناصية فيلا أبيها في شارع عبدالمنعم رياض حيث كانت تحيا مع جدتها ويعود هو إلى بيت أمه في شارع قصر العيني..

يتيمة ولدت إيمان، عاشت مع جدتها لأبيها بعد أن تركتها أمها وتزوجت برجل آخر.. عارضت الجدة قصة حبهما لأن ناجي من عالم آخر لا يشبه عالمها ثم رضخت في نهاية الأمر.. عشقها لحفيدتها وتقدم سنها وخوفها من أن تموت وأن تسيطر أمها على ثروتها جعلها تقبل لقاء ناجي.. تزوجا بعد تخرجه في إعلام القاهرة وانتقل للحياة معهما في فيلا جدتها..

سمعته الجدة يومًا يتحدث عن حلمه بدراسة الإخراج في أمريكا.. منحته مبلغًا ماليًا كبيرًا ليفعلها لكنه رفض، ليس تعففًا عن النقود لكن في بساطة أخبرها أنه لا يستطيع الابتعاد عن إيمان ولا يجرؤ على اصطحابها

معه وترك الجدة وحدها.. لا تنسى كيف ضمته يومها في حب وبعد أسبوع واحد أخبرته أنها تسافر معهما إلى أمريكا وحتى تنتهي دراسته.. كانت من أجمل الأعوام في عمريهما..

هناك علمت أنه ليس زوجًا وحبيبًا فحسب، أيقنت أنه فنان حتى القطرة الأخيرة من دمه.. عاشوا ثلاثة أعوام في "سان فرانسيسكو".. أنجبت جودي هناك وحصل هو على شهادته وأيضًا على فرصة عمل مع مخرج أمريكي شهير..

حين أصبحت إيمان حاملًا في يوسف أخبرها أنه يفكر بالبقاء وعدم العودة إلى مصر.. لم يكن أمر العودة يعنيها، هو معها وجدتها راضية سعيدة به وبها وبحفيدتها لكن في شهر حملها الخامس مرضت الجدة.. حين علمت أنها تموت طلبت منهما على استحياء أن تعود إلى مصر..

"أريد أن أموت وأدفن إلى جوار ولدي"..

أقسمت عليهما أن يتركاها تسافر وحدها لكن أمسك ناجي بكفها وقبلها قائلًا:

جئنا معًا ونذهب معًا، تشفين ونعود معًا قبل عرض الفيلم وقبل أن تلد إيمان!

بعد عودتهم بشهور ماتت الجدة، بكتها إيمان بجنون، بكتها كأنها ما كانت تعلم أنها ستموت، لم يهدأ بكاؤها إلا حين ذهب بها ناجي إلى الفيوم..

كان بطنها كبيرًا حين وقفا أمام "بحيرة قارون"، احتاجت إلى ذراعي ناجي لتستطيع الجلوس على غطاء محرك السيارة أمام البحيرة.. بعد وقت طويل من الصمت أخبرها أنه لن يعود، سيبقى في مصر، سيفتح شركة إنتاج سينمائي ويُخرج فيلمًا.. أخبرها أنه سيبيع سيارته ويضيف إلى ثمنها أجره في الفيلم الأمريكي.. لن يتحمس له منتج ولن تقبل به نجمة مثل "سعاد حسني"، لهذا وليكون مخرجًا يجب أن يكون منتجًا..

باعت فيلا عبدالمنعم رياض التي كتبتها لها الجدة ووضعت ثمنها وكل إرثها بين يدي زوجها..

ناجي لا يخذلها أبدًا!

أنتج فيلمًا كبيرًا بقي على شاشات السينما شهورًا طويلة..

لم يخذلها أبدًا!

في أعوام قليلة أصبحت "الكبير للإنتاج السينمائي" شركة لا يسقط لها عمل.. اشترى لها بيتًا على بحيرة قارون، بيتًا جميلًا إن فتحت نافذته الكبيرة أصبحت على رمال البحيرة، وإن فتحت بابه الخلفي أصبحت

على فدادين زراعية تحمل رائحة ثمار الفاكهة باختلاف مواسمها.. تعاهدا على إقامة حفل سنوي كبير في الليلة السابقة لذكرى زواجهما.. ينتهي الحفل ويذهبان إلى بيت البحيرة.. تطهو له إيمان بيديها أسماك الموسى أو الدجاج البلدي بالزبد والزعتر..

تسعة عشر عامًا ولقاؤهما بعد حفل العام في منزل البحيرة يغسل عنهما كل مشاحنات العام وينسيهما غيابه في التصوير والتعاقدات والسفر..

بعد أعوام اكتفى بالإنتاج وترك الإخراج للسمنهوري وسواه، اكتفت هي بليلة البحيرة لتغسل فيها روح ناجي من الإجهاد والتوتر وتغتسل في صدره من الشوق والاحتياج والشكوك ليعودا بعد ليلتين كأنهما عروسان في أوج صباهما..

لهذا هي البحيرة ولهذا هي الرحلة ولهذا سيبقيان غير كل الأزواج..

لهما بيت صغير يعودان منه أصغر وأجمل وأكثر صفحًا وتسامحًا وقدرة على تحمل عام آت!

ابتسمت وهي تضع قطرات من عطر "انجل" الذي يحبه، نظرت إلى ثوبها المزركش الأنيق وشعرها مطلقًا سراحه على كتفيها ونظرت إلى عينيه.. تحب عينيه حين تنظر إليهما، تحب فيهما نسمات العشق الممزوجة بالعرفان

والاحترام.. الحب لا يكون حبًا إن لم يمتزج بالتقدير والاحترام..

مد كفه إليها ورمت بكفها بين أصابعه وانطلقا في هدوء..

جودي ويوسف ما عادا صغارًا.. اعتادا رحلتهما هذه ولديهما من الخدم ما يكفي غيابهما شهرًا وليس ليلتين.. جلست إلى جواره في سيارته وانطلق بها..

في هذا اليوم يتحدثان كثيرًا عن حفل الأمس.. عن ابنتهما وصديقاتها.. عن يوسف الذي يتعمد عدم الحضور، عن سماجة صغار الفنانات.. إيمان تتحدث دون حرج وهو يسمعها دون غضب.. الطريق طويل من منزلهما في "مرتفعات القطامية" حتى طريق الفيوم لكنها تتمنى لو تتضاعف أمياله.. أصابعها نائمة بين أصابعه وتثرثر.. تثرثر كما لا تفعل طيلة العام بأكمله..

حين اقتربا من الفيوم سألته في حب:

ماذا يريد الكبير في طعام العشاء؟

***

ألقى جسده على "الشيزلونج" المصنوع من البامبو في استرخاء تام وتجول بعينيه على مياه البحيرة الفضية.. لا بحيرة على الأرض لها هذا اللون أو ربما هكذا يراها

لأنها شهدت معهما ما شهدته.. لا يجب أن يُغرم بالبحيرة إلى هذا الحد.. الأولى بالغرام والاحترام هي من جعلت له بيتًا كهذا أمامها.. إن لم يلتق إيمانه كما يحب أن يسميها لبقي فقيرًا في قصر العيني هو وإخوته الخمسة..

كل شيء يسجله باسمها.. فيلا القطامية التي تجاوز ثمنها العشرين مليونًا.. بيوت الساحل والبحر الأحمر.. يلومه السمنهوري أحيانًا وهو يخبره أن النساء لا أمان لهن!

يعلم أن إيمان جميلة وتتعرض لغزل كثير من فنانين يعملون معه بل حتى من السمنهوري نفسه لكن يعلم أنها لا ترى سواه..

النساء تختلف عن الرجال.. إن أشبعت المرأة حبًا وصدقًا كانت إيمانك وقنديل عتمتك!

دخلت إيمان إلى التراس المطل على البحيرة تحمل صحني الطعام، نهض يأخذهما منها وهو يفتح رئتيه لرائحة سمك الموسى الذي لا تصنعه يد كما هي تفعل.. وضعا الصحون على الطاولة الصغيرة، أجلسها على مقعدها وجلس إلى جوارها، ككل عام وضع اللقمة الأولى في فمها وابتسمت ليضع قطعة سمك بين شفتيه وتنهد قائلًا في صدق:

كيف؟ كيف يا إيمان؟!

في بلاغتها وخبرات عمرها أجابته:

كما تنجح أفلامك، كما تحصد جوائز وتسكن الذاكرة، كل شيء إن صنعناه بحب طال عمره واختلف!

***

ركضا على سلالم البيت في خفة وحذر، حين وصلا إلى باب غرفتها استدارت تنظر إليه كأنها تتأكد من صحة قرارها.. لم يمهلها التفكير بل دفع باب الغرفة بذراعه ودفعها برفق إلى الداخل، حين استدارت لتغلق الباب وجدته سبقها وفعل، سقطت بين ذراعيه لتلتقط أنفاسا ضاعت وراءها أخرى..

لماذا يتملكها شعور عميق أن ما تفعله خطأ!

لو أقسموا لها أن عامر سيفعل شيئًا لا ترضاه ما صدقت لكن هي لا تخشى أن يفعل شيئًا دون رضاها، كل ما تخشاه أن يفعل شيئًا من أشياء أخرى كثيرة تتمناها وتشتهيها..

سحبت نفسًا عميقًا وهي على صدره، هذه الرائحة التي تملأ روحها لا تشتمها إلا بين ذراعيه.. أهدت يوسف من عطره بل أهدت أباها قنينة منه في عيد مولده وكلما وضعها هو أو أخوها تسأل نفسها كيف تختلف العطور

من رجل إلى رجل إلى هذا الحد؟! ابتعدت قليلًا عن صدره تسحب أنفاسًا كثيرة عميقة كأنها تتنفس كل قطرة يضعها وابتسم يهمس:

أغار من هذا العطر.. أحيانًا أشعر أنك تحبينه أكثر مني..

اقتربت منه في هدوء.. أغمضت عينيها وبشفتيها التقطت شفتيه..

القُبل في غرفتها لها طعم آخر غير طعم السيارة أو أروقة الجامعة الخاوية.. لها طعم الجُرأة والحرية والثقة بألا أحد يراهما! ماذا لو عاد والداها لأي سبب من رحلة الفيوم!

خطى بها عامر نحو فراشها وسقط بها ينظر حوله قائلًا:

غرفتك جميلة لكنها ما زالت كغرف الأطفال..

اعتدلت في صعوبة، لا تريد أن تقاومه لكن لا تحتمل أبدًا أن يدخل يوسف أو يحضر أبوها لأي سبب ويشعر أحدهما أنها خذلتهما.. اعتدلت وابتسم عامر كأنه يفهم ما تفكر به..

لم يوافق على الدخول إلى بيتها بسهولة، لكن هو أيضًا كان يشتاق إلى رؤية غرفتها.. أين تنام؟ لون وسائدها، ستائر شرفتها! المرآة التي تقف أمامها، الخزانة التي ترتدي فيها ومنها ثيابها..

وضع الوسائد على السرير ونظر حوله في هدوء، نهض ليحضر "لاب توب" وجده على مكتبها وعاد يجلس في نصف اتكاءة ومنحها جهازها قائلًا:

فلنشاهد فيلمًا تختارينه..

أمسكت بالجهاز وأنفاسها تتهدج، لا تريد أن تشاهد فيلمًا.. لم تحضر به كل هذه المسافة ليشاهدا فيلمًا في الثانية صباحًا في غرفة نومها.. تريد أن تنام على صدره، تريد أن تنهل من شفتيه..

ليست طفلة كما تظنها إيمان.. وقفت أصابعها على مفاتيح جهازها ونظرت إلى حبيبها نظرة طويلة خفتت معها شهوتها.. كل شيء في عينيها كان واضحًا، أغلق عامر شاشة الجهاز وأمسك بذراعها ينهض بها عن فراشها وهو يقول:

أخبرتك أننا لا يجب أن نأتي..

في لحظة خفت كل شيء في رأسها..

في عيني ناجي الكبير هي كبيرة، في عيني يوسف هي الكبيرة
لا تستطيع أبدًا أن تكون صغيرة وهل يملك أحد أن يعود طفلًا؟! نكست رأسها تخبره أنه على حق فقط أرادت أن تمتلئ غرفتها برائحته وأنفاسه..

في هدوء قررا أن يغادرا وبعد أن فتح عامر باب الغرفة وطلب منها أن تتأكد من خلو الطريق أمسكت بكفه وهمست:

قبلة واحدة ولا نأتي هنا مرة أخرى أبدًا..

***

رائعة جودي..

يحبها منذ كان يراها في المدرسة.. لم تكن أبدًا كبقية البنات، منذ كانت طفلة وحين كان الأطفال يتجمعون في الرحلات المدرسية وعلى شطآن البحار كانت دومًا تقف أمام جموع الأطفال تغني وترقص وتحكي لهم الحكايا..

حين كبر الأطفال وانتقلت إلى مدرسة أخرى، كان دومًا يتذكرها ويتمنى لو يبتلع كبرياءه مرة ويسأل عنها..

كبر عامر، يتخرج في هندسة الجامعة الأمريكية في منتصف هذا العام، كاد يطير فرحًا يوم التحقت بذات الجامعة بعده بأعوام..

بعيد مبنى ال"هاس" عن مبناه لكنه في الشهر الأول لدخول طلبة ال Freshmen أصبح كل يوم هناك حتى رآها.. يشهد أنها ذكية، ثاقبة العين والبصيرة..

صاحت باسمه حين رأته وأخبرته أنه أصبح وسيمًا رائعًا.. لا شيء يقف في طريقها، لا كلمة تبتلعها إن أرادت قولها..

في شهور أصبحا حبيبين ورغم علمه وعلمها أن كلتا العائلتين لن يمانعا فإنهما احتفظا بالحب سرًا.. يحب طنط "إيمان"، تَعلَّم حبها من حب الجميع لها..

لا يظن أحدًا لا يحبها وزوجها لكن أصبح الحب كله لهذه المتمردة التي قدر ما يحبها قدر ما يخاف جموحها واندفاعها..

كان جنونًا كبيرًا، ما فعلاه ليلة الأمس، كانت محمومة به، حين طلبت منه القبلة الأخيرة شعر بها تعانقه في جنون كأنها تدعوه لالتهام كل قطعة فيها..

أحمق من يقول أن الخطايا تحدث في كل مكان!

أبدًا.. الأماكن تدعوك إليها.. لن يفعلها مرة أخرى.. لن يختلي بها أو يذهب معها إلى غرفة نومها أو غرفة نومه..

غرف النوم تنادي زوارها للخطيئة ربما لهذا أسموا السرير سريرًا لأن ما يدور عليه هو سر النائم، وحده كان أو بصحبة رفيق، بالكاد انتزع نفسه من ذراعيها وأنفاسها وأمسك بكفها إلى خارج الغرفة..

ها هو الآن ينتظر الكارثة الكبرى..

حين تسلل خارج الباب وعلى رأس السلم الداخلي شعرا بباب يفتح، حين استدارا رأياه معًا يخرج من باب غرفته.. وقف ينظر إليهما في ذهول لحظات وعاد ليدخل ويغلق الباب خلفه في سكون.. ظنها تذهب إليه بل طلب منها أن يفعلا لكنها ركضت به على السلالم وغادرا البيت..

لا يعلم لكن ها هو يقبع في غرفته منتظرًا جمع حصاد جنونها وضعفه..

هل حقًا يخبر يوسف والديه؟!

***

هل تعلم متى تعلم أنك قضيت أجمل أوقات عمرك؟ فقط عندما ترفع حاجبيك تسأل كيف مرت الساعات في ثوانٍ.

لهما مشاحناتهما وبعض الخلافات.. إيمان تراه ضعيفًا مع ابنيه وخاصة الكبرى.. لا يقوى على الغياب عنها ولا يرد لها طلبًا وإن كان طلبًا أحمق لا داعي له.. يختلفان أحيانًا على تربيتهما، يختلفان كثيرًا على تبنيه للمواهب الصغيرة التي ما أن تكبر حتى تدير له ظهرها وتتعالى عليه.. يختلفان في اتخاذ قرار لسفر أو وجهة.. يختلفان حتى في تفسير عزلة يوسف وانطوائه!

هو يراها خللًا وهي تراها تعقلًا.. يختلفان كثيرًا أو قليلًا إلا أنهما يتفقان على شيء واحد..

بحيرة قارون بها سحر غامض.. فيها تعويذة قديمة أُلقيت منذ أجيال بانتظارهما.. تميمة تغسل عنهما أتربة الجمود وغبار العناد والاعتياد.. حين يزورانها في الموعد يولدان شابين.. عروسين كليلةِ أعدتها جدتها وأعدت بيتها لهما..

هو سحر تدعو الله ألا ينفك تأثيره أبدًا..

أغلق ناجي الباب ونظر إليها في حسرة كأنه كان يود لو يبقى أيامًا أُخر.. في السيارة وفي طريقه إلى القاهرة نظرت إليه في دلال قائلة:

ألن تأخذني إلى السواقي السبع؟!

ابتسم ابتسامة صغيرة.. يعلم أنها تتذرع بالسواقي السبع لتبقى ويثق أنها لا تعنيها في شيء بدليل أنها لم تأت بحديث عنها عند حضورهما.. هو على مدخل طريق القاهرة، أصبح كل كيانه الآن مع العودة إلى منزله وعناق ابنته وتناول العشاء مع ولديه والاستعداد للخروج إلى العمل صباحًا.. الجنون والكسل ينتهيان بعد خروجهما من ذاك البيت وربما بعد أن ينتهي مفعول أمواج البحيرة الساكنة..

دون وعي قال:

جودي تريدنا لأمر هام..

أعتمت ابتسامتها حين قالها وندم لأنه فعل.. كثيرًا ما يشعر أنها تغار من ابنتها فهي دائمًا عنده الأولى..

هزت إيمان رأسها في ابتسامة واستدارت نحو نافذة السيارة اليمنى، لا تريد السواقي السبع لكن..

اهتز جسدها بشدة واستدارت في ذعر لتجده يأخذ ملفًا في سرعة مجنونة وصاح ضاحكًا:

إلى السبع سواقي..

كالأطفال لفت ذراعيها حول عنقه متمتمة بكلمات حب كثيرة، ومن بين ذراعيها كان يحاول التركيز في الطريق.. سمع سائق سيارة نصف نقل يقذفهما بالسباب والجنون مستشهدًا بشيبته وشعره الأبيض، زاد من سرعة المحرك وانطلقت السيارة في جنون لتشهق في ذعر وعاد يصيح:

لهذا خلق الشعر الأبيض فقط.. لينير الدروب، مازلنا صغارًا.. مازلنا أطفالًا، سنلعب حول السواقي وسأشتري لك من المدينة سلال خوص وأواني فخار..

انطلق كالمجنون ومد يده يرفع صوت الموسيقى وكلما نظر إليها زاد جنونه، صاحت تخبره أنه الجمعة وأن الشوارع تكتظ بالأطفال والسيارات لكنه لم يعبأ..

يريد أن يخرج من ثوب حبس نفسه فيه أعوامًا طويلة.. المنتج الثري الذي يشتري نجومًا ويصنع أسماء، يختار كتبًا ويُقرُّ أعمالًا.. يريد لذاك الشاب البسيط الذي كان يجلس على مقاهي قصر العيني أن يعود، أن يخرج من تحت جلده، يريده أن يركض ويغني ويتبادل السباب مع سائقي السيارات والميكروباصات..

ناجي القديم حضر فكيف لا يرحب به!

ناجي الذي صنعته إيمان ونقود جدتها قد يكون أكثر بهاء ونجاحًا لكن ذاك القديم له الحق في الخروج من سجنه.. في جنون استدار إليها، مد أصابعه وخلع مشبك شعرها ليسقط الشعر الذي جمعته قبل خروجهما وصاح:

أطلقيه، عند السواقي يجب أن يرقص..

كانت تنظر إليه في ذهول، تفهم ما يدور بداخله.. تفهم أنه سجين المواعيد والأرقام والخوف وترقُّب النجاح والمكاسب..

يجب أن تستجيب له، يجب أن تساير الطفل الذي بداخل الفنان الذي حبسه ليتفرغ لجمع النقود وحصد النجاحات.. ناجي يشتاق الإخراج، يحتاج أن يقف خلف الكاميرا التي من أجلها ومن أجل أبنائها ومن أجل كل ما هم فيه.. اختار أن ينساها..

حاولت أن تصيح معه، حاولت أن ترفع ذراعيها وتتمايل على رجع الموسيقى التي تتمنى لو تخفض صوتها.. تحاول لكن المحاولة شيء وخروج الأفعال من قلوبنا بتلقائية شيء آخر تمامًا!

بدأت السيارة في الدخول إلى الأماكن المزدحمة ووقف يسأل عن المكان، أشاروا إليه يخبرونه أين يقع ميدان

"هدير السواقي"! كان يتعمد الدخول بين السيارات ضاحكًا حين يرتعبون، يضحك أكثر حين يصبون عليه اللعنات والسباب.. كأن مسًا من جنون أصابه، جنون أفاق منه حين دخل إلى الشوارع القديمة والميادين الملونة بألوان متنافرة والمقاهي المتسخة، وقف بسيارته أمام مقهى قديم متسخ..

وقف في ذهول ينظر يساره إلى سواقي الفيوم الشهيرة متآكلة.. بعض منها لا يعمل.. سكت فيه كل شيء، غاب جنونه وانطلاقه، حتى الموسيقى الصاخبة سكت صوتها حين أطفأ محرك السيارة وفتح بابها مغادرًا في ذهول ماضيًا على قدميه نحو السواقي..

نظرت إيمان حولها في ذهول، أطفال بملابس قديمة ورجال يرتدون جلابيب من كل نوع ولون، أرصفة متسخة عليها من القاذورات ما يكفي لتلويث أكبر المحيطات، بدأت الأعين تتجه إليها وفي سكون مدت يدها إلى المفاتيح تسحبها تغادرها هي الأخرى رغم الأعين التي تزايد عددها حولها، نظرت إلى حيث يقف زوجها في سكون لتسرع بخطاها تعبر الشارع إليه..

أصوات كثيرة حولها بدأت تقذفها بكلمات متناثرة..

جميلة هي وتعلم، أنيقة بثياب تختلف عن كل ما يرتدونه وكل ما رأوه يومًا..

كانت ترتدي بنطلونا أبيض مع حذاء رياضي أبيض وتي شيرت عارية الأكمام، لونها في لون ثمرة فستق يوناني..

بدأ الخوف يسيطر عليها وهي تعبر الميدان الكبير إلى حيث يقف زوجها.. لا تصدق.. كانت تظن السواقي السبع في حديقة أو متنزه فإذا بها في ميدان كهذا.. بعد عناء اقتربت منه حيث كان واقفًا ينظر إلى السواقي وصاحت بصوتها المتهدج تناديه.. استدار نحوها حين أصبحت خلفه ونظرت إلى عينيه وكتمت شهقتها..

هو يبكي! كيف؟! أما كان يضحك منذ لحظات!

همست في ألم:

ناجي.. ماذا حدث؟!

استدار إلى السواقي وأشار لها بذراعيه وقال في ألم كأنه يحادث أمه:

لماذا نقتل وندمر كل أشيائنا الجميلة؟ هل تعلمين قيمة ما نملك.. نحن حمقى يا إيمان حمقى!

نظرت حولها في ألم، هو على حق.. لو كانت هذه السواقي في بلد آخر، مع شعب آخر لأصبح الحال حالًا آخر..

أمسكت بكفه بين يديها قائلة:

كنت أظنها في بهاء البحيرة..

رأت عينيه تشتعل وتحدث يخبرها أنه في طريقهما إلى حيث يقفان، كان يحلم بتصوير مشاهد من فيلم العام القادم على أرض الفيوم وحول سواقيها..

كان يتحدث في حماس مختلط بالألم، كان يحدثها عن الفن، عن رسالته، عن العناء وعن الخيبة التي شعر بها.. كانا يمشيان معًا كأنهما نسيا أمر سيارتهما وكانت تتمنى لو تخبره أنهما ابتعدا عنها لكن كانت تشعر أنها إن فعلت تفيقه من حديثه وقليلًا ما سمعته يتحدث هكذا.. لم يكن يرى ما تراه من قاذورات يطآها بأحذيتهما الغالية، لم يكن يسمع اللمزات عنها وعنه، كان في عالم آخر من الحلم والحسرة..

وقفا فجأة، وقفا معًا حين رأيا ذاك المشهد الذي ساقته لهما أقدارهما..

جمع من النساء يفترشن الأرض وأمام كلٍ منهن أقفاص كبيرة.. أصوات تنادي وأخرى تصيح وأخرى تسأل.. حيوانات وطيور في الأقفاص تشدها أيدٍ وتتفحصها، إما رمتها في قسوة إلى أقفاصها وإما بقيت تحملها.. كلهن نساء متشحات بالسواد، حولهن نساء تتجول تحمل أكياسًا سوداء أو ملونة.. وقفا في ذهول،

استدارت إيمان إلى مجموعة قادمة من النساء وسأل ناجي في ذهول:

أين نحن؟!

كانت مذعورة مشمئزة مما تراه.. طيور تُذبح وتُلقى على الأسفلت لحظات وأخرى ترمى إلى أوانٍ كبيرة قديمة يتصاعد منها دخان غليان الماء لتنظيف الطيور..

لم تر في أعوام عمرها شيئًا كهذا، أما هو ففتح فمه في ذهول كأنه يرى مشهدًا سينمائيًا يجب أن يرصده أو يصوره..

كانت عيناه تتجولان على وجوه واقفة تشتري وأخرى جالسة على الأرض تبيع.. جميعهم يقطر البؤس من أعينهم ورغم هذا تتعالى ضحكاتهم وسخريتهم من كل من هم على شاكلة ناجي وزوجته.. أخرج هاتفه من جيبه وبدأ يصور، كان يكبر الصور البعيدة ويأخذ لقطات متعددة، وفي إحدى لقطاته رآها ولم يفهم، عاد يكبر الصورة أكثر ويحاول أن ينظر أين هي بالتحديد وسط هذه الجموع..

رآها ولا يعلم إن كان يراها من خلال شاشة هاتفه أم من بين عينيه.. كانت البائعات قد تنبهن لزوجته وبدأن ينادينها حيث نهض بعضهن لعرض ما تبيع عليها وكانت

هي ترجوه أن يخرجا لكن ما كان يسمعها.. كان يتقدم ويزاحم الجموع نحوها..

شابة في عمر ابنته أو أكبر قليلًا، جميلة وجهها مستدير عليه مسحة ملل واضحة، ترتدي عكس كل من حولها، بنطلونا زهيد الثمن وقميصا انتحرت ألوانه من فرط سقوطها في مياه الغسيل.. شعرها ناعم بني يختفي الجزء الأكبر منه خلف منديل مزركش والأغرب أنها تحمل في يدها كتابا تجلس به على قفص خشبي مهترئ وإلى جوارها امرأة من الواضح أنها أمها، لكنها أيضًا رغم سواد ثيابها عنهن تختلف..

اقترب ناجي في هدوء وقال:

أريد شراء عشرة أزواج من الحمام..

رفعت عينيها الضيقتين إليه وقالت تشير إلى القفص الرابض أمامها:

خمسة أزواج هو ما بقي عندي..

كان ينتظر أن ترفع الشابة عينيها لكن كان يبدو أنها منهمكة في القراءة إلى حد بعيد وعاد يقول في هدوء:

كم يستغرق إعدادهم؟

في هدوء قالت:

لا أذبح.. إن شئت أن تشتري فعليك أن تجد من يقوم بباقي العملية..

بطرف عينيه أشار إلى جليسة الكتاب قائلًا:

ألا تفعل؟!

بدأت عروقها تتحرك بشيء من غضب وقالت في رنة عالية:

لا نذبح ما ربيناه!

يريدها أن ترفع وجهها، يريد أن يرى لون عينيها وقال:

أدفع لها مائتي جنيه في الذبح والتنظيف..

انتفضت حميدة واقفة وانتفضت زينب حين سمعت الرقم وصاحت الأم:

لا بضاعة لدينا للبيع..

كانت حاسمة غاضبة تظنه يلاحق ابنتها ونهضت الابنة تنظر إليه في ذهول ومن خلف ظهره قالت إيمان:

فلنمض يا ناجي..

لانت قسمات حميدة قليلًا حين رأت زوجته، عادت تجلس مكانها إلا أن ابنتها قالت:

أنا قبلت..

لم ينتظر لحظة بل أخرج لها ما وعد به واستدار يمنح الأم ثمن طيورها وأخبرهما أنه سيعود بعد برهة..

أمسك يد زوجته يخبرها أنهما سيذهبان لإحضار السيارة وأنه وحده سيدخل لأخذ ما اشتراه.. لم تفهم إيمان شيئًا لكن كان يكفيها أن تخرج من هذه الدائرة السوداء المحترقة.. في طريق عودتهما أخبرته أنها لا تفهم لماذا يشتري طيورًا ويسافر بها كل هذه المسافة وفي بيتهما طاه يحضر لهم ما يشاؤون دون دم أو رائحة..

كانت تتحدث وكان لا يسمع..

على وجهه ابتسامة صغيرة وفي عينيه صورة الفتاة الجميلة التي كانت منهمكة في القراءة تردد بشفتيها وتتمتم كأنها حقًا تستذكر حتى أنك تكاد تصفق لها.. تخدع أمها بمهارة.. الشابة كانت تمسك الكتاب مقلوب الصفحات وتردد كلمات بشفتيها.. كلمات لا معنى لها ولا وجود!

***

مجهد هو ويريد أن يزحف نحو فراشه لكن كيف يقاوم ضحكتها وذراعيها.. ضمها إلى صدره في حب كبير

ورفعت سبابتها الصغيرة في وجهه تحركها مهددة وهي تقول مخاطبة أمها:

لا تسمحي لزوجك بالنوم قبل الأكل..

ابتسمت إيمان في هدوء وجلس ناجي على مقعده.. قليلًا ما يلحق بمائدة العشاء، هم عكس بيوت الأرض التي تلتف عائلاتها على طعام الغداء.. عشاء الثامنة مقدس وموعده ثابت حتى وإن جلست إيمان وحدها على المائدة لكن هناك دومًا من يحضر منهم..

بطرف عينيه نظر إلى صحن السلطة الذي تلتهمه ابنته، انفرجت أساريره حين دخلت "مبروكة" طاهية المنزل تقول "حمام الفيوم"! ما زال يحب الطواجن والمقليات والباذنجان كأيام قصر العيني.. وضعت مبروكة زوج حمام أمامه وأومأت إيمان رافضة أن تأخذ زوجًا آخر كانت تحمله..

صاحت جودي في جنونها وصخبها تسألها إن كانت أخيرًا أصبحت "فيجي" مثلها إلا أن أمها أخبرتها أنها لم ولن تكون، هي فقط لا تنسى يوم اشتروه وكيف رأتهم يتطايرون في يد البائعة..

انطلقت ابنته تتحدث عن قسوة آكلي اللحوم، تعلم أن حديثها لن يجدي وأن هذه السعادة التي على وجه ناجي لن تتبدل أبدًا لكنها كعادتها نظرت إليه وقالت:

ماذا لو أن أحدهم ذبحني وجلس يأكلني؟

نظر إليها في ذهول وصاحت تخبرهم أن هاتين الحمامتين لهما أم تبكيهما الآن وكان من الممكن أن يكون لهما أبناء..

تحدثت طويلًا وكثيرًا عن أبقار تذبح وتحرم من الحياة ليتسمم بها البشر فاللحوم عدونا الكبير..

كيف نصبح بشرًا إن نحن أكلنا الضعيف ونصرنا الذكور على الإناث؟

لا شيء يشغلها في الحياة سوى أن تعمل في منظمة حقوق المرأة أو الحيوان.. النساء مهمشة والحيوانات تذبح وتهان على يد من يدعون أنهم إنسان!

سكتت فجأة وماتت الأحرف على شفاهها حين أقبل يوسف ووقف ينظر إليها في سكون.. منذ تلك الليلة التي رآها هي وعامر على سلالم البيت وهو ينظر إليها هذه النظرات الغريبة.. حاولت أن تتحدث معه لكنها لم تستطع، ماذا تقول وما زال هو لا يعلم كيف ينسى!

صاح ناجي يطلب منه الجلوس ومنحه "حمامة" من الصحن الراقد أمام أمه.. استدار إلى ابنته يسألها ألا تحاضر أخاها كالعادة! نهضت عن مقعدها تقول ألا فائدة..

أخذ يوسف قضمة ونظر إليها قائلًا:

ألا تظنين حبات "الجمبري" التي تلتهمينها لها في البحر عائلة وأصدقاء؟ تتحدثين عن التمكين والصدق والمواجهة وتفعلين أمورًا في الظلام، تدافعين عن الماعز والكلاب والدجاج وتلتهمين الجمبري والأخطبوط.. تقبّلين بابا ولا تتقبلين منه ما ترينه خطأ رغم أنك تخطئين! لماذا لا تواجهي نفسك؟ أنت مزدوجة المبدأ والرأي!

استدارت إيمان إلى ولديها في ذهول، هو لا يتحدث كثيرًا فماذا أصابه؟ وهي لا تسكت لحظة فماذا أصابها.. نظرت إلى زوجها الذي قال كأنه لا يريد الخوض في دهاليز ابنته المغلقة:

هل أحدثكما عن بائعة الحمام؟!

أرخت جودي عينيها عن وجه أخيها في ألم ونهضت قائلة:

لديّ محاضرات باكرًا..

حين رأت والدها ينظر بلوم إلى أخيها قالت:

يوسف.. أريدك أن تأتي إلى غرفتي قبل أن تنام!

***

الانتظار! ذاك الذل الكبير الذي يطلقون عليه "الانتظار"..

في دائرة الانتظار أنت ترقص على أشواك من ذل وسيوف محمومة من صور يرسمها لك خيالك وتعبث بها شياطين ما تعرفه وما تجهله في وحشية!

لا شيء أمرُّ من الانتظار!

تعلم أنها مخطئة، ورغم هذا توقن أنها على صواب وإلا فجميع ما تكتبه خطأ وجميع ما تنادي به في خُطب الجامعة خطأ.. لها كل الحق في أن تحب عامر، لها كل الحق في أن تمتع روحها وجسدها ما دامت لا تؤذي أحدا ولا تسرق حق أحد.. هي كأمها.. ألا ترتمي أمها بين ذراعي ناجي وتنام إلى جواره بل وتنام معه!

راشدة هي وبالغ هو عامر..

عرضت وقبل أن يأتي إلى غرفتها وافق.. لماذا لم تكمل معه ما اشتهته؟ لماذا خرجت به من غرفة نومها وتسللت كأنهما لصان إذن؟ لماذا ارتعدت وما زالت حين رآها يوسف؟! لماذا ترقص عروقها على حبات جمر وهي تنتظر دخوله إلى غرفتها وتفكر فيما ستقوله له..

هناك خيط كبير ضائع ومفقود في أرض بنات العرب.. تقاليد وموروثات اسمها العيب والحرام..

شهقت شهقة صغيرة واستغفرت ربها.. هي مؤمنة به، تصلي وتعلم أن ما فعلته حرام..

ما هو الحرام؟ أليس حرامًا أن تمتنع عمن تحبه؟ أليس حرامًا أن تقطع رأس شهوتها واحتياجها له؟ لو أنها فقط تصل إلى هذا الخيط الذي يفصل بين إيمانها بحريتها وأهليتها وبين خوفها وإحجامها..

يوسف طفل فكيف لطفل أن يفهم ما تفهمه هي؟!

لن يأتي!

هو أيضًا مثلها خائف لا يعلم ماذا يقول.. نظرت من نافذة غرفتها إلى شجرة ياسمين عتيقة غصونها ممتدة إلى شرفتها.. ثلاثة أعوام هي الفارق في العمر بينها وبين أخيها.. هل الأعوام الثلاثة حقًا تكفي لأن تجعلها حرة راشدة.. نظرت إلى زهرات الياسمين البيضاء في سكون وفجأة نهضت مسرعة..

رأت الخيط.. رأته في وضوح.. الخيط هو المواجهة.. هو الإعلان.. كما تقف وسط طلبة الجامعة وتتحدث عن عطب المجتمع وذكوريته وضعف النساء واستسلامهن لأنها تؤمن بكل كلمة تقول يجب أن تتحدث عن عامر وحبها وحقها في شفتيه وذراعيه..

ستذهب إلى يوسف.. هي الكبرى لهذا هو الأجبن..

فتحت باب غرفتها في قسوة خوفها ووجدته أمامها ينظر إليها حيث أرخى كلاهما عينيه.. أفسحت له الطريق ليدخل ويقف خلف الباب الذي أغلقه ووقفت الكبرى تنظر إليه..

وسيم أخوها.. له بنية أبيه الجسدية البهية وله وجه إيمان الصافي وشعرها البني الذي تسقط خصلة منه على جبهتها.. لا شك أن الفتيات سيطاردنه عند دخوله الجامعة في العام القادم وضحكت رغمًا عنها.. من حق الفتاة أن تفعل إن كان هذا من حق الرجل..

هدأت أنفاسه قليلًا حين رأى ابتسامتها وقالت في حنان:

هل تعلم أنك وسيم جدًا؟!

نظر إلى أخته في مشاعر مختلطة لا يفهم الكثير منها، في مدرسته الدولية تغازله الفتيات لكن هو لا يهتم..

قال في هدوء وهو يخطو ليجلس على مقعد بجوار فراشها:

بعض الأولاد يقولون أني شقيق أجمل البنات..

قالت في صدق:

لا يهمني أن أكون أو تكون جميلًا..

صمتت لحظة ورفعت عينيها إليه لتقول:

أريد أن أكون حرة، أو ربما كاملة، نعم كاملة فكل النساء أنصاف إنسان!

قبل أن يتحدث قاطعته قائلة:

نعم أحضرت عامر إلى هنا لأنني أحبه.. لكن ما أن أغلقنا الباب حتى علمنا أننا وإن كنا وحدنا لسنا أحرارًا..

أخبرها أنه لا ينتظر منها أن تحكي ما حدث وأخبرته أنها لا تفعل.. هي تلقي عن عاتقها عبء إيلامه وتضع على كتفيه عبء حيرتها..

وضعت كفها على كفه وطلبت منه أن يساعدها.. لا تريد أن تردد شعارات جوفاء ولا تريد أبدًا أن تشعر بما شعرت به حين أُغلق عليهما الباب أو حين رآهما يوسف..

صعقها أنه بعد صمت لحظات ضمها إلى صدره في حنان.. صعقها أن الطفل أو من ظنته طفلًا قال وهي على صدره:

جودي.. نحن جميعًا تائهون!

***

خلع نظارته المستديرة الصغيرة ليستدير بمقعده إلى الشرفة الزجاجية الكبيرة خلفه وأطلق تنهيدة كبيرة.. الورق رائع.. لم يقرأ يومًا رواية بديعة كهذه ولم تتجول عيناه على سطور سيناريو وحوار عميق كهذا..

ما اسمه مرة أخرى؟ أدار ذراعه ملتقطًا الورقة التي كانت الأولى، وقرأ جميع بياناته المكتوبة، لم يسمع قط بهذا الاسم ولا يظن أن أحدًا سمع به.. هذا البلد تحتضر على أرضه مواهب كبيرة، قد يهرم أصحابها ويموتون ولا يستمتع بإبداعهم أحد..

فراشة صغيرة رآها تحاول اقتحام الزجاج.. كابنته يهوى الفراشات! يؤمن أن بينه وبين الفراشات حوارا لا ينتهي.. حين اطمأن أنها بخير وحين ابتعدت وأدركت أن الطريق مغلق رغم كونه في عينيها مفتوحا أغمض عينيه..

رأى كل حرف قرأه في مشهد أمامه.. كاد يلمس الألوان والديكورات ويسمع الموسيقى.. قصة لم تقتحم قصة سواها قلبه.. غاب مع تفاصيل ما قرأ وما يرى لحظات طويلة.. رأى الفيلم يحصد جوائز ويدخل مهرجانات.. أغنية النهاية لا أحد سوى "ماجدة الرومي" تغنيها!

"أحمد شادي" هو البطل.. كل المشاهد تصور في باريس وأحد بلاد أفريقيا كما هو مكتوب..

فتح ناجي عينيه واستدار ينظر إلى الورق.. من سواه يُخرج عملًا كهذا؟ أمسك بهاتفه وبعد لحظات قال:

أنهيت قراءة الرواية والسيناريو، أريد من كتبهما في مكتبي..

في هدوء سأله السمنهوري متى يريده..

ناجي يعلم أن صديقه مكتشف الكاتب ويثق أنه يحلم بإخراج الفيلم فقال في صدقه الذي يعلمه الصديق أكثر مما يراه ناجي في نفسه:

أريده في مكتبي بعد ساعات وأريد منك صنيعًا كبيرًا أخبرك عنه حين نلتقي وأعلم أنك يا صديقي لن تخذلني..

أغلق الهاتف واستدار يبحث عن فراشته بعينيه، رآها تقف على الزجاج من جديد لكن في هدوء هذه المرة.. ابتسم لها وهمس:

أموت إن أخرج هذا الفيلم أحد سواي!

أغلق السمنهوري الخط وتنهد ناجي، صمت السمنهوري وبحة صوته قالت كل شيء لكنه يعلم أن صديقه سيفهم وحتى إن لم يفهم.. كل حرف في هذا الورق له ومنه ولن يكون إلا به..

هناك أوراق تقتلك وأخرى تحييك وهذه الأوراق تناديه، تبعث فيه الروح وتعيد إلى روحه الحياة.. لا أحد أبدًا يرى حياة تُبعث في روحه الميتة ويدير وجهه إكرامًا لصفقة أو مشروع..

لماذا يطلبه السمنهوري؟

هل استجمع قواه ويخبره أنه لن يترك له إخراج الفيلم!

أجاب في حذر وأخبره أن الرجل لا يجيب، نهض ناجي عن مقعده..

نداء الروح الكسيرة لا يؤجل أو يرد.. لملم الأوراق جميعها وأسرع بها إلى سيارته..

***

يصدق أحلامها التي تراها في نومها أكثر كثيرًا مما يصدق ما تراه عيناه وتلمسه أصابعه.. يقاس صدق حدس النساء بنقائهن وهل هناك امرأة على الأرض في نقاء أمه!

مد يده والتقط الجيتار ثم أغمض عينيه تاركًا أصابعه تعزف موسيقى "مون آمور".. تحب أمه هذه الموسيقى ويحب ناير أن يعزفها لها..

خرجت من غرفتها ووقفت أمامه تستمع له يعزف مغمض العينين.. يبلغ الثلاثين بعد أيام وما زال يخبرها

أنه لم يولد بعد.. يزداد وجهه الأبيض ضياء ووسامة وما زال بكرا بعد.. يذهب إلى عمله محاميا في مكتب صديق والده وما زال لم يعمل بعد.. حبيبها وحبيب كل من يراه ويعرفه ما زال قلبه لم ينبض بعد.. يكتب عن الحب والعناق وذراعاه من سوى أمه خاويتان!

هو عندها "مشروع العمر" كما تسميه..

أفنت عمرها ومالها وعافيتها على تربيته بعد رحيل والده وما زال وما زالت بالحصاد يحلمان.. فتح عينيه واتسعت ابتسامته حين رآها وقال هامسًا:

أكاد أجزم أن "رود ريجو" حين كتبها منذ مائة عام كان يا أمي يراكِ..

في حنان أجابته:

بل كان يدعو الله أن تعزفها أصابعك..

بطرف عينيه استدار إلى هاتفه الصغير، لم تتوقف أضواؤه عن الاشتعال.. لا يعبأ.. لا بد أنها اتصالات خاطئة.. العالم بأكمله
لا يعنيه في حضور أمه وجيتاره!

جلست على الأريكة إلى جوار هاتفه وقالت:

أيهما تحب أكثر القلم أم الجيتار؟!

ضحك واستدار نحوها قائلًا في جدية كأنهما في حوار فلسفي عميق:

أحبك أنتِ.. أحب من علمتني كيف أعزف بالحروف وأكتب بالموسيقى.. كلاهما يا حبيبتي عزف على أوتار الألم!

شعرت بانتفاضة الهاتف ودون وعي أمسكت به ومدت يدها إلى وحيدها.. دونما أي اهتمام التقط الهاتف من كفها وألقاه إلى جوارها وعاد يعزف من جديد.. هي معه وجيتاره بين ذراعيه.. لا شيء آخر على الأرض يهم وربما لا أحد عليها بأمرهما يهتم!

فتحت عينيها على صوته يقول في مرح:

ألا توجد على الأرض امرأة مثلك لأتزوجها؟!

تنهدت؛ تهم بإخباره أنها تتمنى أن يفعل لكن قبل أن تنطق كلمة كانت هناك دقات متتالية على باب البيت..

من الزائر؟ من يزور بيتا سكانه لا هم أثرياء ولا ثرثارون!

همت بالنهوض فأمسك بيدها يحثها على البقاء.. من يطرق الباب سيعلم أنه أخطأ العنوان..

بعد لحظات نهض هو ليفتح ويخبر من على الباب بخطئه، نهضت خلفه في تثاقل كأنها تشتاق لو أن أحدًا

حقًا يقصد زيارتهم أو يسعى إلى رؤيتهم.. حين فتح الباب اتسعت عيناه في ذهول وصاح الآتي والأوراق بين ذراعيه يقول:

كان يجب أن آتيك وإن كنت على كوكب القمر..

دون أن ينتظر دخل من جانبه إلى صالة البيت واصطدم بالأم تنظر إليه في ذهول بملابس بيتها وأفاق من لحظة جنونه.. أرخى عينيه في ذعر واستدار بظهره يتمتم بكلمات اعتذار كثيرة..

نظرت وداد إلى ولدها تسأله بعينيها لتجده هو الآخر شاردًا مذهولًا، شعر الضيف بجنون ما فعله ومد يده وما زال يحتضن الأوراق بذراعه قائلًا في اعتذار:

أعتذر بصدق.. أقدم لك نفسي..

قاطعه ناير في ذهول قائلًا:

أستاذ ناجي.. ناجي الكبير!

***

أدار مراد محرك سيارته وانطلق نحو بيته، يقتله الغيظ ويكاد يسحق عروقه ورغم هذا يرفع قبعته للكبير..

أحضر ناير من بيته وأغرقه بكلمات المديح والثناء ليصبح الشاب مطويًا تحت جناحيه.. اشترى منه

السيناريو وحقوق الدراما كاملة بنصف ما يُدفع لمن هم أقل منه موهبة وقدرة وفي النهاية استدار كل منهما ليقولا له "شكرًا" لأنه جمعهما!

قرأ الأوراق منذ أكثر من عام وتردد كثيرًا في عرضها على ناجي، خشي أن يغضب لأنه يقدم له أوراقا لشاب مغمور بعيدًا عن الأسماء المعروفة التى يسعى إليها الجميع وإن كان ما تكتبه خرافات وعقم أحرف وجدب كلمات..

كان مأخوذًا بقدرةناير على حبس أنفاسك في كل مشهد كتب.. خرج إلى السوق ووجد أن للشاب روايتين خرجتا من دار نشر صغيرة اشتراهما وقرأهما في أسبوع حيث أيقن أنه أمام موهبة كبيرة لا يجب أبدًا أن تضيع من تحت يده.. التقيا أكثر من مرة ووقع في هواه.. نعم.. عشقه السمنهوري كما يعشق إيمان.. جميل هو ناير ومراد يعشق الجمال.. كما يقف ناجي بينه وبين إيمان انتصب اليوم سدًا حائلًا بين أمانيه في ناير.. مات كل أمل ضئيل نبت بداخله ليصل إلى ناير.. الكبير استولى عليه، حتى إخراج الفيلم، أقصاه عنه وهل يملك أن يقول "لا" وهو من ينفق عليهم جميعًا!

يكره صديقه ولا يملك فراقه.. هو مخرج كبير لكن لا أكبر من شركة ناجي.. خروجه إلى شركة أخرى ينتقص من شأنه.. لا أحد ينفق على عمل كما يفعل الكبير، لا

أحد يدفع أجرا كما يدفع له.. ولا أحد له زوجة يحبها كما يحب إيمان!

والآن أصبح ناير أيضًا تحت سلطانه! لو أنه يعانقها مرة ويستنشق عطرها داخل خلايا جسده، ولو أن ناير يبادله الرغبة ويترك له نفسه مرة واحدة فقط لعلمه أن عشق النساء وحده لا يكفي!

شكراه ونظر إليه ناجي نظرة ترك بعدها المكتب لهما معًا..

السمنهوري وحده في الطرقات ينعي حب امرأة لا تراه.. وحب شاب يدعي البلاهة كلما ألقى له كلمة اشتهاء.. حتى القصة التي اكتشفها ووضعها بين يدي الكبير سرقها منه وطلب أن يتولى إخراجها.. الكبير هو أكبر أصدقائه عداوة وبغضًا لكن لا يملك أبدًا أن يبتعد عنه.. يرضى بأجر أقل ويعلم أنه سينجح في أي عمل يسند إليه لكنه أبدًا لا يقوى عن الابتعاد عن رجل وامرأة تسكن شهوته فيهما كل عروقه وأوصاله.. سيبقى حتى ينال أحدهما أو ينالهما معًا..

الكبير سيقع.. كل من طار وارتفع يأتيه يوم ويقع وفي تلك اللحظة سيقع معه كل شيء، وسيقف السمنهوري ليلقف بين ذراعيه ناير وإيمان!

***

إن اقتربت بصفحة كتاب من عينيك ولامست بها جفنيك هل تستطيع قراءة أحرفها؟ أبدًا لن تفعل إلا إن كنت تحفظ ما كُتب عليها وتعلم كل حرف وكل ميل وانحناءة رُسمت..

هو كذلك الله.. قريب جدًا.. قريب إلى الحد الذي يجعل البعض لا يبصره ويبكي بحثًا عنه!

يشعر به، يوقن بقربه ووجوده فقط من كانت بينه وبين الله قصص وتاريخ!

كان يعلم أن السمنهوري مغرم بما كتب، كان يعلم أنه قرأه عكس كل من منحهم قصته من الناشرين والمنتجين.. كان يعلم أيضا أنه يشتهيه وبقي يتظاهر بالغباء تاركًا الباب نصف مفتوح.. عالم الفن في هذه الأرض يُدار فقط بالشهوات والعلاقات..

ناير البدر لا شهوة له إلا في المشاعر ولا علاقة له إلا بالله.. نصره الله.. الكبير أطاح برأس السمنهوري ووقَّع معه عقدًا يعلم أنه أقل مما يستحق لكن هو سعيد..

أن تكون بدايته مع شركة الكبير.. أن يُخرج الكبير قصته بنفسه.. أن يصبح رفيقًا له وأن يتحرر من احتياجه لادعاء البلاهة مع السمنهوري بعد أعوام طاف فيها على كبار وصغار الفنانين والممولين فهذا يعني أن الله معه لأنه وأمه دومًا مع الله..

فتح باب سيارته وأخرج منها صحن البقلاوة مبتسمًا في حنان ينظر إلى العمارة الصغيرة المكونة من ثلاثة أدوار.. اشتراها والده بكل ما كان يملك حتى أصبحوا بعدها لا يملكون شيئًا سوى شقتهم في الدور الأول وهذا الملحق الصغير الذي يقيم فيه بسلَّمه الخاص في الدور الأرضي.. عمارة في المعادي القديمة تساوي ملايين ومجموع ما يحصدونه منها بضعة آلاف سنويًا.. معظم السكان يؤجرون شققهم لأجانب بآلاف الدولارات ويقذفون بالمئات إلى أمه كل شهر بل كثيرًا ما يتأخرون في دفعها!

كل شيء على هذه الأرض تحركه الشهوات والعلاقات!

صعد في هدوء على السلالم المؤدية إلى الملحق الأرضي.. أصيصات زرع وزهر كبيرة على جانب السلم المعلق والمنفصل عن سلالم العمارة.. يهوى الزهر والزروعات الخضراء.. يهوى كل جمال خلقه الله..

دخل إلى الملحق الأرضي ونظر حوله في ارتياح.. سيدعوها إلى العشاء هنا.. في الشرفة الخلفية التي تطل على الحديقة الصغيرة.. سيطهو لها "الفيلية بوافر" وبعض الخضر المشوية ثم يلتهمان معًا قطع البقلاوة ويضع بين يديها الشيك الذي منحه إياه الكبير..

ربما يستأجران محاميا متخصصا لطرد السكان وربما يرممان ما يرفضون ترميمه في مدخل البيت.. ربما أي شيء وربما كل شيء أو لا شيء..

هو سعيد.. ناير حقق الحلم وستصل قصته الأولى إلى شاشات العرض في ظرف عام.. البيت يبدو لامعًا نظيفًا.. الصالة الصغيرة والمكتبة وطاولة الطعام الصغيرة والجيتار.. عالم صغير كبير.. أمسك بهاتفه بعد أن غسل قطعتي اللحم وحين سمع صوت أمه الحاني قال:

وداد أنتِ مدعوة للعشاء في الملحق السفلي.. تأتين في الثامنة دون تأخير.. لدينا حديث طويل طويل..

ألقى بهاتفه الصغير لكنه عاد والتقطه وفتح جرسه، لن يغلق الجرس بعد الآن.. قد يحادثه الكبير في أي لحظة كما أخبره.. أصبح لديه ما ينتظره ومن ينتظر منه أنباء وأخبارًا وتحركات..

نظر حوله كأن كل ما حوله جديد رغم كونه قديما.. العالم يتغير حين نوقن ونعلم كم هو قريب..

الله قريب جدًا لكنهم لا يبصرون!

ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يهمس "آمنت بك رب العالمين ويزداد فيك يومًا عن يوم يقيني"!

خيل إليه أن هاتفه يدق وأسرع إليه ليجده الكبير، ابتسم يسكنه شك أن هذا الرجل يحادثه ليسأله ذات السؤال الذي سأله إياه أكثر من عشر مرات "هل أنت من الفيوم؟ هل تزورها؟ هل تعرف أحدًا فيها"! في كل مرة كان يجيب بالنفي ويعود ليكرر السؤال بعد حين.. يبدو أن كل من يعمل في الأدب أو الفن به حقًا مسٌّ من جنون!

***

لا تصدق.. لا تصدق أبدًا بل تكاد تُجن!

لم تفكر زينب حتى في أن تمنحها ورقة واحدة من الورقات ذات المائة جنيه التي أخذتها من ذاك المخنث الذي يجمع شعره في شريطة سوداء.. لا تريد النقود لكنها تريد أن تعرض عليها ولو ورقة واحدة وستخبرها أنها لا تريد.. كادت تموت حين رأت ابنتها تذبح الحمامات وتقتلع ريشها وتفصل رأسها عن جسدها وهي

التي ما أمسكت سكينًا يومًا.. متى تعلمت وكيف ولماذا؟ أمن أجل النقود؟!

هي شابة تشتهي ثوبًا أو حذاء ولكن ألا تعرض على أمها من نقودها مليمًا! لم تكن تعلم أنها بهذه القسوة وهذا الجمود لكن كان يجب أن تعلم.. أرضعتها عطيات القسوة.. أطعمتها وسقتها غلاظة القلب.. بيتهما لا مخابئ فيه.. هذا البهو الذي تركض فيه الطيور بين سطح البيت وسلالمه وغرفة واحدة صغيرة لا باب فيها.. غرفة لا شيء فيها سوى قطعتي اسفنج تنامان عليها ودولاب من المشمع يُغلق بسوستة كبيرة فيه ملابس حميدة وابنتها.. كل يوم وبعد خروج زينب ومنذ ذاك اليوم وهي تبحث عن النقود ولا تجدها.. ربما اشترت بها كتبًا وتركتها في المدرسة لكن أخبرتها مها أن الوزارة تمنحهم كل ما يحتاجونه من كتب.. لم لا تسألها؟ بل لم لا تطالبها بالنقود؟ هي أمها.. تطعمها وتنفق عليها.. في صدرها نار مشتعلة..

ألقت حميدة رأسها بين كفيها في ألم وخانها صوتها لتجهش في البكاء.. ضاع العمر ورغم الموت انتصرت تلك العجوز عليها.. لم ترحل، دفنت حميدة جثمانها، أما روحها فبقيت في جسد ابنتها.. ذاك المخنث الأحمق هو وزوجته، ليتها ما رأتهما..

رفعت رأسها ومن خلف دموعها ترى "لطيفة" تتقدم نحوها في هدوء.. دجاجتها أحن عليها من ابنتها..

تمنحها بيضًا وفراخًا وأيضًا حنانًا.. ألهذا يربي الفقراء الطيور لأن لا أحد سواهم يمنحهم الحب والأمان!

ربما أيضًا لهذا يؤوي "عطية" كلبًا ضالًا منذ حضوره إلى أرض الفيوم، يتبعه في كل مكان ويحادثه في سيره ويحرسه في نومه في "عشته" المفتوحة على ناصية شارعهم!

ربتت على رأس لطيفة في إشفاق.. كبرت وأصبح إنتاجها من البيض قليلا.. أصبحت من "العتاقي" ويجب بيعها قبل أن تموت..

سكت صوت كل شيء في رأس حميدة وهي تنظر إلى دجاجتها.. تبيعها قبل أن تموت وهي ببيضها وفراخها وحبها منحتها الكثير! لوت شفتيها في مرارة.. حميدة لا تختلف عن ابنتها ولا عن سائر البشر..

نبيع كل ما يمكن بيعه ولغبائنا نظن أننا لا نُباع حتى وإن كنا أمهات أو آباء!

***

"تطاردني يا إيمان.. يُطاردني وجهها في خطواتي واجتماعاتي، أراه مرسومًا حتى على وجبة العشاء.. يجب أن تأتي معي"!

نظرت إليه كأنها تنظر إلى مجنون وصاحت رغم رقة صوتها التي لا تغيب:

لا أعترض ولكن لنفعل الجمعة القادمة.. هو عيد ميلاد ابنتك!

أمسك بذراعها في تصميم يخبرها أنهما سيعودان قبل الخامسة، إن ذهب إلى بائعة الدجاج وحده لن تصغي إليه.. ستظنه يريد بابنتها السوء، وجود زوجته يجعل القصة بأكملها تختلف.. هو حقًا منذ قرأ الأوراق لا يرى سوى تلك الشابة تصلح للبطولة.. يريد فتاة بكرا.. يريد أن يصنع منها ممثلة.. هي لا سواها..

وصفها ناير على أوراقه كأنه رآها.. يثق بحس المخرج أنها ممثلة ماهرة وما ينقصها يُعلمها إياه.. سيتقدم بهذا الفيلم إلى مهرجانات عالمية ويثق أنه سينجح.. لا يستطيع انتظار أسبوع آخر.. ستكون هناك مناقشات ومفاوضات وبعدها يحتاج شهورًا ليحولها إلى ممثلة من بائعة دجاج..

عاد يرجو إيمان لكنها لم تصغ له..

لن يعودا قبل السابعة! من سيعد الحديقة ويتابع شئون الحفل؟! جودي نفسها لن تحضر من جامعتها قبل الثامنة ومعها أكثر من ثلاثين صديقا وصديقة.. متى يتخلص ناجي من أنانيته وإلى متى تذعن له؟! وفي أي

شيء يريدها معه؟ تقف في ذاك السوق ترجو بائعة دجاج أن تمنحهما ابنتها؟ بالطبع ستفعل وإن أرسل لها سائقا في سيارة أجرة.. لماذا يريدها معه؟ لن تترك ابنتها أبدًا وهي تعلم أن سجائر حشيش ستُدَخن، عناق وقبلات حارة ورقصات محمومة ستدور في حديقتهم.. وجودها في المنزل يجعلهم أكثر تحفظًا وأقل جنونًا وتهورًا!

ألا يحب ابنته في جنون؟! كيف أصبح لا يعنيه كل ما تخبره به ويقف كطفل أحمق عنيد يدق الأرض بقدميه من أجل أمر تافه يمكنه أن ينتظر شهورًا لا أسبوع..

"لن أذهب" قالتها إيمان في حسم..

"لن أنساها لكِ".. قالها ناجي ومضى في غضب كبير..

كان يقود سيارته في جنون وغضب عارم.. يتمنى أحيانًا لو تغيب إيمان عن دنياه دون عودة.. فيها من البرود واللامبالاة ما يقتل بداخله الكثير.. هي لا تدرك معنى أن يكون الإنسان فنانًا.. لا تعرف معنى أن يكون الإنسان مسكونا بمارد، بصور وكلمات تحاصره تحت جفنيه وملء أذنيه.. كم مرة أخبرها منذ قرأ كلمات البدر أنه رأى تلك الشابة تتحرك بداخل السطور. ذات الملامح.. ذات الجسد ونفس النظرة الباهتة التي تقرأ كتابًا مقلوبًا كأنها تحفظ السطور وفي لحظة تشتعل

عيناها لتصبح أكثر جرأة من أمها وتقبل ذبح طيور يثق ويعلم أنها ما ذبحت أحدها يومًا..

وقف يرقبها وهي تذبح أولها.. كانت تنظر إلى إحدى نساء السوق تقوم بالعملية.. ادعت أنها تذهب إليها لتقترض سكينها فلا سكين لديهما.. وقف يرقبها تحفظ كيف ذبحت المرأة وعادت لتمسك بأول حمامة وأطارت رأسها.. يعلم أيضًا أنها فعلت ذاك من أجل المئات وتفعل أكثر من أجل ما ينوي عرضه عليها لكن لا يستطيع أن يذهب إلى أمها وحده.. أراد زوجته معه.. يريد أن ينتهي من القصة في ساعات ويعود بالفتاة ليخضعها إلى اختبارات تمثيل وتصوير.. هناك وجوه رغم جمالها تغار منها الكاميرا فتخرجها مشوهة معتمة!

إيمان أجمل من بائعة الدجاج لكن أبدًا لا تنصفها الكاميرا.. نقية إيمان والكاميرا تكره وجوه الأنقياء!
الفتاة صغيرة في عمر ابنته لكن ليس كل الصبا نقاء!

حمقاء إيمان.. حمقاء.. هو مشروع العمر.. على الأقل مشروع العام الذي تحيا هي وأولادها على أرباحه وملايينه.. لماذا تصر أن تتدعي أنها تحب ابنتها وتخشى عليها أكثر منه؟!

قبل أن ينحرف خارج الطريق الدائري ليأخذ مخرج الفيوم نظر إلى مخرج منطقة المعادي وأمسك بهاتفه وقال بعد أن أجابه البدر:

كن على باب بيتك بعد عشر دقائق.. تذهب معي إلى الفيوم لتعلم أني لست مجنونًا وأنك حتمًا زرتها ورأيت بيبا وتعرفها!

***

لا جديد.. هي جمعة ككل جمعة تحت سماء الفيوم في هذه الساحة المخصصة للسوق..

وحدها زينب بداخلها جديد ما، أصبحت تدرك أنها لن تحصل على الثانوية العامة اللعينة.. أصبحت الدروس أكبر منها.. تعلم أن أمها لا تستطيع دفع أتعاب الدروس الخصوصية أو حتى المجاميع العامة بل هي ذاتها لا تريد الخوض في هذه القصة لكن البديل مرير.. البديل هو الحضور إلى السوق وبيع الطيور.. وربما ذبحها ونتف ريشاتها نظير قروش قليلة، ليت كل البيع كبيعة تلك الجمعة البعيدة.. ما زالت تخبئ النقود في سلة خوص صغيرة صنعتها بيدها بين طيات ملابسها الداخلية..

تبقى على امتحان نهاية العام شهران ويفتضح أمرها..

رفعت رأسها من خلف الكتاب الذي تحمله تنظر إلى أمها تبيع زوجًا من البط.. بصوت مبحوح قالت بعد أن مضت البطات في يد من اشتراها:

أمي.. لا أظنني...

قبل أن تكمل رأتهما معًا يقبلان نحو أقفاص أمها، ماتت على شفتيها الكلمات وهي ترى نارًا تشتعل في عيني أمها.. هو ذات الرجل غير أن معه هذه المرة شابا وسيما ينظر إليها وحدها في ذهول كبير..

نفضت حميدة جلبابها الأسود ووقفت تطلق حمما من عينيها في انتظار وقوفه أمامها وحين فعل قال الكبير بابتسامة صغيرة:

جئناكِ في أمر عظيم..

كان ناير ينظر إليها في ذهول، ناجي على حق.. هي بطلة قصته.. شعرها الغزير، عيناها العسليتان الواسعتان، شفتاها، غمازتا وجنتيها، وهذه الشامة السوداء على الجانب الأيسر من عنقها الطويل.. دون وعي مد يده كأنه يهم بأن يشق جلبابها المخطط عن صدرها.. يريد أن يتأكد من الحسنة المستديرة التي رسمها أعلى نهديها..

ابتعدت زينب إلى الخلف خطوة وهي ترى كفه ممدودًا نحوها حيث صرخت الأم صرخة كبرى جمدت يده وأفاقته ليرخي عينيه ويتمتم بكلمات لا أحد حتى يريد أن يفهمها..

تذكر ناجي إيمان من جديد، لو أنها كانت هنا لكان ما يحدث حتمًا شيئًا آخر.. اقترب من الأم وعاد يكرر

كلمات يشرح فيها سبب حضوره.. أخبرها أنه يرى في ابنتها موهبة كبيرة يريد أن يتبناها، سيصنع منها نجمة.. ستظهر على شاشات السينما والتليفزيون.. سيصبح معها نقود بلا عدد..

كان يتحدث ويتحدث عن الفن.. عن سمو رسالته.. وزينب عيناها مفتوحتان، تسمع وتسمع ولا ترى سوى وجه هذا الوسيم الذي كان هو الآخر يتفحصها قطعة قطعة..

أمها كانت تنظر إلى ما يدور في ذهول، وجه ابنتها غائب ووجه الآخر يغوص في أجزائها كأنها دجاجة يتفحص لحمها ويحصي ريشاتها..

ناير لم تكن في عينيه شهوة رجل، بل كان فيها شهقة رسام رأى ما قضى عمرًا يرسم خيوطه ويلون حناياه منتصبًا خارج لوحته ويقف أمامه روحًا ولحمًا ودمًا!

هو لا يراها امرأة شابة جميلة بل يراها معجزة رسم خطوطها فألقى فيها الله من أجله الروح.. هي من خلق الله لكنها من صنع البدر، أفاق على الكبير يقول كأنه يجرب آخر الحيل:

سأوقع مع ابنتك عقدًا أمنحها فيه مائتي ألف جنيه..

استدار يحملق في وجهه، ما يمنحه للفتاة مبلغ زهيد فيه ظلم لكن قبل أن ينبس حرفًا استدار إليها ليراها

تنظر إلى أمها كأنها تتوسل إليها، عدا أن الأم كانت تحملق في ذهول وشعر أنه يجب أن يتحدث فقال:

لا تخشي عليها شيئًا.. نؤجر لكِ ولها بيتًا في القاهرة، بإمكانك أن تكوني معها في كل خطوة..

سقطت حميدة في سكون على القفص الفارغ الذي تجلس عليه أمام دجاجاتها وقالت:

ماذا تلبسونها؟!

كان السؤال مفاجئا إلا أنها عادت ورفعت وجهها إلى الرجلين ونظرت إلى الكبير صائحة:

هل ترتدي أشياء كتلك التي كانت ترتديها زوجتك؟ هل تخرج في الليل ولا تعود إلا في الصباح؟ هل ينظر إلى جسدها رجال كما ينظر هذا الأخرق الذي أحضرته معك؟ ماذا تأخذون منها نظير مئات الألوف؟!

لم تمض الأمور كما كان ناجي يظن، كل الوجوه في السوق بدأت تسترق إليهم النظر والسمع، وفي بعض الأعين تهديد وتحذير..

بدأت رائحة الطيور تزكم أنفه وشرر عيني الأم يفقده الكثير من ثباته.. الأمور ليست أبدًا كما رسمها.. كأنما ألقى صمته في أوصال الأم قوة على قوة لتصرخ في جنون تستنفر رجال السوق ونساءه، تلطم على وجنتيها

وهي تردد أن رجلين مخنثين من المحروسة جاءا يشتريان وحيدتها..

في عروق البسطاء هناك دومًا كراهية للأثرياء والأعيان.. كراهية تكشر دومًا عن أنيابها عند أول نداء من أحدهم وإن كانوا يكرهونه حد الموت.. أمسك أحدهم بتلابيب ناير وحين حاول ناجي أن يخلصه من ذراعيه أمسكوا به هو الآخر.. صياح وسباب لم يسمع مثله حتى حين كان يسكن أزقة قصر العيني..

وحدها زينب كانت تلطم وتصرخ تخبرهم أن أمها تكذب، وحدها ركضت نحو ناير تباعد بينه وبين الحشود.. بالكاد خلص نفسه من أذرعتهم وأحقادهم وأخرج من جيبه "كرت" صغيرا دسه في كفها وقال:

ضعيه خلف شامة صدرك!

رأتها حميدة تساعده وتفصل بينه وبين نساء السوق ورجاله.. سمعتها تقسم لهم أن أمها تكذب لكنها لم تر تلك الورقة الصغيرة التي وضعتها في صدرها..

ابنتها تكذبها وتساعد المخنثين على الهرب..

صاحت كذئبة تنادي ابنتها.. صاحت صيحة جريحة ذبيحة جعلت كل من حولها يصمت، وحين استدارت الصغيرة نحوها ودون كلمة رفعت حميدة كفها وهوت به على وجه ابنتها في ضياع وحرقة..

ترنحت زينب ومالت لكنها اعتدلت وأمسكت بذراع أمها في قوة، وصاحت وسط جميع رفقاء السوق تخبرها أنها مجنونة، حمقاء إن ظنت أنها تحميها من الضياع.. الضياع كله هو أن تظنها تحصل على الثانوية العامة.. بل الضياع الأكبر أن تحصل على هذه الشهادة ابنة بائعة طيور.. ماذا تفعل بها؟ تدخل الجامعة؟!

كانت دموعها تتساقط على وجنتيها وهي تشير بذراعها الطليق إلى "أم باتعة" و"أم خالد" و"أم قرني".. مُتْن جميعًا ليعلِّمن أبناءهن وماذا كانت النهاية؟! جعلن من شهاداتهن قراطيس يضعن فيها الحشيش أو حبات البطاطا..

الأمل ليس في التعليم.. النجاة ليست في المدارس يا حميدة.. الأمل والنجاة والحياة ذاتها بل حتى الذكاء.. حتى القدرة على الفهم والتحصيل جميعها محرمات على الفقراء يا بائعة الطيور المسكينة!

كان كل من حولها يسمع ويرثي لها ولحاله لكن وحدها أمها كانت تبكي..

مؤلم جدًا أن يُخرج لك أحدهم من جعبته ما حاولت أنت إخفاءه في جعبتك أعوام عمرك!

حين أرخى الجميع رؤوسهم وابتعدوا طارت زينب على ساقيها خارج السوق علها تجد ذاك الرجل ينتظرها في

مكان ما..

لا تريد ما وعدوها به من مجد ومال وجمال.. تريد فقط أن تسأله.. تريد أن تعرف كيف عرف ذاك الوسيم أن على نهدها الأيسر ترقد شامة سوداء لم يرها أحد قط!

***

كانت الثالثة ظهرًا حين وصل الكبير إلى بوابة منزله..

فقط حين عبر البوابة بسيارته ورأى التحضيرات في الحديقة لحفل ابنته أدرك أنه عاد، لحظتها سأل لم عاد؟ لمَ لم يذهب إلى منزل الفيوم حتى يستعيد نفسه ويصلح على الأقل من ملابسه؟! لماذا يعود إليها وهي التي خذلته ورفضت الذهاب معه بل إنه لا يجدها في الحديقة مع خدم المنزل؟!

استدار ينظر إلى سيارته من بعيد.. أين ناير؟! لا يذكر أنه عاد معه! بعد خروجهما من السوق بملابسهما المبعثرة نسى أنه معه.. أدار محرك سيارته ومضى.. لم يتذكره على الطريق لحظة.. لا يعنيه أمر ناير! لا يعنيه إن بعثرت بائعة الدجاج هي ورفاقها كبرياءه أمام شاب يعمل لديه أو معه.. ما يثير جنونه هو لماذا لم يذهب ويرتمي أمام بحيرة الفيوم وبدل ثيابه واغتسل ثم عاد..

فتح ناجي باب غرفته ليجدها تقف بقميص نومها وشعرها مبتل.. غسلت شعرها وتستعد لغفوة قبل عشاء ابنتها إذن..

استدارت تنظر إليه في هلع وصاحت باسمه.. أغلق الباب ونظر إليها تتقدم نحوه في لهفة تسأله إن كان

بخير.. ألقى بجسده بين ذراعيها وبكى يخبرها أنه ليس بخير أبدًا..

ضمته إيمان في لهفة كبرى وخطت به نحو مقعد في غرفتهما، كالأطفال أجلسته، رآها تمسح بكف يدها على شعره المشعث وتضع قبلة على جبهته.. رغم الخجل والألم ابتسم ابتسامة صغيرة.. لهذا لم يذهب إلى منزل الفيوم.. الجدران وإن كانت بهية، البحيرة وإن كانت ساحرة لا أحد منهما له ذراعان!

في لحظات الخيبة والألم لا نبحث سوى عن ذراعين نلقي بينهما بأنفسنا ونغمض أعيننا ونترك لهما إصلاح ما كسرته فينا آمالنا وحسن نوايانا!

***

في سكون مدت يدها بورقة الاختبار الأخير إلى المراقب، سلمته إياها، مضت خارج المدرسة..

انتهت من امتحانات الثانوية العامة، قد تنجح وقد لا تفعل.. انتصرت أمها عليها.. عدة أشهر منذ ذاك اليوم العاصف يوم ظهور واختفاء ذاك الوسيم الذي وضع في يدها بطاقة فيها رقم هاتفه وعنوانه.. لم يمض يوم دون أن تقف على باب دكان أو محل وتعجز عن طلب رقمه.. لم تمض عليها ليلة وهي تستذكر في كتبها دون أن تُقسم لنفسها أنها في الغد تحادثه..

جبانة كبيرة هي!

منعتها أمها عن الذهاب معها إلى السوق يوم الجمعة، ربما كان هذا أجمل ما حدث.. أقسمت لها أنها ستشعل فيها النار وتسكب على ملابسها الوقود إن فعلت شيئًا سوى المدرسة والامتحانات..

تخشى حميدة! نعم تخشاها لكن ما تخشاه أكثر أن تحادث رجلًا عرفت اسمه من ورقة طلب منها أن تدسها في صدرها!

هل حقًا يريدانها للعمل في السينما! هل تصبح يومًا مثل من تراهم على شاشة السينما والتليفزيون؟! أقسمت أمها برحمة كل من ماتوا أنهما كاذبان.. هي أيضًا تشعر أنهما حقًا كذلك..

ألم تكن بعض النجمات خادمات وأميّات؟!

تنهدت حين وجدت نفسها تقف على باب أحد المحلات دون وعي منها.. مكالمة صغيرة لن تضير.. بإمكانها أن تغلق الخط وتنسى إلى الأبد، لكن حرام أن تبقى في ذل الرجاء كل صباح ومساء!

نكست رأسها ومضت! هل تراه يذكرها بعد ما يقارب ثلاثة أشهر! ربما انتظر أن تحادثه ليلة.. أسبوعا، لكن من ينتظر فيومية ابنة بائعة طيور سليطة اللسان واليد

ثلاثة أشهر! ذاك الرجل كان بارقا عارضا جاء ليكشف لها حقيقة جنون أمها وحقيقة ضعفها وجبنها..

بارق عارض ومضى!

مزقت زينب الكرت الذي منحها إياه ذاك الناير لكنها ما زالت تحتفظ بالسطور منقوشة على جدران ذاكرتها.. لن تنسى رجلًا رغم أنه لا يعرف حتى اسمها يعلم أن على نهدها شامة أصبحت تتحسسها كلما اغتسلت وتتمنى لو تلقاه مرة لتريه إياها وتسمع كيف ومتى عرف بمكانها! استدارت نحو كشك صغير في البارودية..

ستحادثه.. مضت نحو الكشك ونظر إليها مالكه وابتسم ابتسامة كل يوم.. أصبحوا جميعًا يعرفونها.. تقف أمام هواتفهم.. تنظر.. تتردد ثم تستدير وتمضي! ومضت.. هي خائفة!

ليست تخاف أبدًا أن تحادث ناير، كل ما يقتلها خوفًا أن تحادثه وتكتشف أنه نسيها!

وقفت أمام موقف الميكروباص، لا مناص! لا ملجأ ولا مكان آخر سوى حميدة.. ستعود لتنظيف البيت ومسح السطوح وتُطعم الدجاجات ثم تطهو وجبة الغداء التي قررتها لها أمها في الصباح.. كم هو مؤلم أن تعود إلى بيت لا تريد أن تحيا فيه وأن يكون هو بيتك وملاذك الوحيد!

كم هو مؤلم أن تُنفذ أوامر وتنصاع لتعليمات سيدة قاسية لم تسمعك يومًا ولم تمسح على رأسك مرة رغم أنها أمك ورغم هذا تخاف عليها وتتمنى لو أنها في العمر مرة تحنو عليك!

ربما لهذا أوصى الله بهن بشدة لأنه يعلم أن من فرط قسوتهن يهرب الأبناء من أمهاتها..

فلتهرب..

وضعت قدمها على درجة الميكروباص وابتسمت ابتسامة ساخرة مريرة.. إن كانت تخشى إجراء مكالمة صغيرة فهل تظن نفسها قادرة على حزم حقائب وأمتعة والفرار إلى رجل مجهول بحثًا عن مال وشهرة! جلست على مقعد خلف السائق ناظرة من نافذة الباص الصغيرة وغابت في خيالها.. ماذا لو فتح لها الباب ووجدها أمامه ثم أخذها إلى ذراعيه وطار بها إلى الكبير لتحتل صورها الشاشات والميديا!

فتحت عينيها ونظرت حولها.. كل هؤلاء ومن في الشارع بل الفيوم بأكملها يومًا ينحني سكانها لتقبيل يدها والتقاط صورة معها..

هل تراهم يفعلون لوجه الله؟ أمن أجل الفن؟! أم يمضغونها ويمضغون جسدها جميعهم ويلقون بها إلى أمها لتمزقها وتكون على حق إن فعلت.. لن تعرف إلا إن

خاضت التجربة ولن تخوض تجربة في عمرها قط، ذبحت أمها ومدرستها ومعلمتها وفيومها بداخلها كل شجاعة وكل رغبة في مغامرة أو مخاطرة..

بطرف عينيها ومن نافذة الميكروباص رأت أطفالًا يتشاجرون، منهم من يكيل اللكمات وآخر السباب ورأت أحدهم يلقي رفيقه أرضًا وينبطح فوق صدره.. هي لم تفعل شيئًا من هذا طوال عمرها.. إما سلال الخوص مع جدتها وإما الكتب وتنظيف الطيور مع أمها..

زينب لم تقو يومًا على النظر في عيني شاب ممن يمرون أمام المدرسة حين تقف زميلاتها للنظر إليهم أو الغمز لهم..

نهضت وصاحت في سائق العربة تطلب منه التوقف بجوار سوق البارودية.. كان صوتها عاليًا هادرًا كأنها تأمره وحين أذعن ووقف ابتسمت..

لن تصبح قويًا إلا إن أشعرت من حولك أنك قوي وإن كنت ضائعا مهترئا بداخلك!

حين دخلت سوق الثلاثاء، استدارت الوجوه التي تعرفها مندهشة من حضورها بعد ذاك اليوم..

إن صدقوا كذبك تصدقه أنت معهم!

حين رأت أمها تنظر إليها في قسوة وقوة تظاهرت بالتماسك وتقدمت نحوها في خطوات ثابتة وصاحت حميدة لكنها قاطعتها في حزم قائلة:

انتهت الامتحانات ومن اليوم سآتي إلى السوق وسأذبح الدجاجات، إن كنت لا تذبحين من رَبيْتِ أنا أفعل.. هل تعلمين شيئًا آخر؟!

نظرت أمها إليها وأكملت:

في المرة القادمة لن تضعي قفصك في أطراف السوق، سأحمله عنك وأضعه هناك.. معهن.. لسنا أقل منهن في شيء..

طوت زينب أكمام قميصها البسيط، تكره الطيور وحملها وذبحها لكن تريد أن تحادث ذاك الذي يعلم بأمر شامتها، تريد أن تذهب إليه لكنها تعلم أنها لن تفعل إلا إن أصبحت قوية، والقوة هي أن تفعل كل ما تعجز عنه وتكرهه..

من هنا تبدأ نحوه ونحو بيته الخطوة الأولى!

***

هل هو غاضب؟ نعم هو غاضب فلماذا إذن يتظاهر بالهدوء والرضا؟!

تتجاهله الصحافة.. ينسى الصحفيون ذكر اسمه.. ينسبون العمل إلى ناجي وحده.. يعلم أن الكبير بنقوده وعطاياه يشتري أقلامًا ويسخِّر برامج وإعلاميين مشاهير للحديث عن أعماله وخاصة عن عمل من إخراجه وليس فقط إنتاجه..

يعلم أيضًا أن الكبير يوجه له الدعوة ليصاحبه إلى كل برنامج يظهر فيه وإلى كل لقاء صحفي يُجرى معه، هو يعتذر وينسحب في سكون.. لا يريد أن يُفرض فرضًا، ربما بعد خروج الفيلم، ربما بعد نجاح القصة، ربما بعد أن تتغير ملامح شخصيته..

ابتسم في سخرية وهو يفتح سيارته ويتجه إليها بعد خروجه من مبنى دار النشر التي يسر له الكبير الوصول إليها..

هل تتغير ملامح شخصيته يومًا؟!

غدًا تصل النسخ الأولى من روايته.. وعده الناشر بإرسال نسخ له وإن كان في منتصف الليل حين رأى لهفته وتعجله!

الرواية له وحده.. إن كتب صحفي عنها لن يكتب عن الكبير أو عن "نسمة"..

أدار محرك السيارة ثم أطفأه من جديد وتنهد في ألم كبير.. لا هو كان يريد نسمة ولا ناجي لكن لم يكن

أمامهما اختيار آخر..

تلك الفيومية لم تحادثه.. شهور يسأله الكبير ويخبره أنها لم تفعل.. من يعلم؟! ربما لا تجيد التمثيل أو ربما كانت كسولة لا تحتمل جهد وعناء الوقوف أمام الكاميرات وحفظ السطور والتعامل مع كل هذا الكم الكبير الذي رآه ناير واختلط به وكرهه..

شيء صغير بداخله سعيد لأنها لم تحادثه ولم تظهر. شيء صغير سعيد من أجل طهارتها ومن أجل نقائها، يعلم ويثق أن دخولها هذه المهنة اغتصاب وحشي لعذرية فيوميتها.. أدار المحرك ومضى..

من منا لم تغتصب الحياة عذرية روحه ونقاءه!

لا أحد!

انتهى دوره، في نهاية الأسبوع توقع "نسمة" العقد ليدخلوا مرحلة التصوير.. قد يزورهم، قد يذهب إلى مواقع التصوير لكن ليس كثيرًا.. يكفيه صدور روايته خلال أيام..

يصل إلى البيت ويغتسل ويعانق جيتاره.. يريد أن يعزف ويسمع الموسيقى ويقرأ حتى الفجر.. بالموسيقى وربما بالكتابة يطرد صورة الفيومية من رأسه التي رسمها على سطوره قبل حتى أن يراها..

المعادي!

حين يدخلها، حين يقف بسيارته أمام بيتهم يهدأ كثيرًا.. فتح باب السيارة الخلفي وأخرج كيسًا به حبات "أناناس سكري" اشتراها.. يحبه ويحب تقطيعه في دوائر كزهرة "دوار الشمس" وتناوله في شرفة حديقته السفلية..

شعر بيد تختطف منه الكيس واستدار ليجد "عبده" حارس بيتهم يضحك قائلًا:

أحمله عنك.. أنتظر السيدة وداد.. لها عندي خبر جميل..

نظر ناير إليه كأنه يسأل وأكمل الرجل:

جاهدتْ معه ومعي.. لم تبخل علينا بشيء ويجب أن تعلم..

وقف ناير ينظر إليه.. ماذا يريد من أمه أن تعلم!

أكمل الرجل وهو يركض بكيس أناناسته:

ظهرت نتيجة الثانوية العامة منذ دقائق، ولدي نجح بمجموع كبير!

***

حين يرفعون عن كاهلك جزءا من أحمالك تكتشف كم كانت ثقيلة وتعلم حقيقة ضعفك وقدر إمكانياتك!

منذ أصبحت تذهب معها إلى السوق، منذ بدأت تحمل قفص الطيور وتذبح وتبيع وتصيح ككل بائعات السوق وحميدة تئن ركبتاها أكثر وتصرخ عضلات ظهرها..

تظهر نتيجة الثانوية العامة في أيام.. ماذا ستفعل عند دخولها إلى الجامعة! هل حقًا ستقوى على فعل ما كانت تفعله؟! لا تعلم لكنها تعلم أن ابنتها يجب أن تذهب إلى الجامعة وأنها يجب أن تعود إلى السوق وحدها..

لو أنهما فقط تتبادلان الحوار، لو أن إحداهما تفتح صدرها للأخرى.. تحاول كثيرا لكن في كل مرة تبدأ حوارًا يتحول الأمر إلى كلمات قاسية جارحة منها أو ابنتها حتى أصبحتا معًا تتحاشيان الحديث.. ثقيل هو كيس العلف الذي تحمله كثقل حيرتها في ابنتها..

كانت تكره السوق وأصبحت تقف فيه كأنها ولدت على أرضه.. بالأمس وهي تسكب لها الطعام في صحنها سألتها إن كانت ما زالت تذكر أمر الرجلين وهل لذاك الصباح علاقة بذهابها إلى السوق.. لم تجبها سوى بنظرة طويلة في لوم وألم.. حاولت أن تشرح لها، حاولت أن تحدثها بخبرتها وأمومتها وما تعرفه عن الأرض وسكانها لكن قتلت نظرتها تلك فيها كل الكلمات..

غريبة هي عن أقرب الناس لها.. بل غريبة عن الوحيدة التي بقيت لها وتبقى هي من أجلها على قيد الحياة!

وضعت كيس العلف وجلست على حافة الرصيف تلتقط أنفاسها ورأته يتقدم نحوها وخلفه كلبه.. تعلم أن عطية يحبها وإن كانت لا تعلم ماذا يمكن أن يحب فيها.. حتى كلبه الذي يخيف الجميع دومًا يرفع ذيله ويرخي رأسه إن وقف معه أمامها..

انثنى "عطية" يحمل كيس العلف، أخبرته أنها ستنهض بعد دقائق وتحمله إلا أنه أقسم أنه سيوصله إلى بيتها..

تبعته في هدوء وسمعته يقول:

لا تحزني.. زينب صغيرة وبإمكانها أن تنجح وتحصل على مجموع في العام القادم..

لم تفهم ما قال لكن خانتها ساقاها عن الحركة، وقفت لحظات ليستدير إليها حين اكتشف أنها ليست خلفه..

من جحوظ عينيها، من ارتعاشة وجنتيها علم أنها لم تكن تعلم.. صاح يناديها حين وجدها تسير لتذهب عكس طريق البيت، لحق بها لكنها وقفت تنظر إليه في قسوة تطلب منه ألا يتبعها.. طلبت منه أن يحتفظ بكيس العلف في "العشة" التي يسكنها.. أسرعت بخطواتها بل شعرت بنفسها تركض كأن ساقيها ما كانتا ترتعشان منذ دقائق.. كل ما في صدرها يهتز وينتقض..

مجنون عطية لكن يجب أن تتأكد من جنونه، أخبرتها ابنتها أن النتيجة ما زال أمامها أيام فماذا يقول معتوه يسكن عشة من ورق!

ركضت في جنون حتى وصلت بيتها، وقفت تدق الباب بكلتا كفيها.. صاحت تناديها من أسفل المنزل وبعد لحظات خرجت أبلة "مها" إليها تضع شالًا على رأسها، فتحت وأشارت لها بيدها أن تدخل لكن حميدة صاحت تسألها إن كان ما قاله المعتوه صوابًا.. نظرت مها إليها نظرة قاسية وقالت:

ظننت زينب أخبرتك.. خمس مواد ويجب أن تعيد العام الدراسي بأكمله..

سكت كل شيء في عيني حميدة كأن كل ما فيها مات وانطلقت "الأبلة" تلومها قائلة:

ما كان يجب أن تأخذيها إلى السوق وتدعيها تقوم بأعمال البيع والشراء.. ما كانت تفعل من قبل وبالكاد تنجح.. أخطأتِ.. أخطأتِ خطأ كبيرا!

في بلاهة ابتسمت حميدة ومضت من حيث أتت، لا يعنيها ما تقول ولا يجدي إن كان ما تقوله خطأ أو صوابا..

على العكس بدت في عينيها سعيدة لما حدث! عام آخر في المدرسة يعني عاما كاملا من تمويل الطيور

المجانية لكن عمر حميدة ليس بالمجان، انتظارها وصبرها وألمها ليس أبدًا بالمجان..

وحدها زينب عليها دفع الثمن وإن كان الثمن إزهاق روحها بين أصابع أمها!

***

حملت عن أمها كيس العلف وصعدت به إلى سطوح المنزل كالعادة.. تهرب من الجلوس معها كلما أمكن لها ذلك لكن إلى متى؟! يجب أن تخبرها بما حدث.. الأفضل أن تعرف منها.. باعت واشترت وذبحت وتعاملت مع طيور صارعت الموت بين يديها.. تشاجرت مع رفيقات السوق وزبائنه وما زالت ضلوعها ترتعش كلما تخيلت اللحظات التي تعرف فيها أمها أنها لم تنجح!

هي حتى لم تحزن على نفسها حين عرفت، كل ما فكرت فيه غضب وحزن حميدة! هل هي خائفة عليها من النبأ أم خائفة على نفسها من وقع النبأ؟!

تضربها! ما المشكلة.. الضرب لن يقتلها.. تحبسها في المنزل؟ أيضًا ما الجديد.. مم هي خائفة إذن؟! صراخ ولعنات، لوم على جدتها الميتة وأبيها الذي لا تذكره، حسرة على أعوام، وندم على عمر.. مواويل لا تريد أن تسمعها لكن التأجيل يزيد من حدتها..

استدارت إلى باب السطوح المؤدي إلى الدور السفلي وهي تتنهد، ستخبرها.. بعد أن ينضج الطعام وتتناولان وجبتهما وقبل النوم تخبرها..

في هدوء نزلت إلى البيت ورأتها تقلب في سكون وعاء الطعام الذي أعدته..

لماذا تتحركان وحولهما الدجاجات؟!

اقتربت من أمها تخبرها أنها ستكمل إعداد الطعام وأخبرتها الأخيرة أنها ستدخل للاستحمام، قبل أن تغيب عن عينيها قالت:

تعلمين أني صائمة لكن هل تعلمين لماذا أصوم؟!

بعد صمتها أكملت تقول:

أصوم لأشكر الله أنك ستدخلين الجامعة بعد أيام، أصوم لأنك لم تخذليني ولا خذلتِ أبلة "مها" أيضًا..

لم تدع لها مجالًا لكلمة، غابت تحمل "صفيحة" الماء الساخن وبقيت هي تغسل حبات الأرز وتخرط أوراق الملوخية.. حين انتهت من إعداد كل شيء كانت أمها تصلي وتقرأ القرآن الذي كثيرًا ما تساءلت كيف تحفظه وهي لا تقرأ أو تكتب!

لماذا تشعر زينب أن هناك شيئا ما مختلفا؟!

نفضت رأسها.. هي ظنون الخائف لا أكثر.. سكبت صحن الملوخية وحملت إناء الرز الصغير صوب أمها وجلست تنظر إليها في انتظار المغرب..

في سكون نظرت حميدة إليها وما زالت تحرك شفتيها بالآيات القليلة التي تحفظها.. ابنتها لا تعلم أنها رسبت.. يجب أن تشفق عليها، ربما كانت بحاجة إلى دروس وخجلت أن تطلب أجرها لعلمها بضيق يد أمها.. لهذا عملت معها في السوق.. ليزيد دخلهما أو لتعوض شعورها بالذنب.. دمعة رقصت في زاوية من زوايا عينيها، كانت تحلم بأن تنجح وتدخل الجامعة..

موت الحلم صعب!

عام آخر لن يضير! ستذبح معها الدجاجات والتقطت عينيها "دلال" تقف بالقرب منها، نظرت إليها كأنها تعدها إن جاء موعد ذبحها لن تفعلها معها بيدها..

انتفض جسدها تسمع صوت الأذان ومدت ابنتها يدها إليها بكوب ماء.. نظرت إليها من جديد، لا فائدة من البكاء والصراخ..

شربت رشفة من الكوب وأعادته إلى الأرض من جديد، رأت ابنتها تخلط ملعقتي ملوخية بالأرز وتضع في فمها بعضًا منه وأمسكت بصحن ملوخيتها وقالت في هدوء:

لم تنجحي في الامتحان!

قالتها كأنها تئن وبعفوية وذعر أجابتها:

علمتِ الخبر؟!

كل شيء في رأسها اختلط، كل الهدوء الذي استحضرته أصبح شعورًا بالمهانة والجنون.. كانت تعلم ووحدها عطية المعتوه يخبرها..

أكملت زينب في خوف أكبر وهي ترى تغيرات وجه أمها:

كنت أنوي أن أخبرك، فقط كنت...

دون وعي رفعت حميدة صحن الملوخية الساخن وألقت بكل ما فيه في وجه ابنتها وهي تصيح كأن أحدهم وضعها في إناء سلخ الطيور..

كانت تعلم أنها لن تنجح، بل ربما كانت تنوي الرسوب، لهذا إذن ذهبت إلى السوق الذي بقيت أعوامًا تترفع عنه، أخبرتها أنها تعلم بأمر القروش التي كانوا يمنحونها لها نظير الذبح والتنظيف والتى كانت تخبئ عنها جزءا منها وتلقيه في سلة جدتها اللعينة..

هي دنيئة مثلها، كاذبة مراوغة..

صاحت تخبرها وهي تدق على بطنها في عنف أنها حوت ثعبانًا يومًا بداخل هذا البطن.. ثعبان أسود دنيء كأبيها وجدتها.. كل أعوام عمرها التي قضتها أسيرة في

هذا البيت أصبحت ترى ابنتها المسئولة عنها.. كل دجاجة ربتها واضطرت لبيعها من أجلها هي عندها لا تستحقها بل تمنت لو احتفظت بها حولها لأنها أطهر من هذا الثعبان الذي تراه أمامها.. في نهاية صياحها أخبرتها أنها لا تريدها.. ما عادت تحتمل النظر إلى وجهها..

كان وجه زينب يحمل قطرات خضراء ساخنة ما زالت تلهب وجنتيها، لم تستطع أبدًا أن تبادلها الصياح ككل مرة، إلا أنها في هذه المرة صاحت تخبرها أن بيت الثعبان هذا ليس بيت أبيها.. البيت ملكها.. بيت جدتها.. بيت الثعابين الكبرى فلم تبقين فيه؟! تريدها أن تغادره الآن!

ابنتها تطردها؟! تطردها وما زالت وحدها تنفق وتشتري وتبيع وتحمل أكياس العلف وتجمع الكتاكيت.. نهضت في سكون وبجلباب بيتها اتجهت نحو الباب، أشاحت زينب بوجهها في ذعر.. لا تريدها أن تخرج، تعلم ألا مكان لها أو مأوى سوى هنا لكن كل ما فيها يعجز عن كلمة تستبقيها..

خرجت حميدة وصفقت خلفها الباب دون حتى أن تستدير، ربما كان من الأفضل أن تخرج وهي على قدميها قبل أن يأتي يوم ترمي بها ابنتها خارج البيت وهي مقعدة أو ضريرة!

من خلف الباب المغلق نظرت إلى حواري البارودية المظلمة وهي لا تعلم كيف أو ماذا يكون المصير!

***

لا ملجأ لها سوى هنا.. ساعات وتعود لكن كيف يكون اللقاء بل كيف تكون الحياة بأكملها بعد عودتها وبعد كل ما سمعته إحداهما من الأخرى.. تكاد تسمع ما ستقوله لها وتكاد تمسك نفسها عن ترديد ما تقوله هي لها.. الحياة ستصبح جحيمًا بينهما.. ستجبرها على إعادة الامتحان أعوامًا كما فعلت من قبل، ستذلها أبلة "مها" عاما آخر وبشكل آخر.. ستردد ليل مساء أنها جاحدة وأنها ثعبان كبير كجدتها صاحبة هذه الدار التي تؤويها وإياها.. سيكون عامًا أسود من كل أعوام عمريهما..

جاوزت الليلة منتصفها.. "مسعود" لا يكف عن الصياح رغم أن الفجر ما زال بعيدًا.. "لطيفة" لا تنام وترفس بقدميها فراخها الصغار.. "دلال" تتحرك في جنون كأنهم يخططون لاغتيالها! يريدون أمها وربما كانوا يريدون موتها..

في عصبية كبيرة نهضت من فرشتها وحملتهم من أجنحتهم وصعدت بهم إلى السطوح.. فليناموا ليلة أو ساعات بعيدًا عنها لكن يزيد هذا حتمًا من جنون حميدة عند حضورها..

في طريق عودتها على السلالم سمعت طرقات كثيرة وعنيفة، عادت أمها.. استدارت لتصعد وتعيد الدجاجات

التي تحبهم لكنها سمعت صوتًا غير صوت أمها من خلف الباب ينادي..

حين فتحت وجدته هو وكلبه أمامها.. كان يبكي ودموعه تملأ وجهه.. دفع الباب في قوة، دخل وخلفه كلبه ونظر إليها صائحًا:

ماذا فعلتِ بأمك يا زينب؟!

نظرت إليه في ذهول وفي لحظة شعرت أنه يحمل لها نبأ لا تريد أن تعرفه.. أيًا كان الكره وأيًا كانت القسوة، في دموع المعتوه شيئًا لا تريد أن تعرف ما خلفه..

عاد عطية ينظر إليها ويقول باكيًا:

حميدة.. حميدة!

***

كل شيء في وجهه يرقص ويغني..

وضع الخمس نسخ من روايته أمام عينيه وحوله وعاد يعزف لحن "مون آمور" على جيتاره..

الفيلم بإنتاج الكبير وملايينه المرصودة لم يحرك في عروقه ما حركه هذا الكتاب الذي يضم سطوره وكلماته.. الآن فقط يعلم ناير شعور أمه حين ولدته وحملوه إليها.. كانت تحكي أعوام عمرها عن بهاء تلك

اللحظة وجلالها وكان يظنها تبالغ، أدرك وفهم وشعر فقط حين جاء رسول الدار بهذه النسخ الخمس..

هذا الكتاب يختلف عمن سبقوه.. هو كتاب العمر.. أخبروه أنها أيام ويكون في جميع المكتبات الكبرى.. حانت لحظة الميلاد أو لحظة الموت..

كانت عيناه مغمضتين، ومرسوم على جفنيه غلاف كتابه وسطوره من كلمة "الإهداء" وحتى كلمة "تمت"..

فتح عينيه في ذهول حين سمع طرقات تصاحب صوت جرس بيته..

من يأتيه فجرًا؟! حمل جيتاره في يده وذهب إلى الباب يسأل عن الآتي!

صوت "عبده" من خلف الباب جعله يفتح ليجده يقف وآثار النوم على عينيه، قبل أن يسأله ما القصة رآها تتقدم من خلف ظهره، لم يتذكرها رغم أنه لم ينسها لكن كان بحاجة إلى لحظات ليترجم عقله ما تراه عيناه.. في استجداء وضعف سقطت دموعها وقالت:

ألا تذكرني؟

نظر إليها في ذهول! انتظر منها مكالمة شهورًا فكيف يراها أمامه ومتى؟ في هذه الليلة ومع اقتراب الفجر؟!

أشار إلى عبده ليمضي مفسحًا لها الطريق، كانت تحمل حقيبة صغيرة كتلك التي يحملها تلاميذ المدارس على ظهورهم.. وضعتها أرضًا ونظرت إليه وقالت في استجداء أكبر:

لا تقل أني تأخرت.. أنا...

تعثرت الحروف في فمها لكنها بعد سقوط دمعات من عينيها أكملت:

لم يعد عندي أحد سواكما.. أمي ماتت وتركتني وحدي!

***

ضمها ناجي إلى صدره في حنان كبير أمام وداد ووحيدها، لم يستطع أبدًا أن يخفي سعادته بظهورها رغم صدق حزنه على تيتمها.. أخبرها أنهم لا يملكون من الوقت الكثير، لديها شهران لتصبح نجمة..

نظرت إليه وهي لا تفهم، وضع كفه على يدها الصغيرة يخبرها أن الأمر شاق جدًا، عرض عليها أن تعيش في بيته إلا أنها رفعت عينيها إلى ناير وأمه كأنها تستنجد بهما أو تستجديهما البقاء معهما..

أخبرته وداد أن كل شيء لديها أيسر.. ناير سينتقل تمامًا إلى الدور الأسفل والفتاة تبقى معها.. أخبرته في صدق أنها أحبتها وأنها بحاجة إلى أم.. كان يريد أن

يأخذها إلى إيمان للسبب ذاته لكن وداد أكثر تفرغًا وأكثر بساطة من زوجته.. هي بمأمن هنا ويستطيع الوصول إليها وقت يشاء؟!

نظر إلى ناير قبل مغادرته يخبره أنه سيوقع معها العقد بعد بعض الاختبارات والصور.. لم يعترض أحد سوى أن ناير طلب أسبوعا واحدا قبل ذلك.. يريدها أن تنجح في الاختبارات ونجاحها هذا يحتاج إعدادًا وملابس، ويتكفل بهذا وبعدها يكون القرار من حق الكبير وحده..

صافح ناجي السيدة وشكرها وحين حاول إخراج مبلغ من جيبه يضعه في يد ناير من أجلها رفض الأخير وضحك الكبير قائلًا:

حين تصبح قديمًا في عالم الفن والإنتاج تتعلم ألا ترفض مليمًا لأنه لا يخرج مرتين وإن كنت صاحب حق..

فتح ناير له باب سيارته وابتسم قائلًا:

لا أظنني أصبح فيه قديمًا.. سأبدأ رواية جديدة، الكلمة عالمي ودنياي..

لوح الكبير له وهو يشق طريقه إلى مكتبه بابتسامة ساخرة..

الكلمة إن لم تُبع في سوق الفن زبائنها جميعهم شرفاء لكن فقراء!

سيعتاد البدر هذا العالم ويمسك بأطرافه بكل جوارحه وأعضائه.. أرضنا ما عادت أرض كلمة وأدب أيها المسكين!

حتى هذه الصغيرة التي ترتعد وترتجف وتذوب انتظارًا لتعليمات ناير وتوجيهاته يراها إن نجحت تصبح وحش حماقة ومارد جمود وغرور!

***

الحفل رائع لكنها تنتظر أن ينتهي الاحتفال ويذهب كل إلى طريقه لتبدأ احتفالها الحقيقي..

الحفل الكبير هو أن تنفرد به، الحفل الكبير أن تغفو شفتاها تحت شفتيه ليلتهمها في قوة حاجتها له واشتهائه لها.. لماذا تقيم الأمهات احتفالًا بأبنائهن في أعياد مولدهم، نجاحهم في المدرسة وعند تخرجهم في الجامعة؟! هل يظنن أنهن حقًا يسعدنهم؟

أبدًا، جودي لا تظن ذلك.. تكاد تجزم أنها احتفالات مباهاة تعلن فيها أم المُحتفل به عن نجاحها وقدراتها.. هي التي أنجبت وأطعمت وأنفقت ليصبح أكبر في كل عيد ميلاد، هي التي تابعت ووجهت ونجحت ليصبح رجلًا ومهندسًا كما أصبح عامر..

رأت أمه تحتضنه في حب وتبارك له، تعلم أنها كما تحبه تحبها لكن لم ليس مسموحا لها كما تحتضنه أمه أن تفعل هي؟!

لماذا نفعل كل ما نريده حقًا في الخفاء حتى الحزن والبكاء؟! وإن كنا فما قيمة كل هؤلاء الذين نجمعهم حولنا وننفق عليهم وقتًا وعمرًا وهدايا!

ابتعد عامر عن والدته، اختطفته أذرع أخرى وتقدمت نحوه تحاول أن تبتسم وتشارك..

كل القضية أنها ما عادت تقبل في عامر أي مشاركة.. لكنها استعادت نفسها وخطت نحوه من جديد وأمسكت بذراعه لتأخذه من يد صديق له..

أضافت فرحته على وسامته وسامة، إلا أنها حين أمسكت بكفه بين يديها أصبح وسيما أكثر..

همست في أذنيه أنها تريد أن ينهي كل هذا حيث وعدها باصطحابها إلى منزلهم في "العين السخنة" ليحتفلا معًا حتى الصباح..

بالكاد وافقت إيمان على أن تتركها تبيت لدى إحدى صديقاتها بعد قصص ومخططات..

ضغط على كفها في حب وأغمضت عينيها حتى كادت ترى وهي مغمضة العينين كل من في الاحتفال ينظرون

إليها ويعلمون بلهفتها وعشقها.. أفاقت على يده تنسحب بعيدًا ورأت أمه على البعد تنادي الجميع ليقطعوا الكعكة الكبيرة التي جاء بعض السقاة يحملونها..

حين ذهبت معهم لتقف جوارهم ومن خلف ظهورهم مد ذراعه إلى ظهرها وابتسمت في حنان، رأته بعد أن قطع الكعكة يهمس في أذني أمه بكلمات لترفع بعدها عينيها وتنظر طويلًا إلى جودي في حب كبير، منحتها ابتسامة واسعة وعناقا كبيرا لم تفهم مغزاهما حتى رأتها تمسك بهاتفها وتبتعد به لتغيب في حديث طويل كان من الواضح أنها وحدها محوره وفحواه..

***

العناق هو أجمل ما في الحب..

القبلة تعبير عن الحب، الجنس تعبير آخر لكن كليهما محموم.. تعابير تنقاد فيها خلف سلطان شهوتك وحدة انفعال أعضائك..

العناق شيء آخر! من يرَ القبلة أو يشهد الجنس بإمكانه أن يتوقع ما يشعر به كل طرف..

إلا العناق!

لا أحد يعلم ما يدور سوى من منحه الآخر ذراعيه وهدأ بينهما..

العناق أبهى وأجمل صور الحب.. تغتسل من أوجاعك.. تتكسر وتعترف بضعفك.. يخفت عن رضا صوت عنادك وكبريائك حين تغفو بين ذراعي من تحب..

عناقها جميل بعد أن يهدأ شوقها إليه..

ضمها عامر أكثر إلى صدره وابتسمت في حنان تغفو على صدره العاري، في سكون مدت يدها إلى حقيبتها الصغيرة المستلقية إلى جوارهما، أخرجت علبة صغيرة أنيقة منحتها إياه وعيناها مغلقتان.. فتحها عامر ليجد سلسلة رقيقة من الذهب الأبيض يتدلى منها حروف متداخلة في خط كوفي رائع.. صعب أن يُقرأ..

سألها ماذا تقول، في تثاقل فتحت عينيها ورفع أمام عينيها الحروف المفرغة وبأصبع سبابتها مرت على الحروف تقرؤها..

"أنا أحبك جدًا"..

ضحك عامر طويلًا! كيف لم يستطع قراءتها وكيف حقًا تداخلت كل هذه الحروف في هذا الجمال.. اعتدلت من على صدره وألبسته هديتها وبذات سبابتها التي قرأت بها الكلمات حذرته أن يخلعها أو أن تلمسها امرأة سواها..

عاد يضمها وعادت أنفاسها تشتعل على صدره، بشفتيها قبلت هديتها على صدره وارتفعت بهما إلى شفتيه من جديد علّها تكتفي أو تشبع لكنه لم يقبلها بل أمسك بوجهها بين كفيه قائلًا:

هل تذكرين حين نظرت أمي إليكِ؟!

رغم أنها لا تريد أن تذكرهم أو تتذكرهم فإنها تذكرت تلك النظرات وفتحت عينيها ليقول في فرح:

أخبرت أمي أن تحادث أمك لتطلب لقاء نطلب فيه يدك وفعلت!

***

ضمها من جديد في قوة أكبر وابتسمت كل قطعة في جسدها المنهك لتضغط بذراعها على ظهره.. أصبح أطول منها وباتت إن عانقها تشعر كأنها طفلة على صدر طفلها..

من خلف ظهره رأتها تنظر إليهما في حسرة وابتعدت وداد عن ولدها.. زينب تتألم حين تراه يعانقها أو يمازحها، يجب أن يراعيا فقدها لأمها.. ابتعدت عنه في هدوء وفهمت الأخيرة سر ابتعادها فأرخت عينيها ونهضت لتسكب ما أعدته الأم من طعام في الصحون..

لا تحسدها على عناق ولدها فكلاهما حقًا يستحق صدر الآخر، كل ما في الأمر أنها كلما رأتهما يتحادثان أو يتمازحان أو حتى يتعاتبان تسأل في ألم لِمَ لم تعانقها أمها يومًا! لِمَ لم تتبادلان نكتة أو مزاحًا أو حتى حديثًا دون أن ينتهي بمشاجرة وتعنيف وتأنيب..

أليست كل الأمهات سواء!

هزت رأسها تستدير بالصحن خارج مطبخ البيت لتراه يقف على طاولة الطعام في بيت أمه وينظر إليها يتفحص الثوب الذي اشترته معه..

لو يعلم كم تتمنى لو يعانقها مرة واحدة لكنه يخرج معها ويتحدث إليها كما كانت أبلة "مها" تفعل.. ربما

بهدوء أكثر.. ربما باحترام لم تعهده لكن في صوته تلك الرنة التي كانت تكسو صوتها..

جاءت وداد بآخر صحن وجلسوا معًا يتناولون طعام العشاء حيث نظر ناير إليها قائلًا:

ما زال لدينا خمسة أيام قبل لقاء الكبير ولدينا الكثير لنفعله..

هزت رأسها بالموافقة، معه تفعل كل شيء وتتمنى لو يفعل بها كل شيء..

ترى كيف تبدو حبيبته؟! رآها تبتسم وسألها لِمَ تبتسم، رفعت عينيها تنظر إليه ولم تجب..

هل تخبره أنها ترسم صورة لأخرى تعانقه وتُقبّله ووحدها تتمنى لو تبيع ما تملكه نظير أن تفعل..

دومًا تنسى أنها لا تملك شيئًا سوى ثوبين أحضرتهما، ثوبان رفض ورفضت أمه حتى أن ترتدي أيًا منهما ولو ليوم واحد!

هو وأمه وعناقهما!

حين انتهوا من تناول عشائهما وقبل أن تقف لترفع الصحون مد يده إليها بروايته قائلًا:

أنتظرك في العاشرة، تنهين قراءة خمسين صفحة وتكتبين لي خمس ورقات برأيك في كل شخصية مررت عليها..

التقطت الكتاب منه ووضعته على الطاولة دون حتى أن تنظر إليه، انحنت ترفع الصحون إلا أن وداد التي شعرت وحدها بغضب ناير واندهاشه أمسكت بيدها تمنعها عن حملهم، وحين التقت عيونها وبطرف عينيها أجبرتها أن تنظر إلى ساعة الحائط التي تشير إلى الثامنة..

في سكون فهمت زينب ما تعنيه الأم، حملت الكتاب الذي أعطاها ومضت إلى الداخل حيث الغرفة التي منحاها لتقيم فيها!

خمسون صفحة وخمس صفحات تكتبها في ساعتين! هل يظنها هذا الشهي الأحمق حاسبا آليا! لا تحب القراءة فإذا به يريدها أن تقرأ وتكتب وهل تقرأ الممثلات؟!

الممثلة تحفظ الكلمات، ناير لم يطلب أن تحفظ.. يطلب منها أن تقرأ وتكتب، هل تراهم استبعدوا فكرة عملها كنجمة فقرروا منحها عمل سكرتيرة تقرأ وتلخص ما قرأت أو... سكتت لحظات وأفكارًا أخرى ترقص في رأسها.. هل كانت أمها على حق ويتبعون معها خطة حتى يصلوا إلى بيع جسدها؟!

ضحكت ضحكة ساخرة صغيرة..

إلا هذه!

منذ قرروا أن تنام في بيت الأم ومنذ رأت ناير لا يدخل إلا بعد استئذان، منذ رأت الكبير يوصيهم بها علمت أن حميدة كعادتها مجنونة في أفكارها، مريضة في توقعاتها.. وداد التي تكاد تبلغ السبعين أكثر منها نعومة وأنوثة، هل تراه دور "فيومية" بلهاء الذي يريدونها فيه؟!

فتحت أولى صفحات الكتاب وبدأت تقرأ الواجب الذي منحها إياه الرجل الذي تراه الأوحد والأجمل والأبهى..

هل تراه هكذا لحداثة سنها وقلة حيلتها؟! وإن خرجت هل تجد رجالًا أكثر منه بهاء ووسامة أم هو هذا الذي بقيت أعواما تدندن باسمه في كل الأغاني التي تسمعها في الطرقات وفي السوق وفي أجهزة البنات ممن قدر لهن أن يشترين محمولًا أو يكون لديهن في منازلهن تليفزيون أو راديو بدلًا من الدجاجات والقش وحبوب العلف!

أتراها نادمة على الحضور؟! لكن هل كان لها مصير آخر بعد ما حدث؟!

هي أقدار منقوشة ونحن مع كل يوم نصحو فيه نكشف النقاب عن جزء من هذا النقش الذي لا يد لنا فيه وإن

توهمنا عكس ذلك!

***

رفعت رأسها عن وسادتها وأخرجت هاتفها الصغير من تحتها، نظرت إلى شاشته بعينيها الحمراوين والمغسولتين بالدمع في ألم كبير.. عامر لم يحادثها ولا تظنه سيفعل..

ما فعلته لم يكن قليلًا! هي حتى لا تستطيع أن تتذكر كل التفاصيل.. كانت بين ذراعيه حين أخبرها أنه سيطلبها إلى الزواج، اتسعت عيناها وجحظتا وانتفضت بعيدًا عنه وصرخت تسأله لمَ أخبر أمه وأمها وكيف؟!

الزواج مفاجأة؟! ولمن؟ للطرف الآخر فيه!

لماذا تظنه أفضل من غيره؟ لأنه ذهب إلى مدارس دولية؟ لأنه خريج الجامعة الأمريكية؟!

هو كسواه، يظن لأنها امرأة يجب أن تطير فرحًا إن أخبرها أنه سيتزوجها! يظن رغبته في الزواج منها أكبر منحة يقدمها لها ثم من أخبره أنها حقًا تريد الزواج منه؟!

سكت فيها كل شيء حين قفز هذا السؤال إلى رأسها لكنها أشاحت بوجهها في تصميم وأعادت تكرار السؤال على نفسها.. أليس من حقها أن يكون لها نزوة!

شاب أعجبها وتبادلت معه الأحضان والقُبل وانتهى الأمر.. لِمَ ليس من حقها أن تفعل؟!

رفعت غطاء سريرها ونهضت في عناد لترتدي ملابسها، لن تهرب من مواجهته..

عامر كان نزوة وانتهت..

حين وقفت أمام المرآة وحين وقفت عيناها على شفتيها تذكرته.. تذكرت قبلاته ورائحة عناقه..

هو لم ينته بعد بداخلها.. كل قضيتها أنها ترفض أن تُعامل معاملة كل الفتيات..

قرار الزواج أو أي قرار بين طرفين يجب أن يطرح بينهما أولًا..
لا يجب أبدًا أن يفترض أحدهما أن ما يريده يسعد الآخر..

عادت تنظر إلى مرآتها في سكون.. ماذا لو أن عامر يومًا أخبرها أنه لا يريد الزواج بها؟! حتمًا كانت تنهار وتتمنى لو تقتله.. ستشعر بها إهانة..

ماذا تريد؟! وماذا يرضيها؟! كل ما حولها خطأ.. كل الصواب الذي تشعر به بداخلها يفور كحمم بركان..

هي أنثى مستقلة، لا تتبع أحدا!

استدارت لترى إيمان تدخل بعد طرقات صغيرة لتقف أمامها وتسألها هل تذهب إلى الجامعة؟!

تحب أمها لكن لا تريد أبدًا أن تصبح يومًا مثلها!

رمت نفسها على مقعد ونظرت إلى إيمان في إشفاق تهز رأسها بالإيجاب، تنهدت الأخرى وقالت في حذر:

مبروك، لم أكن أعلم أنك وعامر...

ثارت جودي من جديد ونهضت عن مكانها تلتقط حقيبة يدها وانحنت ترتدي حذاءها تصيح:

لن أتزوجه! هو مجنون..

حين حاولت الخروج من جوارها أمسكت الأم بيدها وصاحت تخبرها أن والدته أخبرتها بما بينهما من حب واستدارت الصغيرة تنفض يد أمها عن ذراعها وصاحت بدورها تقول:

نعم.. هناك حب لكن ليس كل حب معناه زواج.. لا أريد أن أتحول إلى إيمان جديدة..

نظرت إليها في ذعر وعادت تكمل:

مع أول كلمة حب من ناجي بعت ذاتك وحياتك ووقعت عقد البيع المسمى بعقد النكاح.. أنا لن أفعل.. لن أفعل..

في ذهول أخبرتها أنها سعيدة وصاحت ابنتها تقول:

كل اللاشيء سعيد، أنتِ سعيدة لأنك لاشيء لكن من أنتِ؟! زوجة ناجي الكبير، أم أبنائه، أنت "الفزاعة" التي يحتمي بها من الساقطات والممثلات اللاتي يردن نصب شباكهن حوله.. أنت مديرة بيته وخليلة فراشه.. أنت مفعول بك.. لم تكوني يومًا فاعلًا ولن تكوني.. أنتِ لاشيء.. لاشيء..

كانت تصيح كأنها تبكي وكانت إيمان تستمع كأنها تموت، قبل أن تغلق خلفها الباب استدارت نحوها تقول:

أخبري ابن أمه أني أرفض الزواج من ذكر شرقي عفن.. أنا جودي الكبير، لن أكون يومًا أبدًا مجرد ابنة له أو زوجة للمهندس عامر الإبياري! لن أكون!

قالتها وصفقت الباب وعلى ذات السلم وفي ذات ردهة غرفة نومها ونوم أخيها وجدت يوسف يقف في ذهول، سمع كل ما دار بينها وبين أمها..

حين التقت عيناهما حاولت أن تمسك بيده، وحده يجب أن يسمعها ويفهم وجهة نظرها، لقد رأى عامر يغادر غرفة نومها في غياب والديهما، يجب أن تشرح له لمَ ترفض الزواج منه ولكن لماذا يجب أن تبرر تصرفاتها وتستجديهم الفهم والرضا؟!

حاولت أن تقف، حاولت أن تشرح لكن لم تستطع.. نظرت إليه وركضت على سلالم البيت..

ستذهب إلى الجامعة، هربها ليس قوة!

قررت أن تذبح بداخلها الحب وتذبح في قلب أمها وأخيها الفرحة والكرامة من أجل القوة..

كل المعارك الكبرى لها ضحايا، كل الانتصارات والفتوح فيها قتلى وجرحى.. الحب هو أول شهداء هذه المعركة وربما كان عامر من الضحايا لكن آن الأوان أن تكون وحدها أول أنثى ترفض الحب والزواج بمن تحب لتشتري حقها في الاختيار والرفض والقبول!

كانت تقود السيارة تغالب دمعها، لن تبكي لأنها فقدت حبًا! الحب إن كان طرفه الآخر أحمق كعامر سيقتلها.. يمحوها ويجعل منها مسخة ككل المسخ التي تتحرك في ثياب ثمينة وعطور غالية..

جرحت أمها، ضربتها في الصميم، أربكت رأس أخيها لكن يجب أن يفيقوا، حتى حبيبها ناجي الأقرب لها يجب أن يفيق..

النساء لسن توابع والرجال ليسوا أبدًا إنجازًا ومنتهى!

حين أغلقت سيارتها وأخذت طريقها إلى محاضرتها رأته يخرج من مكان لقائهما المعتاد.. جاء يبحث عنها

إذن؟ لِمَ لم يحادثها مرة، يريد أن تراه ليستغل ضعفها أمام لمسة يده ونظرة عينيه..

أشاحت بوجهها ومضت لكنه استوقفها ونظر إلى عينيها، كانت تعلم أنه سيفعل، بدأت أوصالها تعصاها لكنها بما بقي لها من رسالة حربها سألته:

ماذا تريد؟ أما كفاك أني أرفض الزواج بك؟!

في هدوء سألها:

هل حقًا تنهين كل شيء لأني أردت أن أكمل معك كل شيء؟!

في ألم أجابت:

أردت؟! أردتَ وحدك كأني لست هنا..

قاطعها قائلًا:

حين ضممتك أعوامًا، حين نمت على صدري مرات، حين منحتيني ومنحتك شفاهي مرات، حين حكيت لكِ أسرارنا وقصصتِ عليَّ وحدي خفايا نفسك ظننت أننا واحد..

في تهكم نظرت إليه وقالت في مرارة:

واحد أنت رأسه وعقله وأنا لاشيء سوى شفاهه وصدره و...

سكتت خجلًا من كلمة أرادت أن تقولها ونظر إليها في ألم:

ماذا تريدين؟ كوني العقل وخذي القرار في رجل أراد الزواج بك لأنه يحبك، أعلن هذه الرغبة لأنه يثق أنها النهاية التي يقرها الرب والقلب والدين..

كانا في وسط حديقة الجامعة ترمقهما الأعين من بعيد ونظرت له في حيرة وقالت ساخرة:

الدين؟! ككل الظلمة حين لا نجد ما نقول نتشدق بالدين..

في جنون نظر إليها وأمسك يدها في ذعر قائلًا:

جودي لم أكن أعرف! أنتِ لا تعترفين بالله؟ ألا تعترفين بدينك؟ بالإسلام؟!

نفضت يده عنها في ألم وقالت:

هو الفراق! لم تدع لنا طريقا سواه..

قالتها ومضت خطوات، شعرت بعدها بغصة عميقة في صدرها، استدارت تنظر إليه حيث كان واقفًا مصلوبًا

بذهوله ودهشته، كأن سكينًا تمزق صدره، عرفها ولم يعرفها..

من على بُعد صاحت باسمه ورفع وجهه نحوها لتقول:

قصتي ليست في الإسلام يا عامر، قضيتي وخصومتي مع من هم مثلك.. قضيتي مع المسلمين!

***

عادل لا يصدق أنها بين ذراعيه، لا يصدق أبدًا أنها نصف عارية وأن يده تتجول على ظهرها، ليس مهمًا أن يصدق أو لا يصدق..

لم تقف أمام كاميرته يومًا دون أن يشتهيها ومن ذاك الذي لا يشتهي "نسمة"!

حاول أن يصل بكفيه إلى نهديها ولم تعترض، سقط بشفتيه على عنقها وحاول أن يخطو بها إلا أنها وقفت ونظرت إليه بأنفاسها اللاهثة قائلة:

الشاطر لن يأخذني إلا عندما يطرد الكبير هذه المتشردة التي أخذت مني دور البطولة..

سكتت شهوته وابتسم، هناك ثمن إذن!

ابتعد عنها وهي تلملم قميصها حول صدرها متجهًا نحو البار الموجود في مكتبه ليملأ لنفسه كأسًا أخذ منه

رشفة بعد أن صَبَّ لها كأسًا أخرى، التقطته وهي تجلس أمامه ليقول في هدوء:

ربما يطلب مصورًا آخر.. عادل الشاطر ليس الوحيد في مصر..

وضعت الكأس على شفتيها وضحكت قائلة:

أعلم وتعلم أنه لا يثق بغيرك، وحدك تمنحه صورا تجعله يعود إلى الصواب، إلى نسمة..

ضحك، يشرب من كأسه هامسًا:

رأيتها بصحبة البدر، الفتاة جميلة..

وضعت كأسها ونهضت تقول في دلال يعلم أنه مرسوم:

لك عندي ليلة لا تحلم بها.. ربما اليوم.. ربما غدًا.. وقته ضيق وشوقي إلى اكتشافك كبيرة..

مضت إلى باب مكتبه وهو يرمقها في سكون..

نسمة لن تترك اكتشاف ناجي لكن هل تدرك حقًا في وجه من تحاول الوقوف؟!

دقائق طويلة مرت وهو يفكر أفاق بعدها على صوت هاتفه..

حين وجد رقم ناجي، حين فتح الخط وسمعه يطلب منه إلغاء جميع مواعيده في الغد لأنه سيكلفه بإجراء "سيشن" تصوير لزينب، لم يقل سوى "حاضر"..

أغلق الخط ونظر إلى الباب، إلى حيث مضت "نسمة"، كانت تعلم..

كل شيء في هذا المجال مكشوف متداول.. كل حرب الدناءة فيها مباحة ما دام الثمن نقودا وأجسادا..

عادل الشاطر أكبر مصور فنانين لا يستطيع أن يعتذر أبدًا عن أيّ منهما!

***

ترتجف إلى جواره ويشفق عليها كثيرًا، هو مثلها يتمنى أن تنجح وتحبها الكاميرا لكنه يشك في هذا..هي نقية صغيرة ما زالت غير مسكونة بالكذب والنفاق والشرور..

الكاميرا لا تحب الأنقياء!

لكنها بطلته، هي التي كتب بها روايته، كل تفاصيلها وملامحها.. يريدها أن تقوم بتمثيل الدور، يريد الكبير أن يطمئن لها أكثر..

في الأيام السابقة شعر أن بإمكانها أن تفعل، قد تكون بطيئة في القراءة لكنها سريعة في الاستيعاب.. حين قص عليها قصة بطلته وطلب منها أن تحاول التحدث

بما شرحه عنها أبلت بلاءً حسنًا.. ترتجف زينب، يشعر برجفتها حين جلست إلى جواره في السيارة في الطريق إلى مكتب الكبير..

طلبوا منه أن يوصلها إلى "ندى سالم" أكبر ستايلاست، أخبره مدير الإنتاج أنها ستتولى أمرها هي وخبراء التجميل ويسلمونها إلى الشاطر الذي يعود بها مع صورها إلى مكتب الكبير في التاسعة مساء حيث يجتمع ثلاثتهم لأخذ القرار النهائي بشأنها..

حين وصل بها إلى العنوان وقبل خروجها من السيارة استدار ناير وأمسك بكفها قائلًا:

دعيهم يفعلون ما يريدون لكن لا تسمحي لهم أبدًا بأن يعبثوا بهذا..

كان يشير إلى صدره بيده الأخرى وأكمل:

هذا هو سر "ماريا" الحقيقي.. لا أريد بطلة تمثلها غيرك رغم أني لست صاحب القرار..

هزت رأسها وفتحت باب السيارة، تتمنى لو يصاحبها..

ليته لا يتركها لحظة وليتها تخبره أنها ستتركهم يمزقون جلدها إن أرادوا ويبدلونها سواه لتحصل على الدور ليس فقط لأنها تريد وليس أيضًا لأنها لا مكان لها تذهب إليه إن استبعدوها لكن لأنها تريد أن تكون بطلة ناير

وأن تحقق حلمه وتنفذ رؤيته كما أخبرها في الليالي السابقة.

دقت الباب وفتحت لها سكرتيرة "ندى" تأملتها مبتسمة ثم قالت:

لا تخافي، أنتِ جميلة وستصبحين أجمل!

***

استدار بمقعده إلى نافذة مكتبه الكبيرة وابتسم ابتسامة صغيرة.. إن علم جميع من يعمل معك الحقيقة دمروك دمارًا شاملًا وإن كان دون قصد.. يجب أن تبقيهم دومًا في تساؤل وشكوك، حتى ناير البدر لا يجب أبدًا أن يثق أن ناجي لن ينفذ الفيلم إلا بها.. إن سكنهم الشك والخوف كان أداؤهم أكثر إخلاصًا..

هي طبيعة الإنسان إن أمِنْ تكاسل!

لا يهمه صورها! هناك دومًا علاج لوجوههن في مكياج أو إضاءة.. لا يهمه قدرتها على التمثيل ما دام هو المخرج، سيعلمها كيف تشعر وماذا تفعل.. كل هذا لا يتم إلا إن كانوا جميعًا في شك وخوف..

دون أن يتحرك أدار ذراعه وأمسك بهاتفه يطلب الشاطر، حين سمع صوته قال في صوته الهادئ:

لن أطيل عليك، أريدك أن تعلم أن نسمة لن تأخذ الدور فكن أمينًا مع زينب!

لم ينتظر ردًا منه، هو الآن غارق في دهشته أو ربما مضغته أعوام الخبرة حتى أصبح يعلم ألا شيء يخفى..

ما يكفيه أن تصله الرسالة..

الأفواه في دائرة كل مهنة دومًا مفتوحة، مفتوحة لتلتهمك إن استطاعت ومفتوحة لتلوك سيرتك ومفتوحة دومًا لتنقل الأنباء بثمن كان أو على أمل الحصول عليه يومًا ما..

من يظن العمل في السينما والفن أمرًا يسيرًا هو أحمق ساذج، العمل فيه لا يتطلب رأس مال كبيرا بل يتطلب أن تكون ذئبا في ثوب حمل، يتطلب رصيدا كبيرا من الدهاء!

ما عاد في حاجة إلى أرباحه أبدًا، هناك شركة تجارة الأراضي التي تدر عليهم الملايين، لكن للأضواء سحرا إن أصابتك تعويذته
لا تستطيع الخلاص منها بتمائم الأرض جميعًا!

حين يشير إليك البعض بأصابعهم، حين تدخل مكانا ويتهامس بعض من فيه باسمك وقصصك، حين يسوقون إليك أصدقاءك لتقبل الظهور في برنامج أو

تكون ضيف شرف مهرجان.. حين يصفقون لك ويمنحونك جائزة..

أشياء لا يدرك تأثيرها إلا من عاشها، هذه المرة الأمور تختلف، ناجي لا يكتفي بالجلوس على مقعده وتوقيع الشيكات ولقاء مديري المحطات للبيع والشراء فحسب، هذه المرة يقف خلف الكاميرا، سرقته رواية ناير والسيناريو الذي كتبه، سرقت أفكاره زينب حين رآها مرة وأجهزت عليه تمامًا حين رآها تخرج له من سطور البدر..

هذه المرة تختلف!

النقود نقوده والكاميرا ملكه وعصا المايسترو في يده، وفي كل ذراع يتأبط بطلا رائعا يسحق عظامه بين يدي الكبير لينجح..

زينب والبدر.. يكاد يسمع التصفيق في دور السينما، تملأ أذنيه كلمات الثناء في المهرجانات، يتحسس بأصابعه وعينيه المغلقتين مشاهد الفيلم، يهتز رأسه لموسيقاه التي يؤمن أن ناير سيبدع في كتابتها كما أبدع في القصة..

هو عمل العمر ونشوة العمر وانتصاره..

في تثاقل مد يده يخرج هاتفه الخاص ليجيب إيمان.. سألته أن يحضر وأخبرها أنه سيتأخر، شيء في صوتها

لا يريحه، سألها عن يوسف فأجابته أنه وأخته في البيت.. سكتت لحظة وقالت إن هناك أمرًا بشأن جودي تريد الحديث فيه.. في لهفة سألها إن كانت بخير، ضحكت زوجته ضحكة صغيرة بدت له مريرة وقالت:

عضويًا نعم لكن ربما كانت هناك أمور أخرى..

تنهد في ارتياح يعدها أن يحاول العودة مبكرًا وأغلق الهاتف.. لماذا حقًا جُلّ ما يهمنا أن نعلم أن أجساد أولادنا بخير بينما هناك أمور إن أصابت نفوسهم قد لا يكون الشفاء منها ممكنًا؟!

هَمَّ بأن يحادث ابنته لكن لا وقت لديه، أمسك بالهاتف وكتب لها رسالة قال فيها:

"من له أب يحبه بهذا القدر فليثق أنه دومًا بخير"..

أرسلها ونظر إلى ناير يدخل مكتبه، على وجهه ألف سؤال لكنه جلس في هدوء..

ابتسم ناجي، هذا الشاب يظن نفسه أقوى من الأضواء والشهرة.. كل شيء سيتغير حين يتذوقهما!

طلب فنجانين من القهوة قائلًا:

ستكون هنا هي والشاطر في وقت قصير وحتى يحضرا أخبرني هل أجريت التعديلات التي اتفقنا عليها..

ابتسم البدر ومد يده بالأوراق إليه يهز رأسه بالإيجاب لكنه لم يستطع أن يقاوم فقال:

زينب أفضل من يقدم الدور..

قبل أن يجيبه سمعا طرقات صغيرة دخل الشاطر بعدها وخلفه زينب، عندها رفع الكبير طرف عينيه مشيرًا للخائف أن ينظر خلفه..

شهق ناير حين استدار، كأنها ليست من كانت معه ترتجف في سيارته..

هي "ماريا" بطلة روايته، لون شعرها البندقي، عيناها الواسعتان، ثيابها الأنيقة، حتى كعب حذائها الذي كانت تتأرجح فوقه..

كيف حدث كل هذا وهل إن عاد بها إلى أمه على هيئتها هذه تُراها تعرفها.. كانت تبتسم وهي تقرأ انبهارهم وتتقدم ولا ترى سوى عينيه التي تجوب أجزاءها في دهشة ممزوجة بإعجاب كبير..

جلس الشاطر في هدوء وقال وهو يمد يده ببعض الصور:

زينب جميلة حتى أن الكاميرا وإن حاولت لن تجد فيها ما ينتقص من جمالها..

نظر الكبير إليها وإلى الصور لحظات ثم قال:

ربما بضعة كيلوجرامات تفقدها قبل التصوير تجعل الحال أفضل..

في لهفة أخبرته أنها ستمتنع عن الطعام من الغد..

ابتسم في هدوء.. مد يده إلى درج مكتبه وأخرج مظروفًا مغلقًا مد به يده إلى الشاطر كأنه يعلمه أن دوره انتهى.. التقط المظروف ونهض يصافح كلا الرجلين وسمعه ناير يجيب هاتفه قائلًا:

يبدو أنه ليس مقدرًا لك أن تكتشفيني يا صغيرتي!

قالها وأغلق الخط ونظر إلى ناجي كأنه يعلمه أنه اشتراه وباع نسمة!

***

نظر ناجي إليهما وقال في سكون:

مبروك، مبدئيًا أنتِ معنا.. ستوقعين العقد الآن لكن فلتعلما معًا أن أكبر نجوم مصر وأعلاهم أجرًا إن علموا أني أُخرج عملهم لربما تنازلوا عن كامل أجرهم..

لم تفهم، نظرت إلى ناير كأنها تستجير بعقله وحكمته لكن ناجي أكمل:

هل تعلمين أنك أكثر من محظوظة، إن أردت يومًا دور بطولة كهذا في قصة كهذه مع شركة كهذه ومخرج

مثلي لاستغرقك الأمر أعوامًا يشيب فيها شعرك ويتمرغ جسدك بين الرجال وتطير نصف نقودك هدايا وعمولات..

ما زالت لا تفهم لكن ناير أرخى رأسه فلقد سبق له أن سمع خطبة كهذه يوم وقع عقده وأكمل ناجي يقول:

أنتِ صغيرة لكنك راشدة، إن لم تمتثلي لأوامري كمخرج ومنتج أقاضيكِ يا زينب ولن تجدي من يحميكِ أو يدافع عنك.. أنتِ حتى لست عضو نقابة بعد..

حين قال كلمة الحماية رآها تنظر إلى ناير كأنه رجلها وحمايتها..

ابتسم ناجي وأكمل أنها تولد وتتحول من بائعة طيور إلى نجمة ولكل ميلاد ثمن..

قبل أن يكمل سألته هل وقع البدر معه، حين أجابها بنعم، أخرجت من حقيبة يدها الصغيرة التي منحتها "ندى"، أخرجت بطاقتها ووضعتها على المكتب والتقطت قلمًا قائلة:

أوقع وألتزم وأفعل كل ما تريد دون أن أعرف أجري إن كان هناك أجر، ودون حتى أن أقرأ فقط إن قال البدر أن أفعل..

فتح ناير عينيه في ذهول وهي تقول كلماتها تلك ونظرت إليه ثم قالت:

جئته أرتجف خوفًا وجوعًا وضعفًا بعد موت أمي، لم يتركني أغفو في بيته، أخذني إلى أمه التي ضمتني، منحتني من ثيابها وطعامها، علمني أن أقرأ وماذا أقول..

أشارت إلى صدرها بأصبعها وأكملت:

على ماذا أحافظ؟! سأفعل كل شيء وإن لم أفعل افعلوا بي ما شئتم..

في مرارة ابتسم الكبير وهو يخرج لها العقد الذي منحه لناير يقرؤه.. الأجر ضئيل لكن كليهما يعرف أن الأجور لا تُقيم بحجم الدور أو صعوبته بل بأمور أخرى ما زال رصيد زينب منها صفرا.. بعد أن قرأ كل البنود منحها الأوراق وانحنت توقعها، ابتسم الكبير ابتسامة حزينة وقال في هدوئه:

من اليوم أصبح اسمك "بيبا"!

تبادلت زينب مع ناير نظرة لكن كليهما يعرف أنه قرار وليس اختيارا..

كان الكبير يبتسم سعيدًا بالاسم الذي اختار وبالعقد الذي وفر له ملايين، لكن رغم سعادة المخرج بميلاد

نجمة على يديه فإن الأب والرجل حزين لأن مولد بيبا لا معنى له سوى أن فيومية نقية حتمًا ستموت!

***

كان الكبير يبتسم سعيدًا بالاسم الذي اختار وبالعقد الذي وفر منه ملايين لكن كل شيء أصبح أسرع: الوقت والأيام والتغيرات..

ناير يركض خلف صدور روايته، وهي تركض خلف نظامها الغذائي ودروسها اليومية وبروفات "المكتب" كما يسمونها، والكبير يركض خلف حملات إعلانية لم يسبق لها مثيل..

هو مخرج العمل وبطلته شابة صغيرة لا أحد سمع عنها من قبل،
لا يمر أسبوع دون أن يصطحبها إلى برنامج تليفزيوني، يتحدث هو عنها ولا تقول سوى جمل محددة تم تلقينها إياها.. دومًا وفي كل مرة وإن ذكر اسم "ناير" تشتعل عيناها ببريق يسرق لب من يراها..

يكره أن يعترف أن روايته لم تحقق نجاحًا إلا بعد حملات الكبير وبعد حديث هذه المجهولة عنه وعنها.. أقاموا له أكثر من حفل توقيع ودومًا يجدها ترتدي أحلى ما اشتروا لها وتصر على الذهاب معه.. حاول أن

يذهب دونها لكن مات حماس كثير من الحاضرين رغم إشادتهم بروايته..

بدأ يألف وجودها بل بدأ يعتاد أن يرى وجهها ملونًا وحاجبيها مرسومين، يعلم أنها تحتمي به وتنظر إليه كأنه حلم لا تريد الخروج منه لكنه ما زال ينظر إليها على أنها من صُنع أصابعه.. ما زال ناير يراها ماريا التي أحسن رسمها فخلقها الله ووضعها في دربه..

اليوم صدرت الطبعة الثانية لروايته وقرر أن يشكرها أو قرر أن يعترف أنها تستحق الشكر.. أخبرها أنه يدعوها إلى بيته بعد نوم أمه، ابتسمت لكنه أكمل أنه ليس لقاء تعليميا عن السيناريو ولا هو لقاء تقييميا كما يسميه عن أدائها بل هو لقاء خاص..

في الحادية عشرة كان قد انتهى من إعداد قطعتي "السالمون" ومن تجهيز "الصوص" الذي يجيد صنعه من الليمون والزبد وحبات الفلفل السوداء..

حين فتح لها الباب كانت ترتدي ثوبًا يقف على حد ركبتيها من اللون الأزرق، وجهها خالٍ من الألوان إلا خط أسود عريض فوق جفنيها العلويين..

أصبحت نحيلة لكن تغيب عن بشرتها ونظراتها مسحة الفيوم القديمة.. بدأت حقًا تكتسب ذاك الشيء الذي لا

نعرف أين بالتحديد مقره على وجوه وأجساد السيدات..

شيء بلا ملامح يجعل منهن "هوانم" لا مجرد نساء!

كيف حدث هذا في شهور أم بداخلها حقًا ممثلة بحجم مارد لا يراه أحد..

أفسح لها الطريق ودخلت تنظر حولها، تحفظ كل ركن في منزله الصغير بل تتمنى لو تنحني وتضع قبلة على نسائم الهواء التي تتجول حول وجهه وصدره.. انحنى نصف انحناءة ومد ذراعه وكفه المفتوح كأنه يرحب بها ويدعوها للجلوس على المائدة، جلست تنظر إليه يسخن ما أعده من طعام وقالت على استحياء كأنها ما كانت تلك التي تصرخ وهي تمسك الدجاج وتسلخ ريشاته:

هل أساعدك؟

تقدم نحوها يحمل صحني الطعام ووضع أحدهما أمامها وجلس يقول:

ساعدتني كثيرًا ويجب أن أعترف، منذ أصبحتِ...

نظرت إليه تنتظر أن يكمل وسكت، لا يعرف كيف يكمل، هل يخبرها عندما أصبحت أكثر أناقة أو أكثر ظهورًا أو

أكثر منه شهرة رغم أن فيلمها لم يعرض بعد ولم يكن لها عمل أو نشاط أو حتى شهادة أو درجة علمية..

سكت لحظات ومد يده إليها بسلة الخبز الصغيرة وهزت رأسها تشكره وقال:

بيبا..

مدت كفها ووضعت أصابعها الملونة على كفه قائلة:

قل زينب!

أكمل في هدوء:

سأقول ماريا..

أغمضت عينيها في ألم، ناير لن يراها أبدًا! لم يستطع أن يعترف بفضلها لكنه لم ينس أن يثني على تقدمها.. رآها وهي تستخدم سكينها وشوكتها وابتسم ابتسامة عريضة رأتها وفهمتها.. تحدث معها عن اقتراب موعد التصوير وأخبرته كيف تحدثت عن روايته في لقاء إذاعي وكيف أخبرتهم أنه سيصبح أشهر كُتَّاب هذا الزمان.. أمسك بكفها يخبرها أنها ستصبح أجمل ممثلات كل زمان، حين سألته لماذا؟

ضحك قائلا:

لأنك تقنعين الناس بجمال كاتب لا يعرفونه وبقراءة رواية أنتِ نفسك لم تقرأيها..

ابتلعت الإهانة التي جرعها إياها وإن كانت مغلفة بحبيبات سكر ثم نظرت إليه في ألم واستدرك يقول:

مفاجأة أريدك أن تعرفيها قبل ناجي..

نظرت إليه ونهض عن مقعده يحضر جيتاره وجلس يقول:

أنهيت موسيقى الفيلم وإليكِ جملها الرئيسية..

لم ينتظرها حتى تغلق شفتيها اللتين اتسعتا، أغمض عينيه وترك أنامله تداعب أوتار جيتاره..

موسيقى هادئة حالمة كبدايات قصته عن ماريا ترتفع دون أن تشعر بارتفاعها حتى تسمع دقات قلبك تضطرب لكثرة تضارب النغمات وعلو الدقات، كانت عيناها مغلقتين، ترى ماريا وهي تتزوج من أحد رجال السلك الدبلوماسي الذي يكبرها بعشرين عامًا وقلبها يدق خوفًا وهي تجلس معه على مقعد الدرجة الأولى متجهين إلى "باريس" لقضاء شهر العسل ومن ثم إلى عمله الدبلوماسي في أحد أفقر بلاد أفريقيا..

هدأت أنفاسها وهي تسمع الموسيقى، تهدأ كما هدأت ماريا على أرض تلك البلاد، هدأت حتى كادت تموت

جفافًا وبرودًا وإهمالًا في صالونات الاستقبال والمراسم الرسمية..

موسيقاه تعلو من جديد لترى سطور الرواية في منتصفها حين بدأت ماريا بالخروج إلى الأحياء الفقيرة تساعد أطفال الأحياء المهجورة الذين يقتلهم الجوع والمرض، وكيف بدأوا جميعًا ينتظرونها ويلتفون حول جسدها الذي تمنت لو يحمل بين أحشائه طفلًا تفرغ فيه الحب الذي قتله الزوج والأمومة التي افتقدتها برحيل الأم..

شعرت بنفسها تطير وهي على مقعد الطعام ذاك، تطير كل صباح إلى أطفال الأحياء، تقيم لهم دروسًا وتمنحهم ما استطاعت من طعام بيدها تطهوه بصحبة الأفريقي كال.. هائمة مع الموسيقى.. تطير، كل قطعة في جسدها تتحرك وتتمايل حتى وقف فيها كل شيء عند تلك النغمة العالية الممزقة التي خرجت من جيتاره..

تلك هي لحظة شعور الحب بداخل ماريا لصديقها الأسمر الذي فتح بيته لأطفال البلدة الذين أصابهم وباء لا يعرف تشخيصه أحد..

عادت تهيم وتطير عندما أصبحا فريق حب ورفقاء رحمة انخفضت الموسيقى وسكتت أوصالها.. زينب هائمة في جمال الموسيقى لكن لا تستطيع رؤية ماريا أو السطور..

توقف جسدها عن التمايل وما عادت عيناها المغمضتان تبصران شيئًا، ورغم هذا كان ناير يضرب بأنامله على أوتار جيتاره وهي ترقبه بعينين مفتوحتين ذاهلة لا تفهم شيئًا.. شعر بها ووضع ريشة جيتاره إلى جواره ونظر إليها وقال في قسوة:

لا أصدق أنك تستشعرين الموسيقى إلى هذا الحد وتعجزين عن إنهاء كتاب بدأته..

ابتلعت إهانته الثانية وكيف لا تبتلعها وهي تشعر أنها في حضرة ساحر لم تلد الأرض مثله..

همست في ذهول:

كيف؟ كيف تفعل أصابعك كل هذا؟!

نظر إليها وقال في مرارة مشيرًا بأصبعه إلى رأسه:

هذا من يفعل كل شيء، ومن كان لديه كان أشقى الناس وإن كان أمهرهم وأكثرهم قوة وعطاء، لهذا ستنجحين أكثر مني وستسعدين أيتها الجميلة! فلا تشغلي رأسك الجميل بكيف ومتى ولماذا؟!

***

أشار لها سائق إحدى السيارات "البيجو" أن تدخل إلى سيارته، فتحت الباب لتجلس إلى جواره حيث كان المقعد الخاوي الوحيد، قبل أن يدير السيارة مدَّت كفها

إليه بالأجرة، ضحك وأخبرها أن من كان بصحبتها دفع له الأجرة، وإلا ما سمح لها بالجلوس في سيارته.. أدارت وجهها إلى النافذة وبدأت دموعها تتساقط في ذهول..

أربعة أشهر منذ تلك الليلة التي تركت فيها البيت وخرجت بعد أن طردتها زينب.. لم تكن تعلم أين تذهب، طافت شوارع الفيوم التي تعرفها وفي نهاية الأمر خانتها ركبتها لتلقي بنفسها على رصيف مجاور لشارع البارودية علَّ زينب تخرج للبحث عنها وتطيِّب خاطرها لتعود إلى دجاجاتها وفرشة نومها..

ساعات لم تظهر فيها ابنتها، ساعات لا الجوع أو الإنهاك يرحمها ولا يقتل أحدهما فيها بقايا من كبرياء منعتها أن تعود إلى البيت الذي طردتها ابنتها منه.. حين شعر بها كلب عطية وقاده إليها، بكت وأخبرها أن ابنتها لا شك تموت رعبًا وحدها..

أرسلته إليها ورجته ألا يخبرها أنها فعلت، عاد المعتوه يخبرها أن ابنتها قادمة..

أحدهما جوار الآخر على الرصيف والكلب حولهما حتى خيوط الفجر الأولى..

لا تريدها، ابنتها لا تريدها لكن سحقًا لكرامة تمنعها عمن ذبحوها لتلقي بأشلائها على رصيف بارد إلى جوار

معتوه وكلب ضال.. معتوه يشبه اسمه اسم أبغض النساء إلى قلبها ورغم هذا لا أحد سواه معها!

أخبرته أنها ستذهب إليها لكنها عادت إليه بعد دقائق تلطم وتبكي..

زينب هي من تركت المنزل..

بحثا عنها في كل مكان، ثلاث ليال لم تنم فيها أدركت بعدها أن الفيوم بأكملها لم ترها..

أربعة أشهر عرف فيها الجميع باختفاء ابنتها لكن ما عاد الأمر يعنيهم في شيء، وحده عطية يشفق عليها ويدق بابها من وقت إلى آخر..

بالأمس انتفض قلبها حين سمعت طرقات عنيفة على بابها، نهضت تركض نحو الباب ظنًا منها أن وحيدتها أعادها الشوق أو حتى الإشفاق أو الضياع..

فتحت الباب لتجد أبلة "مها" أمامها، أخبرتها أنها شاهدت زينب على شاشة التليفزيون.. أخرجت هاتفها من حقيبتها وأرتها وجها يشبه وجها اشتاقت إليه يجلس ويتحدث، بكفها العجوز أعادت لها هاتفها تخبرها أنه تشابه.. لم يكن شعر ابنتها بهذا اللون أو الطول، ولا ترتدي ابنتها ثيابًا كهذه، هو تشابه، في اللحظة التي كانت تعيد فيها الهاتف سمعت صوتها.. استعادت الهاتف ونظرت في جنون، هناك رجل يجلس على مقعد جوار

شبيهة ابنتها.. رجل بحثت عنه في شوارع مصر جميعها منذ شهرين..

همست في ألم "الكبير"..

أردفت مها تسألها قائلة:

نعم.. ناجي الكبير.. هل تعرفينه؟!

صاحت كالمجنونة:

هل يمكنني أن أراها من جديد.. أريد أن أراها..

سحبت مها الهاتف وأعادت لها التسجيل وبقيت تنظر وتحدق.. هل هي زينب فعلًا؟ حتى صوتها يختلف.. لكن ربما..

لا تعلم.. حتى قلبها.. قلب الأم لا يجزم..

رمت رأسها بين كفيها وأخبرتها مها أن الوصول إلى الكبير ليس صعبا.. نظرت إليها في ألم تتمنى لو تخبرها أنها لم تترك شارعا أو رجلا أو امرأة دون أن تذكر لهم الاسم لكن لا أحد يعرفه..

حميدة تعرف أن أرض المحروسة تكره الغرباء!

أمسكت مها بيدها وأخرجت من حقيبة يدها ورقة منحتها لها بعد أن كتبت عليها وقالت:

هذا اسم القناة والبرنامج الذي ظهرا فيه.. اذهبي غدًا إليهم ودون شك يمنحونك العنوان..

لم تغفُ عيناها لحظة وهي تتخيل لقاءها بالكبير، ستبصق في وجهه، ألم تخبره أنها ترفض عمل ابنتها لديه لكنها وحدها ذهبت إليه..

أربعة شهور دون أن ترسل لها كلمة، دون حتى زيارة!

قبل أن تشرق الشمس جاءت إلى القاهرة، ماتت مشيًا وركضًا وسؤالًا عن قناة وبرنامج.. دفعت عشرات الجنيهات لتصل إلى "المدينة" التي أخبروها أن القناة بها..

مدينة لها بوابات وعلى بواباتها أسوار وكلاب حراسة.. حاولت أن تعبر استوقفوها، أخبرتهم القصة وبكت، بكت كما لم تبك حتى يوم اختفاء ابنتها..

رفضوا دخولها.. بكت أكثر لكنهم طردوها وهددوها بتسليمها إلى الشرطة.. انزوت على حائط ترقب السيارات التي تعبر البوابات، رأت رجالًا ونساء مثلها يبكون.. هل لهم أبناء وبنات سرقهم الكبير؟! استرقت السمع.. منهم من يريد علاجًا أو نقودًا أو لقاء مسئول أو مذيع..

يطردون الباكين جميعًا دون رحمة..

ليست مريضة ولا غارمة ولا تم اغتصاب بيت لها أو أرض..صرخت حميدة صرخات كبيرة عالية على بوابات ما أسموه مدينة.. صرخت كغراب ذبيح حتى سكنت جميع الأصوات والتفتت إليها الرؤوس وفتح قائدو السيارات نوافذهم صرخت تقول:

"ابنتي سرقها ناجي الكبير.. أريد رؤيتها.. أريد استعادتها.. خذوني إلى البرنامج الذي كانوا فيه"..

أسرع إليها موظفو الأمن وأمسكوا بها في قسوة يخبرونها أن البوليس قادم..

بكت وصرخت وتوسلت إليهم، كادوا يضربونها لولا أن تدخل رجل كان في سيارته ورجاهم أن يتركوها..

أخذها في سيارته إلى موقف الفيوم، حكت له القصة في الطريق، أقسمت أنها لا تكذب.. لماذا شعرت أنه يصدقها أخبرها أنها لن تصل إلى شيء..

"الكبير كبير يا ست حميدة لكن أعدك أن أحاول الوصول إلى شيء وسأحضر إلى بلدتك إن حدث"..

لا تصدقه، أرسله الله لينقذها من البوليس، لو ألقوا بها إلى السجن وبقيت فيه أعواما ما تفقد أمرها أحد.. لا يهمها إن فعلوا لكن لن تصل إلى ابنتها إن بقيت في السجن، تموت دجاجاتها جوعًا وعطشًا وهي ملقاة في

زنزانة لأنها حاولت دخول "المدينة" التي يخافون عليها كثيرًا..

زينب!

سقطت دموعها وبدأ نحيبها رغمًا عنها يعلو، ارتفع صوت السائق يطلب منها أن توحد ربها وتكف عن النحيب..

ستعود، لن تستسلم!

ستخبر عطية وتطلب منه أن يرافقها.. ستذهب إلى أبلة "مها" ربما إن ذهبت معها احترموها وصدقوها..

بطرف طرحة رأسها السوداء مسحت دموعها وتذكرته عَلّه يكون صادقا ويساعدها.. كتمت نحيبًا أكثر شعرت به يكاد يغادر صدرها.. لن يفعل! لا أحد يفعل.. هو فقط أنقذ عجوزا معتوهة من السجن والضرب.. لا أحد يهتم لأمر مجنونة تبحث عن ابنتها في شاشة التليفزيون خاصة إن كانت تجلس إلى جوار ذاك المخنث الذي يربط شعره، حتى الشاب الذي أنقذها، فعلها شفقة، حين سألته عن اسمه وهي تلهج له بالدعاء من بين نحيبها سخر منها وقال إن اسمه الطيب!

حميدة لن تستسلم.. ستعود، كلما باعت دجاجات أو بيضًا تجمع نقودًا، تعود إلى مصر.. يومًا تجد الكبير.. يرسل الله لها دومًا ألف طيب آخر يساعدها!

الله يحب الأمهات!

***

لا تعلم إن كانت هي من تجر قدميها أم أن قدميها من كانت تجرها نحو البيت.. منذ خرجت حميدة من السيارة التي حملتها إلى الفيوم تشعر أن سكان منطقة البارودية بل ومن حولها يعلمون ما حدث لابنتها.. كانت تخطو وحبات العرق تتساقط لتختلط بحبات دموع مالحة تبحر خارج عينيها.. بين كل انزلاقة وأخرى كانت تبحث عنه بعينيها..

وقفت أمام "عشته" وأسرع كلبه إليها، صاحت تناديه ليخرج مسرعًا يحاول ارتداء "شبشبه" الممزق في قدميه، في لهفة وقف أمامها وأجهشت في البكاء كأنها كانت تنتظر رؤيته لتبكي..

بكت وانتحبت ورأت دمعات صغيرة تهرب من عينيه، غاب لحظة في عشته وأخرج لها كوب ماء راجيًا منها أن تشربه.. خطت بعيدًا عنه وتبعها.. لم تكن تريد شيئًا، فقط أرادت ألا تبكي وحدها.. أرانبها ودجاجاتها أصبحن مسممين لكثرة ما تبكي وتنتحب أمامهم، حميدة تريد أن تبكي مع إنسان ولا إنسان تعرفه سوى عطية..

أسرع خلفها بعد أن أحكم وضع كراتينه على باب عشة الصفيح التي يسكنها، حين لحق بها ودون أن يسألها

تحدثت في صوت خفيض ذليل عن كل ما رأته في رحلة البحث عن ابنتها.. حين أنهكها البكاء والخطى وقفت على باب بيتها تبتلع دموعها وتلتقط أنفاسها واستدارت إليه تقول:

لوثوا زينب يا عطية، لوثوها ولا أعرف كيف أصل إليها..

فتحت الباب وقبل أن تدخل نظر إليها بغبار وجهه وتراب جلبابه الممزق قائلًا:

لن يدلك أحد على طريقها وأنتِ وحدك.. أذهب معك ونجدها..

نظرت إليه تخبره أنها ستدخر نقودًا وتذهب، لن تهدأ حتى تجدها، صاحت تقول أن تعود بجثمانها وتضعه إلى جوار جدتها وأبيها أفضل من أن تتركها وسط الرذيلة والشذوذ..

أمسك عطية بالباب قبل أن تغلقه ونظر إليها قائلًا:

تزوجيني يا حميدة، إن علموا أن لكِ رجلًا وزوجًا صدقيني يفتحون لك الأبواب..

في ذهول نظرت إليه، في ذهول رأت ملامح وجهه للمرة الأولى، رأت قامته القوية رغم جلبابه الممزق وارتعدت أوصالها.. يسكن عشة من صفيح ويعمل غفيرًا للمباني! عطية الذي لا يتبين أحد لون بشرته من خلف

بصمات الأتربة وطين الطرقات حتى أن كلبه بات أكثر نظافة منه..

لكنه على حق، وحدها لن تصل، ووحده من تراه يحادثها وتحادثه! استدارت تنظر داخل بيتها حيث بدأت ديوكها تصيح لحضورها وعادت بعينيها تنظر إليه..

أيهم أفضل صحبة وأكثر نفعًا! هو أم طيورها!

شجعه صمتها وشرودها أكثر ووضع كفه الأسود على يدها الممسكة بالباب وعاد يقول:

يا أم زينب، لا أحد لي سوى كلبي ولا أحد لك سوى طيورك.. دعينا نصبح عصبة وثقي أن كل من نخافهم عندها يخافوننا..

***

أغلق حقيبة سفره في هدوء وألقى بجسده الشاب على فراشه وأخذ يحملق في سقف غرفته بهدوء، كعادته في الستة شهور الماضية امتدت أصابعه دون وعي منه تعبث بسلسلة صدره التي لم يخلعها يومًا منذ وضعتها جودي حول عنقه..

"أنا أحبك جدًا".. ابتسامة صغيرة ساخرة..

كيف انقلبت الأدوار في لحظة؟!

أصبح الرجل يتحسس هدية امرأة أحبها وألف سؤال في رأسه.. هل أحبته حقًا؟ أم كانت فقط تريد صدرًا وجسدًا وشفاهًا ويوم أراد منها الزواج ثارت ثورتها متذرعة بإخباره أمها وأمه؟!

هل أصبح الرجال الآن تسلية النساء؟!

يشتاقها كثيرًا، ما زال يسمع بعضًا من أخبارها!

يهرب من كل المواجهات ورغم هذا يعبث بهديتها كل صباح وكل مساء إن انفرد بنفسه.. يغيب عاما في تكليف له من عمله، اختاروه ضمن قلائل للسفر إلى كندا..

إن أعجبته الحياة هناك قد لا يعود، لم يخبر أمه بما يخطط له بعد، لكن أصابته جودي في مقتل.. ليست صدمة حب أو خذلانا، هي لطمة يعلم أنه يحتاج وقتًا طويلًا ليفيق منها.. عامر رغم شبابه ونجاحه ووسامته إلا أنه أصبح يخشى التعامل مع امرأة!

كانت أمه واقفة أمامه ترقب حقيبة سفره، ترقب أصابعه التي تعبث في هديتها التي أخبرها بشأنها، اقتربت في هدوء لتجلس على حافة الفراش ووضعت كفها على ساقه، حيث أفاق من غيابه على لمستها وصوتها تقول:

ما زلت تحبها، أعلم والغريب أني أشعر أنها تحبك..

اعتدل وضمها إلى صدره قائلًا في مرارة:

لم يعد الحب قضيتي، أنا فقط أتمنى لو أفهم...

"لا شيء يبقى العمر غامضًا وإن بقي يجب أن نعلم أنها إرادة الله وأن خلف حدوثها رحمة"..

هز رأسه لكلماتها وتفسيرها وأخبرته أنها ستذهب لزيارته بعد شهور، لن تتركه وحده أبدًا لهذه المدة الطويلة..

أخرجت من جيب "روبها" الذي ترتديه "كرت" ائتمان مدت يدها به إليه تخبره أنها أودعت فيه مبلغًا كبيرًا يلجأ إلى استخدامه إن احتاج ذلك..

قَبَّل كفها وأعاده إليها يخبرها أن راتبه كبير والشركة توفر له بدل سكن، لكنها لم تغادر الغرفة حتى وضعه أمامها مع أوراق سفره..

عام بعيدًا عن صدفة تجمعهما أو عن خبر يُلقى على مسامعه عنها.. مؤلم كثيرًا أن تموت قصة كهذه لمجرد أنه رغب في الزواج منها..

نظر إلى هديتها في المرآة..

ماذا كان يهديها؟! زهورا وحلوى وقناني عطر!

لا هدية كهديتها!

الهدايا رسائل إن أجدنا كتابتها تبقى رفيق عُمر، ومصباح عتمة.. الهدايا أحيانًا خناجر نتركها لتجهز على من أحببناهم بعد الرحيل!

نظر بطرف عينيه إلى الساعة، ما زالت السادسة..

لن يسافر دون أن يرسل لها هدية كهديتها.. هدية تتحدث وإن كانت أحاديث كذب وخداع! التقف حافظة نقوده وأسرع خارج البيت..

يريد أن يرسل لها هدية تعذبها وتنشيها.. رسالة تبقى منتصبة أمام عينيها تجلدها كما تفعل هديتها.. خنجر كهذا الذي على صدره..

الهدايا فن حب وفن إيلام وفن بقاء بعد غياب من أرسلوها أو رحيلهم!

***

سعيدة وداد بوجود زينب معها، فقط لا تفهم كيف استطاعوا تغييرها إلى هذا الحد.. ما زال في كلماتها شيء يختلف، ربما أيضًا في بعض تصرفاتها لكن حتمًا تغيرت كثيرًا.. ترى كيف تتابع عيناها ناير ولا تهدأ إلا في وجوده حتى أنها تحزن أحيانًا عندما ترى ولدها لا يراها لكن هل هو حقًا لا يفعل!

تنهدت وهي تلف أصابع "ورق العنب" وزينب تجلس على طاولة الطعام أمامها تحفظ سطور السيناريو.. بالأمس نادتها مرتين ولم تجب، ضحك ناير وصاح يناديها "ماريا" حيث استدارت منذ النداء الأول..

أخبرها ولدها أنها تحولت إلى بطلة الورق أو ربما ما كانت يومًا زينب، تمنت الشابة لو تخبره أن ليس الاسم الذي ناداها به ما جعلها تجيب بل هو صوته..

ما عادت زينب تسمع أو تستجيب إلا لصوته، لكنها ما زالت تتساءل كيف استطاع ولدها رسمها ووصفها بهذه الدقة قبل أن يراها وكيف وجدها الكبير وكيف ماتت أمها وأصبحت معهما في بيت واحد؟!

للحياة تدابير لا أحد يفهمها..

ناير روايته تنجح، بدأت الصحافة تكتب عنها لكن تعلم أنه يؤلمه أن ذكرها يقترن دومًا بالفيلم وبالكبير وأيضًا باسم "بيبا"!

رأت أصابع زينب تمسك بأوراق العنب وقالت:

اتركيه.. أكمله أنا..

ضحكت الشابة تكمل:

لا أقاوم لفه أبدًا تمامًا كما لا أقاوم تناوله.. دعيه لي..

عادت بظهرها إلى المقعد، تعترف أصبح يرهقها لف ورق العنب، أخذت ترقبها وهي تطوي الأوراق في مهارة وسرعة وبشكل منمنم..

للصبا مذاق آخر!

في رنة خجل قالت:

متي يأتي ناير؟!

ابتسمت الأم تخبرها أنها لا تعلم لكن أجزمت أنها إن حادثته وأخبرته بما يعدان للعشاء يظهر في لحظة..

في تردد أكبر قالت:

لو شكرتك كل يوم على استضافتك لي ما وفيت.. وعدني الكبير بتأجير شقة لي..

قبل أن تقاطعها أكملت بسرعة:

رجوته أن يجد لي شيئًا بالقرب منكم..

لم تطلب منها البقاء فهي تعلم أنها يومًا تحيا وحدها لكنها قالت في صدق:

سامحيني إن قلت لك هذا لكن لا أحد يعلم ما يحمل خروج الفيلم لك.. إن لم تأتك عروض أخرى لن تستطيعي تحمل نفقات الحياة وحدك..

نظرت زينب إليها في ذعر، هل هناك احتمال ألا تنجح؟!
أبعد كل هذا الشقاء والجوع ورسم وجهها وخنق جسدها في الأقمشة وسحق أصابع قدميها في الأحذية الضيقة العالية لا تنجح؟ أبعد دعاية الكبير وعدسات التصوير، وبرامج التليفزيون تفشل؟

انفرجت أساريرها وهدأت جميع أوصالها حين لمحت عيناها الأوراق.. إن فشل كل ما يفعلونه بها، كلمات ناير وجمله وقصته وحدها تتكفل بالباقي..

نظرت إلى الأم وقالت في صوت واثق هادر:

قصة ناير البدر كفيلة بأن أنجح أنا وكل من معنا.. أنجح لكني أبقى كما قلت ما دام بقائي لا يسبب لكم ضيقًا أو حرجًا..

انطلقت بينهما الأحاديث، حدثتها عن ناير، عن غيابه مع الموسيقى والكلمات حتى أنها كانت أيامًا تراه ولا يراها..حدثتها عن عزوفه عن الجيران والأصدقاء، ودون مقدمات كأنها ما عادت تستطيع إخفاء الأمر في صدرها رفعت زينب رأسها تنظر إلى عيني أمه قائلة:

ألا يتزوج؟

تلعثمت بعد السؤال لكنها أكملت في هدوء وهي تمسك بحبات الرز بين أصابعها:

أليس له حبيبة؟ أم تراه هجرته إحداهن ومن لحظتها وهو...

قاطعتها الأخرى قائلة:

حبيبته الكلمة والموسيقى خصمها..

لم تعجبها الإجابة فهي لا تصدق أن رجلا مثله لم يحب أو تحبه غيرها.. قالت الأم في هدوء ونبرة وجع لا تخفيها:

قال لي يومًا إن من يكتب عن الحب لا يرضى إلا بحب كالذي يكتب عنه..

أردفت بحسرة تكمل قائلة:

وهل في الحياة حب كحب الخيال والكلمات؟!

سكتت زينب، سكتت رغم دمعة رقصت في عينيها، تتمنى لو تصيح وتخبرها أنها تحب ناير كما يكتب.. بل تحبه أكثر، تحبه حبين، حب ماريا للأفريقي الذي تركت من أجله زوجها وقبلت طردها من السلك الدبلوماسي، وحب زينب التي لا بيت لها أو أهل سواه وسوى كلماته..

ارتجف جسدها حين سمعت الباب يفتح ليطل ناير، رأى الدمعة التي في عينيها، وأرخت أمه عينيها حين سألتها عيناه عن تفسير لهما..

صاح كالأطفال حين رأى أصابع ورق العنب، وارتعدت زينب قائلة:

حفظت المشاهد، أنتهي منه في دقائق وأعود إلى تكملة الرواية..

انسحبت وداد إلى المطبخ، ليبقى جالسًا معها يرى رعشتها واحمرار وجنتيها، يرى رقة ملامحها وصياح أنوثتها لكن الأمر عليه مختلط.. جعلوها أكثر "ماريابة" فما عاد يفهم إن كان تعلقه بها وعودته للبحث عنها زهوًا منه ببطلته أم بحثًا عن زينب الغافية بداخلها..

ربما لأنها طرقت بابهما تحتمي به بعد موت أمها يشعر أن دوره يجب أن يبقى محصورًا في دور أخ أو أب، ربما لأنها نقية ويرى في عينيها حريقا محموما به يريدها أن تهدأ وحين تنتهي من الفيلم وتخرج من "مارياه" يتعرف عليها من جديد وتراه هي أيضًا بعيدًا عن السطور والكلمات..

لا يعلم!

كلما نظر إلى وجهها تمنى لو صاح يطلب منها أن تنظر إليه ويضمها إلى صدره لكن لن يفعل قبل أن يعلم هل يضم زينب أم ماريا.. لن يفعل قبل أن تعود إلى حقيقتها بعيدًا عن روايته!

نفضت كفيها وضحكت تخبره أنها انتهت، نهضت تحمل إناء ورق العنب وأمسك بيدها قائلًا:

بعد العشاء نخرج لتناول الآيس كريم على الكورنيش، هل توافقين؟!

في ذهول نظرت إليه تهز رأسها بالإيجاب وعاد يقول:

بعد غد يبدأ التصوير، لن أراكِ كثيرًا لهذا...

لم تدعه يكمل، قاطعته كأنها تتوسل إليه:

لن تتركني وحدي أبدًا، هي قصتك وأنا...

تمنت لو تقول أنها معه تشتعل وتنطفئ، معه تنبض عروقها وتهدأ لكنها لا تستطيع..

ابتسم وحمل بعض الصحون ومضيا معًا إلى المطبخ..

هي على حق، كيف يتركها؟! كيف يترك قصته وكلماته وجمله دون أن يرى كيف تُحول إلى أجساد ومشاهد وكلمات، وكيف؟

كيف حقًا يتركها وهي مِن صنع أنامله ونزف مشاعره ووليدة مخاض ألمه وأمله!

***

"كم عمرك يا ناير لتخشى قطع طريق كهذا تركض عليه السيارات؟!".

قالتها زينب وركضت على كورنيش المعادي بين السيارات وصراخ عجلاتها وصوت أبواقها يمزق نياط قلبه!

كانت تحمل كأس "الآيس كريم" وتركض وهو على الجانب الآخر على باب "قويدر" الذي اشتريا منه كأسيهما الورقيتين يرقبها في جنون.. حين أصبحت على رصيف المنتصف استدارت إليه ترفع كأسها وتصيح تخبره أن يأتي أو تعود لتمسك بيده..

السيارات تطير وهو لا يعرف التعامل مع الطيران!

لا يخشى الموت لكن لا يريد أبدًا أن تصطدم سيارة بعظامه وتفتتها.. ما زالت الموسيقى لم تكتمل وما زال الفيلم لم يُصوَّر وما زالت رواية أخرى تولد في رأسه ويريد أن يودعها السطور والأوراق..

صاحت تضع أحد قدميها على الأسفلت تخبره أنها ستعود إليه لتمسك بيده لكنه رمى بنفسه على الطريق المجنون، سيارة تبتعد عنه وأخرى يبتعد عنها والثالثة يلعنه سائقها والأخيرة كادت تطير به لكنه استطاع الإفلات منها..

العبث مع الموت شيء رائع حقًا!

قفز إلى الرصيف النحيل الذي يفصل بين الطريقين وصفقت له تشيد بشجاعته..

كاد "الآيس كريم" يسقط من يدها وأسرع يمسك كفها الخاوي قائلًا:

فلنجرب العبور معًا!

عبور كورنيش المعادي مغامرة كبيرة وكل المغامرات ثمنها كمتعتها.. كبير غير محسوب!

وقفا على الرصيف العريض أمام الكورنيش يضحكان رغم كل السباب الذي ما زالا يُقذفان به.. ضحك ناير وضحكت كما لم تضحك منذ يوم مولدها.. أخذت مسحة من كوبها بلسانها وأخذ من كوبه واحدة يقلدها بها.. وقفا أمام النيل ورآها تقفز على السور وتدلي قدميها فوق مياهه وبكفها دقت على حجر السور تطلب منه أن يفعل مثلها.. نظر طويلًا إليها وسألته:

هل أنت خائف؟!

ابتسم يقفز مثلها على السور ليجلسا وظهرهما إلى الكورنيش وقال:

كم عمرك لتفعلي هذه الأمور الصبيانية وتجعليني أفعلها معك خوفًا عليك من مصيرها وحدكِ؟!

لم تقل حرفًا، مالت برأسها على كتفه وبلسانها كانت تمر على كوبها..

دون حرف مد ذراعه حول كتفها وتبادلا كأسيهما ليتذوق كل منهما ما اختاره الآخر مختلطًا بأنفاسه وطعم شفاهه..

رغم ضجيج السيارات خلف ظهريهما، رغم توقف المارة ونظراتهم إلى ذراعه حول ظهرها، ورأسها على كتفه فإنهما غابا في الأضواء المنعكسة على مياه النيل..

وضع كل منهما كوبه الورقي الخاوي إلى جواره وهمس يسألها دون حتى أن يعلم لم يفعل:

كيف ماتت أمك؟!

بإمكانها أن تحكي له ألف قصة مما أعدّتها عن موت أمها قبل أن تطرق بابه تلك الليلة لكن هل تريد أن تكذب عليه في ليلة كهذه وفي مكان كهذا؟!

أغمضت عينيها وقالت:

يومًا ما أحكي لكِ..

أعاد فرد ذراعه خلف كتفها وقال:

أمي تحبك وأنا لن أتخلى عنك.. نحن عائلتك.. لا تخشي شيئًا أبدًا..

لماذا تشعر أن بإمكانها أن تخبره الحقيقة وبإمكانها أن تعاود الركض بين السيارات ألف مرة دون أن تخاف بل بإمكانها أن تقف على هذا السور النحيل وترقص دون أن تخشى السقوط في النهر لكن ليس بإمكانها أبدًا أن تقول كلمة مما تشعر به الآن!

تواجه الموت والخوف وتعجز عن "كلمة"!

إن علمته ألا يخشى الموت حقًا، هل يأتي يوم ويعلمها سيد الكلمات كيف تنطق كلمة تشعر أن فيها روحها وبها ميلادها! نظرت إليه وقالت:

يكفيني من الأرض أن تكون وأمك أهلًا لي فيها وسندًا!!

حين وصلا إلى البيت، تركها على درجات السلم المؤدي إلى بيت أمه ومضى إلى حيث ينام في الشقة السفلية، دخل إلى بيته وقبل أن يغلق الباب رآها تمسك به وترجوه أن تدخل دقيقة..

أفسح لها الطريق، دخلت ورآها تفتح أزرار قميصها، حين أفاق من ذهوله مدَّ ذراعه يمسك بيدها ليمنعها لكنها كانت تشير بأصابعها إلى نهدها الأيسر وقالت:

من أخبرك بأمر شامة صدري إن كانت أمي لم ترها منذ أعوام
ولا أظنها تذكرها أبدًا!!

هز ناير رأسه في جنون وهو يرى الشامة كما رسمها على أوراقه رغم كونها أعلى قليلا، ربما لهذا لم يتخيل صدرها بهذا البهاء والاستدارة!

كانت مغمضة العينين ترتعش من خجلها، مدَّ كفه يغلق عليها قميصها في حنان وحين أتم إغلاق جميع أزراره فتحت عينيها من خلف دمعة حائرة فيها وهمست:

أحبك يا ناير.. أنا أحبك جدًا..

لا يعرف إن كانت هي من ألقت بنفسها على صدره أم هو من جذبها إليه لكنه همس دون وعي:

أنتِ حبيبة العمر يا ماريا!

***

كان يمسح بكفه على قدميها الملفوفتين بغطاء سريرها في حنان بالغ، لا يظنها تذهب معه رغم أنها بالأمس وبعد نقاش طويل وعدته أن تفعل.. يتبارك ناجي بوجود ابنته معه، هو اليوم الأول للتصوير..

اليوم الأول له كمخرج بعد انقطاع أعوام عن الوقوف خلف الكاميرا مكتفيًا بكتابة الشيكات وتمويل المشاريع..

ارتدى ثيابه من الخامسة صباحًا لكن جودي ما زالت نائمة، لقد اختار يوم إجازتها من الجامعة ليكون أول

أيام التصوير..

رفع عينيه إلى وجهها الجميل النائم، لماذا أصبح على وجه حبيبته هذه الغيمة التي لا تنقشع أبدًا!

أخبرته إيمان بقصتها مع عامر، أخبرته بأن الحب جمعهما كما حكى لوالدته، أخبرته أنه لم يفعل شيئًا سوى أنه طلبها للزواج.. ضحك لحظتها وأخبرها أن ابنته عاقلة إلى أبعد حد، ما تحمله من عاطفة لعامر لا يكفي لحياة وزواج..

يعلم أنها ليست الحقيقة، يعلم أنه لم يحاول بشكل جاد أن يتحدث معها، مرة أو مرتين صدته فيهما واكتفى متذرعًا بضيق وقته وانشغالها بقرب تخرجها.. وحده يعلم الحقيقة، حتى إيمان لم يصارحها بها..

ناجي لا يريدها أن تتزوج، يريدها هنا في غرفتها داخل بيته.. يريد أن يرى وجهها كل صباح حتى وإن كانت نائمة، يريد أن يخططا معًا لرحلة الصيف الكبرى ورحلة الكريسماس السنوية.. لا يريد أن يأخذ غريب روحه منه، رغم أنه يحب إيمان ويحسن معاملتها لكن لا يريد أن يكون في حياة ابنته رجل يحتل ذراعيها ويستحل جسدها..

هل يغار على ابنته؟! ربما! هو أيضًا يرى عامر أصغر وأقل من أن يستحق جودي..

ابنته بحاجة إلى ناسك يراها محرابا..

تململت في نومها وفتحت عينيها في تثاقل وابتسم قائلًا:

نسيتِ موعدنا!

اعتدلت في فراشها وضمته إليها دون أن تبتسم وهي تعتذر..

يعلم أن استعدادها للخروج يأخذ وقتًا طويلًا، قبَّلها قبلات كثيرة وأخبرها أنه يجب أن يذهب إلى "اللوكيشن" وبإمكانها إن شاءت أن تلحق به..

حين غادر الغرفة وقف أمام مرآة كبيرة بين غرف النوم، أنيق ووسيم لكن في ملامحه شيئا من خوف..

ممَ الخوف؟! المال ماله وكل من سيلقاهم يعملون لديه..

يخشى الكاميرا، الكاميرا لعوب إن لم تكن أقوى منها خانتك! التقط نفسًا عميقًا من صدره وتوجه نحو سلالم البيت الكبير..

اليوم الأول كليلةِ الزواج الأولى.. كقبلة الحب الأولى يكتبون كل الليالي من بعدها!

حين أصبح على منتصف السلالم سمع صوتها من خلفه تناديه، استدار ليجد زوجته ترتدي ملابس صباحية رقيقة وعلى وجهها مكياج صباحي ناعم تقول:

ألا تنتظرني!

اتسعت ابتسامته وأكملت:

اشتقت إلى حبيبي المخرج..

صعد إليها وضمها إلى صدره يشكرها وقبل أن يأخذا طريقهما إلى السلالم من جديد، أطلت ابنتهما في بنطلون جينز وقميص من القطن الأبيض وشعرها مجموع فوق رأسها تقول:

أنا جاهزة.. لن يفوتني اليوم الأول لناجي المخرج وسأذهب إلى يوم العرض الأول للجمهور وأعود إليك بانطباعاتهم، تاركة لك وحدك ليلة العرض الخاص..

ضمها إليه في حنان وهمست:

لا شيء بيننا يتغير!

في السيارة وفي الطريق إلى موقع التصوير قالت ابنته في بساطة:

أين يوسف؟!

تبادل الزوجان نظرة سريعة أرخت بعدها إيمان رأسها في خجل.. هو المنسي دومًا رغم أنه الحب الكبير!

***

"ستوديوهات الكبير" أرض كبيرة في منتصف طريق السويس تبلغ مساحتها حوالي سبعين فدانا ملك الكبير، بها غرف استراحات لكبار الفنانين وغرف أخرى لصغارهم، فيها حدائق وحمامات سباحة وعدد كبير من البلاتوهات، هي أفضل وأكبر مواقع التصوير في مصر التي يتم تأجيرها منه بحجز مسبق ومبالغ كبيرة..

كل هذا مسخر لفيلمه هذا العام، أكبر مديري التصوير في هذا العمل مع ناجي وهو ما يمثل عنده أهم ركائز العمل ومحاوره.. كل شيء محسوب، ناجي سيكون هنا كل خطوة وكل لقطة.. هو المخرج وأيضًا المنتج..

في حضور منتج العمل أو ممولە الجميع ملتزمون..

"اللوكيشن" صامت هادئ، لا مزاح فيه ولا ألفاظ خارجة..

في غياب صاحب رأس المال الجميع يتلكأ، الممثل يرتدي ثيابه في ساعات، الفنانة تُبدَل حذاءها في ساعات أطول، حتى العمال إما يتبادلون النكات والتعليقات الجارحة وإما ينفخون السجائر ويلتهمون بأعينهم أجساد الفنانات.. صاحب المال سيكون دومًا

هنا لأنه المخرج.. يعلم أن هذا قد يوفر ملايين من ميزانية الفيلم لكن أيضًا بطلة الفيلم ستكون دومًا هنا فهى تتحسس طريقها ولم تصبح نجمة بعد..

حضرت "بيبا" مع ناير في هدوء، أنهت مكياجها الرقيق وصففوا لها شعرها الذي تم تقصيره حتى أذنيها، عاليًا فوق رأسها متدرجًا حتى بداية عنقها الطويل..

جلست في سكون تنتظر ظهور الكبير، وجلس ناير إلى جوارها ينظر حوله في هدوء.. حين ظهر شعرا معًا أنه شخص آخر غير ذاك الذي عرفوه حتى ملابسه تختلف..

قَدَّم إلى ناير زوجته ورمقته جودي تتفحص وجه الذي سرقت كلماته رأس أبيها وقلبه ثم أرخت عينيها حين رأت زينب ترقبها كأنها تخشى عليه منها.. واضح أنها تحتمي به وتغار عليه!

في صوت هادر قال الكبير مخاطبًا مدير التصوير:

سنعمل بنظام الديكوباج..

ابتسمت إيمان وهي ترى الدهشة على وجه ابنتها وناير وبطلته..

استدارت إلى حيث يجلسون خلفها أمام المونيتورات وأخبرتهم أن الديكوباج يعني أن يرسم المخرج هو ومدير التصوير والإضاءة كل مشهد على الورق.. مَنْ

وأين يقف كل من في المشهد.. كم الإضاءة ودرجاتها وزوايا الكاميرا ونوع اللقطة..

كانت زينب صامتة ورغم جميع "بروفات المكتب" التي سبق إجراؤها فإنها كانت تبدو خائفة لا تفارق عينيها وجه ناير.. هي لم تدرس في معهد تمثيل ولا دراية لها بأي شيء مما يقولون ولا تفهم "الديبكوفاج" الذي تتحدث عنه إيمان، بل لا يهمها ما تقوله ألا مخرجا الآن عاد يعمل بهذه الطريقة، يهمها فقط أمران:

ألا تخذل ناير، وأن تفهم لماذا اختاروا مشهد زواجها ليبدأوا به!

كل ما يشغل رأسها هو كيف ترتدي قميصًا عاريًا وتلقي بنفسها بين ذراعي زوجها وناير هنا يرى كل هذا..

لا تمانع! بل تعلم أن هناك مشاهد أكثر حرارة وجميعها كتبها ناير بأنامله لكن لم أصر الكبير على أن تبدأ بهذا المشهد وهل بإمكانها أن تطلب منه إرجاءه إلى يوم آخر؟!

تم استدعاؤها لتبديل ثيابها لاقتراب التصوير ونهضت تنظر إلى ناير كأنها تستغيث به وأرخى رأسه مبتسمًا في هدوء..

حين أصبح كل شيء جاهزا، رآها على شاشة المونيتور ترتدي قميصًا عاريًا وكل طاقم التصوير حولها..

لا يعلم لماذا دق قلبه، ماريا بعد لحظات ترتمي بين ذراعي زوجها للمرة الأولى، لكن هو لا يريد زينب أن تقف بهذا القميص العاري حيث يمسك ناجي بكتفها ليديرها حيث يجب أن تقف أو حيث يصلح مدير التصوير من شأن رأسها ولا حيث ينحني عمال البلاتوه تحت ساقيها العاريتين ليلتقطوا ورقة على الأرض سقطت..

أقبل الكبير ليجلس على مقعد المخرج وصاح:

دوَّر..

حبس ناير أنفاسه حين أصبح المكان كألا بشرا عليه أو جانًّا..

كان ينظر إلى الشاشات التي أمامهم ويضع السماعات على أذنيه كما يفعل ناجي وزوجته وابنته ليستمعا إلى الحوار..

رأى "محمد صفوان" الذي يلعب دوره "أحمد شادي" يعانقها، رآها كما كتب تغمض عينيها على صدره.. رأى ذراعيه تتحسسان ظهرها وتخلعان عنها الروب الذي ترتديه، انتقل بعينيه إلى ناجي الذي كان ينظر إلى الشاشات في هدوء.. سار صفوان بها خطوات إلى الفراش الموجود في البلاتوه، سقط بها يقبلها قبلات صغيرة..

كل هذا مكتوب! كل هذا رآه ناير رأي العين وشعر به لكنه الآن يختلف.. حين اقترب من جسدها في الفراش دفعت جسده عنها بكفها في رفق رغم أن عينيها مغمضتان.. تقاومه رغم استسلامها وهذا لم يكن مكتوبًا..

لماذا لا يعترض ناجي؟ ناير لا يعلم لكن ربما كان هذا أفضل لينتهي المشهد ويرفعوا عن صدره هذه الصخرة التي لا يعلم متى أو من أين جاءت..

رآها مغمضة العينين ورأى دموعًا تنساب من طرفي عينيها رغم ذراعيها اللتين تضمانه إليها.. دموعها ما عادت صامتة بل علا صوت بكائها وهنا صاح ناجي "Cut"..

قالها في صوت هادر لينهض بعدها ويدخل بسرعة إلى البلاتوه.. ركض ناير خلفه ليراه يقتحم عليها البلاتوه، كان صفوان يهدئها ويخبرها أنها رهبة المشهد الأول.. كانت ترتجف وتبكي وناير ينظر إليها في حيرة، اقترب ناجي منها وزاد نحيبها ترجوه أن تصور أي مشهد آخر عدا هذا..

قالت وهي تنتحب "نُؤخره قليلًا.. أرجوك"!

كانت تبحث بعينيها عن شيء آخر تضعه فوق جسدها شبه العاري وأمسك ناجي بذراعها قائلًا:

إن اختار الممثل ما يقول أو متى يقول لا يعمل مع الكبير
ولا يكون ما يفعله كبيرًا..

كانت تبكي وعاد صوته يهدر:

تعلمين كيف تستقبل ماريا لمسات زوجها.. تعلمين جيدًا أنها هي أيضًا تشتهيه.. أتخجلين لأنه يراكِ؟

سكتت دموعها حين قال كلماته تلك مشيرًا إلى ناير وعاد يهدر:

تخجلين لأن صفوان يتحسس جسدك؟! أريدك إن شعرتِ بالخجل أن تتذكري أمرين: خجلك ثمنه الفشل، ولا فشل وأنا هنا! والأمر الآخر أننا سنكون دومًا هنا..

دومًا هناك صفوان ومدير تصوير وعمال وإن اختلفت الوجوه والأسماء، دوما سيرون جسدك ويسمعون صوتك في لحظات العشق والحزن والشهوة.. هل تعلمين ما الحل؟!

كانت تلتقط أنفاسها وهي تنظر إليه وأكمل:

أن تنسي أننا هنا، لا أحد هنا سواكِ.. عشر دقائق ونعيد التصوير.. إن بقيت تذكرين ناير وتذكرينني تخرجين دون عودة!

قالها وأمسك بيد ناير وخرج هو وكل من معه.. تركوها وحدها، حتى شاشات المونيتور أغلقوها..

حاولت إيمان أن تتحدث معه، حاولت جودي أن تخبره أنه قسى عليها، حاول ناير أن يغادر لكن لا أحد منهم استطاع أن يُغيّر شيئًا..

أدرك ناير لماذا اختار الكبير هذا المشهد بداية لها.. أراد أن يمحو كبرياءها بل يسحقه!

قبل أن تنتهي العشر دقائق رأوها تخرج من البلاتوه وتنظر إليهم جميعًا تقول في هدوء:

أنا جاهزة!

هي أيضًا أدركت.. أدركت معنى أن تكون ممثلة.. ليس أبدًا أن تنسى أنهم هنا كما قال الكبير، المفتاح أن تنسى أنها هي هنا..

زينب ما عادت هنا.. ماريا لن تخجل من صفوان إن داعب جسدها، ولن تستنكف أن يقبلها الفنان الأفريقي الذي تعاقدوا معه، أو أن تستلقي على عشب أفريقيا بين ذراعيه شبه عارية.. لن تخجل لأنها لن تكون هنا!

زينب ماتت وولدت بيبا!

***

في طريق عودتهما وبعد اثنتي عشرة ساعة قضياها في التصوير كانا منهكين، على وجه كل منهما كانت هناك آثار بقايا ما عرفاه واكتشفاه في نفسهما وعنهما!

مدناير يده وأمسك بكفها في إشفاق وقال مواسيًا:

بعد أن رأيتك أثق أن "أم كلثوم" أخرى ستولد بعد أن ظننا زمنًا أنها معجزة لن تتكرر!

نظرت إليه في سكون وأكمل:

لم أظن أبدًا أن سعاد حسني تتكرر أو فاتن أو كل من رحلوا.. اليوم ولدت فنانة أكبر..

همست في خجل:

أشعر أن...

هناك كلمات نخجل من التصريح بها، رفع كفها إلى شفتيه ووضع قبلة صغيرة قائلًا:

أعلم ما تفكرين به! أنا كَتبتُ في الرواية عن الظلم والعنصرية، عن الحب والجنس ولا يعني هذا أني عشتهم أو عندي بهم هوس.. هو هذا دور الفنان.. لا تخجلي..

رغم صمتها كانت تتمنى لو تسأله إن كان احترامه لها أصبح أقل بعد أن ضمها رجل غريب ووضع على

جسدها قُبلًا وأسمعها عبارات.. تمنت لو تفعل لكن كيف تستطيع، هزت رأسها كأنها تقنع نفسها بما قال..

لا فرق بينهما، هو يمثل على الورق وهي تمثل أمام الكاميرا.. ابتسمت كأنها صَدَّقت وابتسم كأنه لا يعنيه..

رمى بعينيه إلى سور الكورنيش حيث جلسا منذ أيام بعد لعبة الموت تلك..

هل يعني حقًا ما قاله لها؟ هل زينب تتساوى معه؟! أبدًا..

هو يعتصر أرقى ما فيه.. وهي تعتصر أرخص ما فيها..

الفرق كبير يا زينب!

***

أنهت حمامها الدافئ ووقفت أمام مرآتها تنفض شعرها المبتل في سكون.. كانت زينب رائعة، لم تظن أبدًا أنها ستفعل كل ما فعلته بعد ما فعله معها الكبير.. ظنت جودي أنها ستنهار لكنها فاجأتهم جميعًا بأدائها.. مارد التهمهم جميعًا كما قال السمنهوري حين حضر جزءا من التصوير.. استدارت ومضت نحو فراشها، لديها جامعة في الصباح الباكر..

حين ألقت بنفسها على وسادتها وحين لمست يدها مفتاح الضوء تجمدت أطرافها عندما ارتطمت أناملها

بهديته.. لماذا تتركها إلى جوارها؟! لماذا لا تقذف بها في قلب قمامتها أو تطوح بها من نافذتها.. اعتدلت وجلست وأمسكت بالعلبة الصغيرة التي أرسلها لها.. فتحتها ووجدت المظروف الصغير، هل تحتاج حقًا أن تفتحه بعد أن حفظت الحروف وارتسمت الكلمات نقشًا في رأسها وصدرها؟!

مؤلمة الهدايا.. موجعة كل هدية تبقى إن رحل مهديها..

حقًا لا شيء كهدية من حبيب مضى، لها قسوة خنجر ونحيب أم ثكلى..

تحسست هديته بأصابعها وأغمضت عينيها لتنزلق على وسادتها من جديد.. سافر عامر وبقي شوقها له حاضرًا يأكل ضلوعها..

ما زالت قوية، ما زالت مؤمنة بأن ما فعلته هو الصواب لكن كيف تُخرس احتياجها له، بحثها عنه وإحساسها بأنفاسه حولها كل ليلة كليلة كان هنا؟!

حين استسلمت "ماريا" لزوجها في تلك اللقطات التي صورها أبوها تذكرته، حين ارتوت منه وتحسست وجهه بكفيها بعد أن نام تذكرته وحين صورت لقطة إعدادها لإفطاره تمنت لو كانت ليلتها وكان هو زوجها..

مالت على أذني والدها تسأله لماذا يجب أن تعد العروس الإفطار؟ ولماذا يجب أن تكون هي الخائفة

المترددة وهو الشجاع القوي الذي يقود لحظات العشق والجنس؟!

كان مشغولًا بما يفعل وأشار لها بيده إلى ناير يخبرها أن تسأله لأنه من كتب.. نظرت بطرف عينيها إليه في ألم، لن يفهم حرفًا مما تقول بعد أن رأت رعب زينب وخوفها منه..

كل الرجال سواء وكل النساء في قافلة الخنوع جياد!

يومًا ما تكتب رواية أو أغنية وربما تخرج فيلمًا البطولة والبداية والنهاية فيه امرأة! البطولة لمستحقيها..

شوقها إليه، احتياجها وحرمانها منه سيجعلان منها امرأة أقوى.. ستحصل على شهادتها منتصف هذا العام وبعدها تغادر هذه الأرض وتغادر هذا البيت..

الله سبحانه وتعالى طلب من الإنسان أن يضرب في الأرض ويهرب من بقاع الظلم والعبودية ولا ظلم كظلم النساء وإن انحنى رجال العرب جميعهم لتحيتهن أو فتحوا لهن الأبواب وقدموا لهن الهدايا..

الظلم في الرأس، العبودية في فكر معطوب وأجيال من العنصرية ارتوت..

جودي الكبير رغم جرح صدرها الغائر بنفسها منهم أجمعين ستنجو!

***

أغلقت الحقيبة في هدوء وجلست أمام النافذة الصغيرة في الغرفة.. خلف زجاجها شجرة ياسمين امتدت فروعها من أمام بيته وحتى شرفتها.. ستشتاق إليها!

لا تصدق زينب أنها حزينة لأنها تغيب عن بيت البدر أسبوعين
ولا تتذكر بيت الفيوم الذي ولدت وعاشت فيه أعوام عمرها.. في الفجر تسافر مع فريق الفيلم إلى باريس لتصوير مشاهد "شهر العسل" مع زوجها.. تشعر أن صفوان حقًا زوجها بل كلما التقت عيناها بعيني ناير تشعر بالذنب كأنها خائنة.. ما الذي يحدث؟ لا تفهم..

توسلت إلى ناير أن يسافر معهم لكنه أخبرها ألا وقت لديه لانشغاله بالرواية ومناقشات عديدة ارتبط بها لكن وحدها تعلم الحقيقة.. لم يوجه له أحد الدعوة للسفر، حين طلبت من الكبير على استحياء أن يفعل، أخبرها في هدوء أن السيناريست لا يسافر في التصوير الخارجي، وإن أراد أن يفعل فعليه أن يقوم بالإجراءات جميعها متحملًا جميع النفقات والمصاريف..

لقد بدأت تعي هذا العالم جيدًا، أنت مُرحب بك ومدلل حتى يأخذوا منك ما يريدون، بعدها وحتى عمل آخر هم لا حاجة لهم بك، حتى المقعد الصغير الذي تشغله في الجلوس معهم يؤمنون أن سواك به أولى..

أسبوعان دون ناير؟! شهور طويلة دون أمها، دون بيتها ومدرستها..

الفارق كبير.. ماريا لا أم لها ولا بيت ولا مدرسة.. هل سيكون سهلًا حقًا أن تعود زينب بعد كلمة النهاية أو كما أخبروها بعد حفل "الفركش"!

تكورت على السرير الصغير جوار حقيبة سفرها وضمت ركبتيها بذراعيها إلى صدرها.. لا تريد أن يمر يوم دونه.. متى أحبته إلى هذا الحد؟ وهل حقًا هو يحبها؟ ومن يحب؟ زينب أم مارياه؟!

غفت عيناها لحظات لتفتحهما لتجد وداد تقف أمامها تربت على ساقيها في حنان وقالت:

أعد العشاء.. لا تنامي..

نهضت عن فراشها وضمتها إلى صدرها، بكت تخبرها أنها لا تريد السفر، ربتت الكبيرة على ظهرها في حنان، تعلم أنها عن فراق ناير تتحدث وتعلم أنها وولدها يشعران بأن سفره أو على الأقل دعوته إلى السفر كانت واجبة لكن هم جميعًا يكتشفون ما وراء أسوار هذا العالم الذي يبدو لمن يراه حبا وفنا، وهو ساحة عراك خناجرها دومًا مسمومة وأنصال أسلحتها لا مبدأ لها أو قانون..

في رجاء أخبرتها أنها لن تحادث ناير بل تذهب لتحضره بنفسها، ابتسمت الأم ابتسامة صغيرة بالموافقة..

ركضت زينب على السلالم وحين أصبحت على بابه، وجدت الباب شبه مفتوح.. كان يعزف على جيتاره في هدوء، غائبًا ككل مرة، على وجهه مسحة حزن.. أتراها لغيابها؟

اقتربت منه حتى تسربت رائحتها وحرارة جسدها إلى أنفاسه، لماذا لا يعترف أنه يحبها؟

عدم دعوته إلى السفر ليس ذنبها! اهتمامهم الأكبر بها ليس حبًا فيها.. حين تنتهي ماريا من دورها تصبح مثله إلا إن شاءوا التعامل معها أو معه..

ليعترف هي الآن أكثر منه أهمية.. هي الآن تتحكم في مصير ملايين الكبير وفي النهاية هي من صنع حروفه وكلماته فعلام يعاقبها؟!

فتح عينيه ونظر إليها تخفض عينيها وتنظر إليه، رأى دمعة تسقط من زاوية عينيها وهمس في صدق:

أنتِ صغيرة، أشفق عليك كثيرًا..

انثنت على ركبتيها أسفل ركبتيه ونظرت إليه ليكمل:

أشفق عليك من هذا التشتت، ما عدت أنا ولا عدتِ أنتِ تعلمين أيهما التي نراها..

تعلم أن ناير على حق، تعلم أنها ترتدي ثيابا غير ثيابها، تتحدث بكلماته، حتى لون شعرها وطوله لا علاقة لهما بحقيقتها..

بقبضة يدها دقت على صدرها وقالت:

لا علاقة لهذا بالعمر! لا علاقة لهذا بالأسماء، هذا الشيء لا يحمل إلا شخصًا واحدًا..

صغيرة جدًا، لا تدرك أن هذا الشيء الذي تدق عليه يتغير، يتغير كثيرًا وإلا ما نسيت أمها ولا ارتضت عناق وتقبيل صفوان وكل ما هو آت..

هذا الشيء الذي تدقين عليه يا ماريا هو سر الشقاء الأبدي!

حاول أن ينهض بها ويتجه معها إلى الدور العلوي لكنها التصقت به أكثر، هي خائفة.. خائفة من تحولها السريع، خائفة من انسلاخها عن ماضيها، تحتمي به وربما كان هو سر شقائها، مرة لأنه كتبها ومرة لأنه هو أيضًا يخشاها!

لماذا لا يضمها كما يريد؟! لماذا لا يُقبّلها.. تعب كثيرًا في وصفها وكتابتها وانتظارها؟ لماذا نبكي إن لم تتحقق أحلامنا ونبكي أكثر إن رأيناها واقعًا أمامنا؟!

ليست غريمه؟ هي منه!

ما تأخذه من اهتمام وصور وملابس وأجر من حقها وليس مقتطعًا منه..

هل يظنها طفلة؟ أبدًا هي أنثى كاملة.. متى كان النضج أعوامًا وأرقامًا؟!

كانت ملتصقة به يشعر بشامة صدرها على قلبه، حتى إن كانت نزوة.. حتى إن كانت جنون فنان وتوهان ممثل..

حتى الأخطاء يجب أن تكتمل أحيانًا!

أبعدها عن صدره ونظر إلى عينيها كأنه يأخذ قرارًا وارتعشت كأنها تُوقِّع له بالموافقة.. أغمضت عينيها وما زالت لا تعلم من هي لكن كل الأدوار التي لعبتها في المدرسة وفي سوق الفيوم وأمام كاميرا الكبير..

كل الأدوار هو فيها!

يحزنها أن صفوان قَبَّلها قبله لكن فلتقبله هي قبل أن يفعل.. حين اقتربت بشفاهها كان ينتظرها.. رغم كل شيء.. قبلته تختلف لأن شعورها بها هي يختلف..

قبلة طويلة هذيا خلالها بكلمات ووعود.. أسئلة واعترافات، لم يسمعها حين أخبرته أن أمها لم تمت، ولم تسمعه حين أخبرها أنه

لا يريدها أن تسافر.. لم يسمع أحدهما سوى صوت ذاك الشيء الذي دقت عليه في وسط صدرها..

أفاقا معًا على صوت وداد ليبتعدا وينظرا إليها في خجل، نظرت إليهما نظرة لوم وقالت:

إن كنت تريدها تزوجها لكن حتى تفعل هي أمانة وضيفة إكرامها هو حمايتها!

***

"هي معتلة عقليًا، خذها وعد من حيث أتيتم يا رجل".

قالها وهو ينظر إلى حميدة في أسف ممزوج بالغيظ..

عاد "عطية" يتوسل إليه أن يدعهما يعبران البوابة، ساعة واحدة ويعودان، في يده ورقة عليها اسم المحطة التي رأت "أبلة مها" زينب عليها.. ساعة واحدة يسألان فيها عن عنوانها ويعودان..

نفد صبر الرجل وصاح يخبره أن مدينة الإنتاج الإعلامي أرض لا يسمح بالدخول إليها إلا لمن معهم تصريح، فيها عشرات الاستديوهات، لا أحد فيها يعرف أحدا، ولا أحد إن كان يعرف مصرح له بمنح اسم أو عنوان..

نهضت حميدة من على الرصيف تمسح دموعها وذهبت إليه تقول:

إذن أحضر لي الطيب..

كانت تبكي تقسم له أنه وعدها بأن يجد ابنتها..

نظر إليها في ذهول، اعتاد أن يقف أمثالها على البوابات طلبًا للقاء مذيع مشهور أو رئيس محطة لكن أن تهذي امرأة كهذه بأسماء
لا يفهمها..

أي طيب وأي كبير في مدينة كل من فيها إما كبير وإما يدعي أنه طيب!

كانت تبكي وعطية إلى جوارها يعدها أن يدخلا ويقسم لها أنه لن يمضي اليوم دون أن يصلا إليهم جميعًا..

دق الرجل كفا بكف وأمسك بيده يخبره أن صبره بدأ ينفد وأن من معه معتوهة ولا يحتملون المعاتيه طويلًا في هذا المكان، سمعته حميدة وأرخت عينيها في انكسار ليرفع عطية صوته يخبره أن ما قاله عن زوجته مرفوض ومهين..

رأى في عينيها أطياف امتنان لدفاعه عنها فرفع صوته أكثر وحين سمع صوته عاليًا أعجبه أن يكتشف أن لمن مثله صوتًا وأن لصوته درجات..

صاح يهذي بصرخات كبيرة، هم ليسوا لصوصا ولا متسولين، لهم ابنة خطفت ولهم الحق في دخول المكان

والبحث عمن يستضيفون مخطوفة لها أم تبكي وتبحث عنها..

كان صوته كصوت كلبه والكلاب حين تعوي يُباح في أعرافهم ضربها!

دقائق قليلة ووجد حولهما سيارة نجدة، قذفوا به وبها إلى قلبها وانطلقت بهما إلى قسم ثالث هرم سيتي.. سكتت حميدة وسكت صياحه دفاعًا عنها، نسيت ابنتها لدقائق وتذكرت دجاجاتها وتذكر كلبه وعشته.. هل يعودان إليها؟ ربما لا يعودان؟ كانت واجمة تتألم من ذراعها الذي جذبوها منه إلى داخل السيارة وكان خجلًا خائفًا مما ينتظرهما.. إن ضربوها لن يستطيع أن يدافع عنها وإن ضربوه سقط من عينيها..

لعن الله تلك الزينب..

لماذا تبحث أم عن ابنة أطعمتها وسقتها فطردتها وهربت منها؟! إن كانت هي حقًا من رأوها على شاشة التليفزيون فهي حتمًا لا تريدهما ولا تريد أن تراهما وإن لم تكن أصبحا مجنونين رسميًا وفي أوراق الحكومة..

ألقى رأسه بين كفيه في ذعر.. عطية أصبح خصمًا للحكومة ومن أجل مراهقة فاشلة حمقاء!

نظر إلى حميدة في ذهول كأنه يفيق من سرداب أسود غاب فيه زمنًا.. هل تستحق ما فعله وما سيفعل بها

وبه؟!

***

في التاسعة مساء تم الإفراج عنهما.. خرجا بعد أن وقع عطية وبصمت حميدة بأصابعها تعهدًا بعدم الوقوف على أبواب المدينة.. حاولت أن تبكي، حاول أن يشرح لكن لم يهتم لهما أحد..

توسل أم، اختفاء ابنة، هي أمور لا يهتم بها أحد!

وضع عطية ذراعه على كتفها في حنان، لم يمسها أحد بسوء رغم الكلمات القاسية التي صبوها على رأسهما صبًا.. رمت برأسها المتعب على كتفه في السيارة التي طارت على أسفلت الطريق المؤدي إلى الفيوم.. أغمضت عينيها تستعيد كل ما حدث، رغم أنها أمها فإنها ما زالت لا تصدق أن تلك الشابة التي أرتها إياها "أبلة مها" هي ابنتها.. ملامحها، صوتها.. ربما لكن كيف؟!

أصبح الوقوف على أبواب هذه المدينة محرمًا عليهما..

طيب هو عطية، يبدو أنها أحسنت صنعًا حين تزوجته.. تفرض عليه أن يستحم كل يوم حتى ما بات أحد يعرفه، يفرض عليها أن يذهب معها إلى سوق الثلاثاء والجمعة حتى يعرف بأمر زواجهما الجميع ويعود ليحمل عنها أقفاصها في نهاية اليوم.. انتقل للحياة معها هو وكلبه ورغم هذا لا يترك عشته ولا انقطع ليلة

عن المبيت فيها كحراسة لموقع البناء.. مع بزوغ الفجر يأتي وبعد أن يتأكد من نومها كل ليلة يصطحب كلبه ويذهب..

أحسنت صنعًا أنها تزوجته، أن تجد شخصًا تحادثه وتشعر بإنسان يتحرك معك في المساحة التي تقطنها أفضل كثيرًا من أن تصحو وتنام على ألف سؤال تجلد بها نفسك وتمرغ فيها كرامتك..

عطية ليس سيئًا بل إن كان سيئًا تبقى الوحدة والضياع أسوأ كثيرًا! خذلتها ابنتها كما فعل أبوها وفعلت أمه!

ربما كانت حقًا لا تعاشر! حتى نساء السوق ما بقيت لها واحدة منهن.. ترى متى يرحل عطية عنها هو الآخر!

لن تنسى ابنتها رغم أنها تعلم أنها لن تستطيع حتى المرور من أمام بوابة ما يدعونه المدينة.. أخبرها زوجها أنه سيشتري لهم "تليفزيونا"، ستتعلم كيف تجد القناة التي تحمل اسمها على الورقة، ستبحث في كل الوجوه التي تظهر عن وجه ابنة عاقة رغم عقوقها وقسوتها فإن غيابها موت..

حميدة لا تستسلم للموت أبدًا ولن تفعل!

***

نظر إلى الحاضرين نظرة خاطفة ثم ابتسم ابتسامة صغيرة، زاد عدد جمهور من يناقشون روايته في المكتبات والأروقة الثقافية.. يفتقد وجودها بل يفتقد أن ترى نجاحه يكبر كل يوم..

لماذا يشعر أن بداخله شرقيا عنيدا يريد أن يثبت لها دومًا أن جمهوره أكبر وأنه أكبر موهبة وأهم عطاء منها..

زينب لم يصبح لها جمهور بعد.. من يتابعونها في برامج الدعاية قد ينقلبون عليها بعد رؤيتها على الشاشة.. قلب شفتيه كأنه يسخر من نفسه.. هي جبارة أمام الكاميرا، قصته أيضًا رائعة، والكبير يقود العمل كأنه يقود حملة انتخابية لرئيس أمريكا..

العمل لن يسقط، سيصبح جمهورها أضعاف العشرات الذين يجلسون أمامه..

أشاروا له بالبدء وانطلق ناير يتحدث عن روايته وأبطالها وظروف كتابتها، بطرف عينيه رأى شاشة هاتفه تنير باسمها..

دون وعي امتدت يده تمسك بالهاتف الصغير لكنه قَلَبه على الجهة الأخرى.. احترام هذا الجمهور أكبر من ضعفه أمام خوفه عليها، من المفترض أنها تصور الآن

فما الذي يجعلها تطلبه؟! أيًا كان ما يحدث هو عنها بعيد..

حين بدأت المناقشات كان جُلُّها عن الفيلم القادم، عن البطلة المجهولة.. هل يظن الفيلم ينجح؟ هل يثق في البطلة؟ هل عودة الكبير إلى الإخراج بعد هذه الأعوام مع بطلة لم تدرس التمثيل أمر حقًا محسوب؟!

كان يتحدث ويجيب ويدافع لكن بداخله مرارة كبيرة، أليس الأولى هو لغته، بناء شخصياته، هو القصة؟!

تجاوز عن كل شيء واستعاد قدرته على السيطرة على مجهوده فقط حين أعادها على نفسه..

"فيلم الكبير وأداء شادي وجميع النجوم وكاميرا المصور وإضاءته.. كل الأشياء ما كانت لتكون إلا بكلماته وقصته وماريته وحكايتها!".

***

هو الأسبوع الثاني من شهر العسل لكن عسل أحلام ماريا تحول إلى صبار كوابيس مراره بدأ يطفو على ملامحها..

صفوان لا يخلع قناع دبلوماسيته إلا في الفراش، لا يترك لحظة تمر دون أن يوجه لها ملاحظات وتوجيهات، ابتسامتها لا يجب أن تغيب، صوتها لا يعلو، كلماتها دومًا

لا معلومة فيها وإن كان لا بد من معلومة فلتحمل أكثر من معنى..

أخبرته أنه هو من يعمل في السلك الدبلوماسي، فأخبرها أنها تُكْمله وحتى جواز سفرها أصبح أحمر اللون.. كل شيء بدأ يتدخل في اختياره، لون شعرها، طول أثوابها والمطاعم التي يرتادانها.. محموم هو بعمله، أطاحت حممه بكل أحلامها، في الفراش فقط يصبح رجلًا آخر لكنها لم تستطع أن تحب أيهما..

كانا يتجولان في "الشانزليزيه" حيث وقفت ماريا تريد شراء ساندوتش صغير إلا أن صفوان أمسك بيدها بابتسامة مبتعدًا بها عن العربة متجهًا بها إلى أحد المطاعم الأنيقة..

حين رأى سحابة وجهها بدأ يشرح لكنها بالابتسامة التي علمها كيف ترسمها أخبرته أنها تعتذر وأنها تعلم ما سيخبرها به عن سوء منظرها حين تشتري ساندوتش من عربة في الشارع رغم كونها زوجة رجل مثله..

كان يبتسم وهو يسمعها تشرح بدقة ما كان فعلًا سيقوله، حين انتهت وضع سكينه في الصحن ونظر إليها قائلًا:

رغم أن كل كلمة قلتها صحيحة ورغم أني لا أعلم يا حبيبتي كيف نسيت كل هذا من أجل رائحة أصبع

مقانق رخيص إلا أني أرجوكِ أن تسمحي لي أن أخبركِ أنه من غير اللائق أبدًا أن تخبريني أنك تعرفين ما سأقول!

ابتلعت العروس الكلمات، ابتسمت ومدت سكينها تحفر طريقًا في قطعة "الفيليه مينيو" التي في صحنها..

تكره أن تأكل اللحم نصف ناضج، تكره أن تشعر أنها تبتلعه مصحوبًا بدمه الأحمر لكن كما قال صفوان:

"الحمقى والجهلاء فقط يأكلون لحما مكتمل النضج"!

كانت الكاميرا على قطعة اللحم التي يسيل منها الدم وعلى عينيها التي تموت ألمًا حين تضع منها في فمها رغم شعورها أنها أصبحت مثلها، رغم الدمعة التي ترقص في عينيها حين أدركت ما أدركته في الأسبوع الثاني لزواجها فإنها يجب أن تبتسم..

كان أداؤها رائعًا، شعر الكبير وكل من كانوا يصورون المشهد في المطعم الفرنسي الأنيق أن رائحة حريق تخرج من أنفاسها وصوت مشاعر تتحطم في ابتسامتها، استغاثة قوية كبيرة تصل عنان السماء تخرج مع السكين على لحم أحلامها وتلقائيتها الملقاة في صحن مطعم أنيق أمام زوج وسيم له مكانة مرموقة..

صاح الكبير يقول "Cut" أرخت زينب رأسها ودموعها تسقط في ألم وحسرة.. سمعته بعدها يصيح "شابو..

شابو" نظرت إليهم في ذعر، نهضت لتخرج خارج المطعم وتنظر إلى الشارع في ضياع..

كان تمثيلًا إذن!

هي ليست ماريا، صفوان ليس زوجها ولا هي في شهر عسل، لن تذهب بعد شهور معه إلى أحد بلاد أفريقيا لتقضي معه فيها أربعة أعوام، لِمَ تشعر إذن بهذا الانكسار؟ لم يدق قلبها حزنًا وضعفًا؟!

ليست ماريا.. هي زينب..

تائهة لا تعلم من هي، تحسست جيب معطفها وأخرجت هاتفها.. هو من كتب ماريا، هو من تشعر معه أنها تتنفس.. ناير لا يجيب.. لا يحادثها إلا إن حادثته..

لكن وحده من يعلم لأنه وحده من وصفها دون أن يراها، وحده من وضع بطاقة عنوانه في كفها، وحده يعلم بأمر شامة صدرها.. لا أحد سواه بإمكانه أن يساعدها..

إما أن يعيدها إلى زينب وإما يحررها من ماريا..

لماذا لا يرد؟ لماذا لا يشعر أنها تكاد تصرخ في هذا البلد الغريب وتملأ سماءها وأرضها صياحًا؟ لا يجيبها لأنه أضعف من الإجابة وأوراقه أقوى من رغبته في إنقاذها أو السقوط في حبها!

هو أيضًا مثلها لا يعلم من هي!

أرخت ذراعها إلى جوار جسدها في ألم وعادت تنظر إلى شوارع باريس في حزن، سمعت صوت الكبير يقف أمامها قائلًا:

ستصنعين مجدًا كبيرًا..

رأى دموعها، يعلم حيرتها، هي ليست أبدًا كغيرها، لهذا ستدفع ثمنًا يختلف..

أمسك بذراعها في حزم وقال:

هل تظنين أن ذاك الكتاب المقلوب وحده أخبرني أن بك ماردا لا يعلم إلا الله قدر موهبته؟

نظرت إليه وأكمل وهو يدق على صدره قائلًا:

هناك أناس قلائل خلقهم الله ليسوا كسواهم، لديهم موهبة تختلف، يشعر أحدهم بالآخر وإن كان في ذات حقله نَفَر منه وإن كان يُكمله التصق به.. هل تفهمين!

أكمل يغالب دمعاته وما زال يدق على قلبه:

سجنتْ المخرج هنا زمنًا، حين رأيتك أخبرني هذا أنك ولدت بمعاناتك التي يسميها الأطياب فنًا..

أنا وأنت ونابر لسنا كغيرنا..

كل ما يحزنني أنكِ دخلت الدائرة التي لا خروج منها وأنتِ بعد طفلة..

كانت تبكي وفي حنان قال:

ماريا، انظري إليَّ..

في جنون بكت وقالت:

لست ماريا..

في ذات الحزم والقوة وما زال ممسكًا بذراعها أضاف:

لن تتخلصي منها إلا بأخرى..

كانت تنظر في ذهول وأكمل في صدق:

حتى بعد انتهائك من التصوير.. تلتصقين بها أكثر عندما تنجح، عندما تجدين الجميع يناديك باسمها.. تلتصقين بها أكثر، فقط عندما توقعين عقودا أخرى تنسينها..

في ألم وإشفاق أكمل يقول وهي بين قبضته:

ما بكِ ليس فنًا هو إدمان وألم إن فتحتِ له الباب وأطل برأسه مرة لا سيطرة لك عليه أبد الدهر..

الرجوع مستحيل والتراجع هو الموت الكبير!

كانت تنظر إليه في ذهول، يبكي مثلها كأنه عن نفسه لا عنها يتحدث..

أرخى عينيه وقال:

الأبواب فُتحت، فُتحت الأبواب يا صغيرتي!

***

حين عادت كانت تختلف، حين أرخت عينيها على مقعد الطائرة العائدة من باريس تنهدت في ارتياح.. أصبحت ثقتها بنفسها أكبر، شعورها بأهميتها أكبر.. لم تعجبها باريس.. ربما لا تعلم فهي لم تنظر إلى شوارعها أو نهرها أو مطاعمها.. كل ما كانت تنظر إليه هو واجهات دكاكينها ومحلاتها..

همس الكبير أنه سيمنحها مبلغًا بعيدًا عن أجرها تتسوق به، لم تخجل كعادتها منه وأخبرته أنها تعلم أن ما منحها من أجر هو ثمن أقل مما تستحق.. تعلمت أن تصبح مثلهم وتتحدث عن الأجور دون خجل..

ما اشترت لنفسها شيئا، كل ما بحثت عنه هدية لناير وأخرى إلى أمه.. تحسست بقدميها الحقيبة الصغيرة التي اصطحبتها معها على الطائرة، هداياها لهما ترقد هنا.. كأنها ملكت العالم حين اشترت له هديته..

أصبحت عيون فريق العمل أكثر جرأة معها وأصبحت أكثر قدرة على رسم الاستعلاء وإبداء الصد.. أصبحت تخلع ملابسها وتلقيها إلى الستايلست دون حرج وتعلن أن اللون لا يعجبها والمكياج لا يريحها.. كل شيء فيها يختلف وهي سعيدة باختلافه عدا شيء واحد باق، شوقها إلى ناير وشعورها بأنها أمامه أصغر، معه أضعف..

فتحت عينيها ونظرت من نافذة الطائرة التي أصبحت تحلق على سماء مصر.. هل تشعر بهذا لأنه وحده رآها يومًا أمام أقفاص الدجاج بتلك الثياب وذاك "الشبشب" البلاستيكي الباهت؟

الكبير رآها مثله لكن أمام ناير الوضع يختلف.. تشعر أنها ترتعش حتى عند التفكير فيه.. لانبهارها بعالمه؟ بقدراته؟ بكلماته؟ أم لأنها تحبه..

لا فرق في كلتا الحالتين الشعور واحد!

حين خرجوا من المطار.. حين أرسل ناجي أحد سائقي الشركة ليوصلها إلى البيت تساءلت وهي في الطريق..

هل يشعر ناير بقدومها؟!

حمل السائق حقيبتها الكبيرة ووضعها أمام باب "وداد" في هدوء كما أخبرته وبقيت تحمل حقيبتها الصغيرة..

حين غادر المبنى، ركضت على السلالم تدعو الله أن يكون في شقته السفلية.. من خلف شرفة صالتها كان يعزف على جيتاره، استندت بظهرها وفتحت صدرها تتنفس صوت موسيقاه.. رائعة موسيقى الفيلم..

رائع ومبارك كل ما يخرج من تحت أنامله..

حين انتهى، حين سكتت الموسيقى، نقرت بأصابعها على الشرفة، لا تريد أن تبتعد حتى الباب.. هل يسمعها؟!

رفع الستارة من خلف الشرفة بعد طرقاتها الصغيرة، كأنه تمنى لو كانت هي أو ربما كان يعلم.. لم يركض نحو الباب ولم تفعل، فتح زجاج شرفته وقفز إليها لتسقط بين ذراعيه قائلًا:

لن تذهبي وحدك بعد اليوم أبدًا!

***

رغم أن الرحلة لم تكن طويلة فإنها عادت شخصًا آخر، أدركت وفهمت ووعت ما فعلته بنفسها.. ماريا أصبحت امرأة تختلف.. أخبرها صفوان أن البلد الأفريقي الذاهبين إليه من أفقر الدول وأكثرها معاناة مع الجوع والفقر، كل خطوة يجب أن تكون محسوبة وكل كلمة يجب أن تكون موزونة..

حين أغلقت حقائبها بعد شهور وقبل التوجه إلى المطار، ضمها والدها في حسرة يسألها عن فتاته.. كان يبحث عن تلك الابتسامة وذاك الأمل.. كان يسأل عن تلك الأحلام الكبيرة بل عن شعرها، الذي أصبح قصيرًا وكلماتها التي أصبحت قليلة..

"ألا تحبين صفوان؟ هل تكرهين السفر إلى حيث هو ذاهب؟".

لم تقل شيئًا سوى أنها ضمته إلى صدرها قائلة:

هناك أشياء حين نختارها لا رجوع فيها!

كان المشهد الأخير قبل السفر إلى أفريقيا هو مشهدها وهي إلى جوار زوجها في السيارة إلى المطار.. مشهد بلا كلمات، موسيقى ناير، تعابير وجهها تودع مصر، تودع أحلامها في الحب والسفر والحياة..

صفوان مشغول بهاتفه وقراءة ملف في يده، يمد يده ليداعب شعرها من وقت إلى آخر وهي كما علَّمها تبتسم وإن قالت لا تقول كلمة فيها معلومة وإن كان يجب أن تقول فلتقل شيئًا يحتمل كل المعاني!

على باب الطائرة استدارت ماريا تنظر إلى كل ما اختارت أن تمنحه ظهرها وابتسمت تأخذ نفسًا عميقًا من صدرها لتستدير ويغلق خلفها الباب وتبتعد السلالم كأن ما عاد هناك أمامها سوى أن تولد من جديد!

***

فهمت زوجها في أيام.. نحن لا نحتاج أعوامًا لنفهم شركاء حياتنا.. كل ما نحتاجه لحظة صدق مع أنفسنا!

نفضت ثوبها الأسود بيدها وهي تنهض عن الرصيف، باعت جميع دجاجاتها اليوم، ما عادت تعرض عددا كذاك الذي كانت تربيه وتعرضه.. عطية يتكفل بطعامهم ورحلت تلك التي كانت تربي من أجلها الكتاكيت والفراخ..

انحنت تحمل قفصها الخاوي على رأسها وخرجت منها آهة
لا تعلم إن كان مصدرها وجع ظهرها أم وجع صدرها..

لمحت إحدى البائعات تبتسم وصاحت تقول:

يُجْهدك عطية يا حميدة!

نظرت إليها من مكانها تلك النظرة التي لا تعرف سواها لكن ما عادت تخيف بنظراتها أحدا، وأكملت البائعة تقول:

لكنه ورَّدك!

مرت من جوارها تحمل القفص الخاوي وعادت خطوة إلى الخلف.. لن تسكت، كفاها صمتًا وسكوتًا..

عادت بظهرها ونظرت إليها قائلة في صوت عال كأنها تريد كل من يرقبوها أن يسمعوا:

ما وردني ليس عطية ففي فراش كل واحدة منكن شبيهًا به.. ما ورَّدني بكائي على ابنتي، ورَّدني حسرتي على عمر كنتم فيه تضاجعون الرجال ووحدي أتدبر معيشتي ومعيشتها..

كانت تتحدث بحدة وحسرة ورقصت جفون القائلة، نظرت حميدة حولها لتلمح زوجها قادمًا على البعد وصاحت:

جربتن الزواج والجنس، من أرادت التورد منكن فلتجرب البكاء والحزن..

أسرع عطية إليها يلقف عن رأسها قفصها، وهو يقول:

لا عليكِ منهن.. هيا بنا..

حين رأوها تسير معه ويحمل عنها قفصها لم تتذكر إحداهن كيف عانت مع زوجها وأمه، لم تفكر إحداهن في أمومتها المكلومة..

حين يرونك سعيدًا أو ناجحًا لا يذكرون تاريخ تعاستك وعثراتك، وحين يكونون هم التعساء ينسون عندها ليالي صخبهم وأيام ضحكاتهم!

***

على باب البيت أخبرها أن شيئًا ينتظرها بالداخل، دخلا، أرخى القفص عن رأسه، لتستدير حميدة وهي ما زالت مشتعلة بنظراتهن وكلماتهن لترى صندوقًا من الكرتون..

ابتسم عطية وأخرج "مطواة" صغيرة من جيب جلبابه النظيف فتح بها الصندوق لتطل منه شاشة صغيرة سوداء، نظرت إليه في ذهول ليقول:

ننتظر ظهورها مرة أخرى ونحادث البرنامج في لحظتها..

تحسس جيبه وأخرج هاتفه الصغير وأكمل:

معي هاتف المشروع الذي منحنوني إياه، وفي المرة القادمة أشتري لك هاتفا وخطا..

كانت تنظر إليه كتمثال شمع..

اشترى لها تليفزيونا عَلَّ ابنتها تظهر على شاشته، ويعدها بشراء هاتف خاص لها؟! لم يفعل أحد من أجلها شيئًا يومًا..

لم يُفعل إلا بها!

حاولت أن تشكره، أن تقول كلمات طيبة حانية كالتي عاشت تتمنى لو يومًا تسمعها لكن إناء حصيلتها من الحب والتقدير خاوٍ..

سألها في ذهول:

هل أنتِ غاضبة مني؟!

يعلم أنها تزوجته لشعورها بالخوف والضعف، يثق أن زينب لو بقيت معها ما قبلت به يومًا.. ليس متيمًا بها لكنه كان بحاجة إلى بيت وامرأة.. تعب من محادثة كلبه ومضاجعة وسادته.. يريد الاحتفاظ بحميدة ويحاول قدر ما يفهم أن يُظهر رغبته في نجاح هذا الزواج.. لو أنها فقط تحاول!

اقترب منها يخبرها أن التليفزيون بحاجة إلى "ريسيفر"، بعد صمت سألته من أين له بثمن هذا الجهاز.. تقدم نحو موقد غازها القديم وأشعل النار تحت الإناء الذي أعدته قبل خروجهما، أعادت عليه السؤال فاستدار نحوها يقول:

استدنت من مهندس المشروع على أن يخصم جزءا من راتبي كل شهر..

ألقت برأسها فوق صدرها وتقدمت تغسل بعض الأرز لتطهوه وفي كل خطوة تتمنى لو قالت له كلمة طيبة.. من خلف ظهرها جاءها صوته قائلًا:

سنجد زينب وسأشتري لك ثلاجة وربما غسالة صغيرة، أعلم أنك تتعبين في غسل ثيابي.. سأفعل كل شيء..

رفعت إناء الخضر ووضعت آخر لتطهو ما غسلته واستدارت نحوه تقول:

أريد ابنتي، عشت دون هذه الأشياء طوال عمري ولا يهمني أن تدخل بيتي.. وعدتني أن نصل إليها..

كان ينظر إليها في لوم، لا ترى جميع ما يفعله وتقف عند عجزها وعجزه لكن ربما كانت على حق..

كلٌ منهم يبحث عن هدفه من هذه الزيجة..

لا ذنب لها ولا ذنب له أن هدفهما ليس واحدًا!

***

اقتربت الطائرة من الهبوط على أرض "كمبالا" في أوغندا بعد خمس ساعات قضتها نائمة ورأسها على كتفه كما لم تنم أعوام عمرها.. ربت ناير على يدها لتفتح عينيها وتبتسم حين رأته ينظر إليها، بعينيه أشار إلى نافذة الطائرة الصغيرة لتستدير وتنظر معه.. بحيرة "فيكتوريا" الرائعة على جانب أرض المطار تسلب اللب بجمالها.. شهقا معًا كأنهما يسألان أي فقر وأي عوز في أرض هذا مطارها..

حين غاب كل من حضر في غرفته بفندق "Golden Tulip"، أخبرهم الكبير أنهم مدعوون على العشاء ليلتقوا الممثل الذي سيؤدي دور "كالا" الأفريقي..

وقفت زينب على باب غرفتها تتمنى لو تدعو ناير إلى الدخول لكنها ابتسمت في خجل وقبل أن تغلق الباب أمسك بكفها قائلًا:

نصف ساعة ونخرج معًا..

في فرحة طفلة سقطت على أرض كبيرة من الحلوى هزت رأسها وغابت..

ارتدت ثوبًا أبيض قصيرا بعد حمام سريع، سكبت بعضًا من عطرها على جسدها ثم وقفت تنتظره في بهو الفندق..

بعد عشرين دقيقة.. منحوها كوب قهوة كانت تحتسي منه وهي تنظر إلى مصعد الفندق تنتظر ظهوره..

إن كان سيدعوها إلى الغداء ستطلب منه الذهاب إلى مكان بجوار البحيرة التي فتح لها عينيها عليها..

لا تصدق أنهما سيكونان وحدهما، يتجولان في البساتين التي ستركض هي وكال عليها.. ويفعلان كل ما كتبه ناير قبل أن تفعله مع كال..

أقبل ناير وأمسك بكفها ثم طلب سيارة تأخذهما في جولة لمدة ساعة وفي الطريق إلى السيارة همست أنها تريد أن تمشي على قدميها معه، تريد أن تجلس على البحيرة وتسأل إن كان لديهم "ذرة مشوية".. ضحك

ناير وهو يدخلها إلى السيارة يخبرها أن العمل قبل الحب..

جميع سكان البلدة يتحدثون الإنجليزية بطلاقة، أخبره السائق أنه سيأخذهما إلى أجمل الأماكن إلا أن ناير أخبره أنه يريد عشوائيات البلد، نظر السائق الأسمر إليه في المرآة وابتسم بشفاهه العريضة قائلًا:

أقف بكم على "الهاي واي" وتدخلون سيرًا على الأقدام، إن شئتم أنتظركم، وإن أردتم أصحبكما على أن يزيد السعر قليلًا..

الخضرة الرائعة والشوارع الممهدة والبحيرة الكبيرة التي ينبع من إحدى نقاطها نهر النيل تصيبه بالتوتر..

ليس هذا ما كتبه.. حين هبطا من السيارة ودخلا حيث أشار لهما السائق، بعد دقائق لا تتجاوز الثلاث حبس كل منهما أنفاسه.. البيوت كلها أعشاش صغيرة من الصفيح، متلاصقة إلى جوار بعضها بعضا، وأمام كل بيت حبل كبير يعلق عليه سكان البيت ملابسهم التي يقطر منها الماء والفقر..

سارا مذهولين، لا يمكن لعقل أن يصدق أبدًا أن عشر دقائق تفصل بين بحيرة فيكتوريا وما حولها وبين هذا البؤس وما حوله.. ورش حدادة بائسة تخرج منها

أصوات المناشير، أطفال في ثياب رثة وجوههم السمراء نحيلة جائعة في كل مكان..

حبست أنفاسها تتذكر بلدتها وشوارع البارودية..

"لا يختلفون عنا كثيرًا يا ناير"؟!

قالتها في ألم وفي ألم أكبر أجابها قائلًا:

كل قارتنا لبلادها وسكانها وجهان.. لكن يكفيهم أنهم إن شاءوا قتلونا عطشًا!

لم تفهم ولم تسأل، كانت مثله تتخيل مشاهد التصوير في أجواء كهذه ووجوه كهذه.. لم يقترب منهما أحد رغم ابتسام الجميع لهما، لم يركض خلفهما أحد كما يفعل أطفال الفيوم إن رأوا من يشابهها هي ورفيقها.. الجوع والفقر يصبحان أكثر قبحًا إن كان الثراء والمدنية على بعد خطوات منهما كأنه يبصق في وجهه تحديًا وظلمًا ولا يعنيه أمره ولا يحرك في جوفه ساكنًا!

عادا إلى السائق في الموعد ودخلا ليجلسا في صمت عالي الصخب.. أرخى السائق الشاب عينيه في خجل.. رغم أن الأمانة كانت تحتم عليه أن يحضرهما فإن شيئًا في صدره يلومه لأنه فعل..

بلادنا كأبنائنا لا نريد للغرباء أبدًا أن يروا حقيقتها!

***

كانت يدها ترتعش وهي تأخذ منه تذكرة الطيران التي اشترتها، كانت ترى عينيه يسألها لِمَ تشتري زوجة دبلوماسي كبير تذكرة إلى بلادها ومن السهل والأرخص أن يشتريها لها أحد العاملين في السفارة..

أشاحت بوجهها تتمتم بالشكر متوجهة نحو السيارة التي خصصها لها صفوان بصحبة سائقه الخاص..

تعلم أن السائق ينقل له جميع تحركاتها، لهذا طلبت منه أن يتركها أمام بوابة سوق المدينة وأرسلته ليحضر لها معطفها الذي تركته عمدًا على باب بيتها وادعت نسيانه..

يجب أن تعود الآن إلى السوق لتشتري كيسًا من الخضر قبل حضوره، كانت تركض وهي تقبض على حقيبة يدها، بالكاد التقطت بعض الخضر من السوق وخرجت تنظر حولها بحثًا عنه، رأته خارج السيارة ينظر إليها من بعيد وانقبض صدرها.. هل كان السائق يتبعها؟ أين المعطف؟

حمل عنها كيس الخضر وتبعته مسرعة لأن السماء بدأت ترسل زخات من المطر..

سألته ماريا في صوت مبحوح وأجابها أن المعطف في السيارة لأنه خشي أن يحمله ويبتل.. تنهدت حين

دخلت وانطلق بها إلى وجهتها حيث أخبرته أنها ستذهب لزيارة صديقتها الأفريقية الوحيدة..

كان الكبير على ارتفاع سبعة أمتار في "الكرين" الذي استأجروه يتابع تصوير السيارة من أعلى وهي تسير تحت الأمطار التي اشتدت غزارتها..

صديقة واحدة أفريقية أحبتها، تذهب إليها الآن لتخبئ لديها تذكرة العودة إلى مصر..

عادت الكاميرات تقترب من وجهها بداخل السيارة.. أصابعها تتحسس الحقيبة التي بداخلها تذكرة النجاة وعينا سائقها ترقبها في المرآة.. لن تطلب منه الطلاق أو السماح لها بالسفر، ولِمَ نطلب أشياء نعلم علم اليقين أننا لن ننالها؟!

"هناك أمور تؤخذ ولا تُمنْح".

بدأت السيارة في الدخول إلى حواري البلدة الضيقة، عينا ماريا زائغتان والمطر يغسل زجاج السيارة ولا شيء سوى تداخل صوت مساحات الزجاج وصراخ الأطفال ولعبهم في تلك الحواري الضيقة..

صيحة كبيرة انطلقت منها بعد ذاك الوقوف المفاجئ الذي وقفه سائقها حيث رأت شابًا أسمر يحمل طفلة صغيرة على ذراعيه.. كان يقف أمام السيارة ويصيح بكلمات لا تسمعها..

عاد السائق إلى الخلف محاولًا الابتعاد عنه، إلا أن الشاب كان يركض ويقف أمام زجاج السيارة من جديد..

فتحت زجاج شرفتها وسمعته يرجوها بالإنجليزية أن توصله إلى المستشفى، معه طفلة تموت.. هبط السائق يصرخ في وجهه يأمره بالابتعاد وحاولت ماريا أن تتجاهل الأمر..

تريد أن تسرع إلى صديقتها وتتخلص من التذكرة الراقدة في حقيبتها، لكن وفي اللحظة التي ابتعد فيها "كال" بحثًا عن سيارة أخرى فتحت بابها وصاحت تطلب منه الصعود.. لم يستطع السائق أن يثنيها، حين دخل يحمل الطفلة على ذراعيه استدار نحوها ينظر إليها قائلًا في اعتذار:

آسف سيدتي لكن إن لم نسرع بها تموت!

كانت الطفلة غائبة عن الوعي ترتعش من الحمى، سألته أين أمها ولماذا لم تحضر معه.. استدار الأفريقي ينظر إلى عينيها قائلًا:

ليست ابنتي، أحضروها إلى منزلي ككل من أصابهم الوباء لكن ما أملكه من الدواء ليس كافيًا أبدًا لعلاجها.. أنا طبيب لكن ليس هذا كافيًا!

وقفت السيارة على باب المستشفى وحمل الطفلة مغادرًا، نظر إليها في ثبات يطلب منها أن تدخل إلى

المستشفى معه.. أخبرها أن المرض منتشر بين أطفال البلدة وإن أخبرتهم بشخصها الدبلوماسي يهتمون بها أكثر، عندها قد لا تموت الصغيرة..

علم ذلك من لوحة السيارة لكن ليته ما علم وليتها ما كانت!

أغلق السائق النافذة بعد كلمات قالها بلغة البلاد، انطلق بعيدًا لكنها استدارت تنظر من خلف المطر إلى كف الصغيرة المتأرجح في الهواء.. أرخت عينيها إلى حقيبتها ونظرت إلى سائقها..

وقفت الكاميرا على عينيها لحظات حيث صاحت تأمره بالوقوف.. غادرت السيارة وتحت الماء الغزير ركضت تحمل حقيبتها في قبضة يدها..

لحقت به وغابا معًا تحت المطر!

***

وقفت تنظر إلى "بانيو" حمامها يمتلئ بالماء في سكون..

كانت ترى على شاشات السينما حين كانت تذهب مع صديقاتها بطلات الأفلام يستلقين تحت الماء والصابون.. دخلت إلى الماء الساخن واستلقت في الماء تجرب الإحساس وتحاول أن تهرب من كل ما يسكنها من أحاسيس.. ممزقة، هي ممزقة حد الرعب..

في ساعات التصوير كانت ملتصقة بالممثل الأفريقي، وسيم..

له جسد شهي، يغازلها كثيرًا بعينيه..

انتفضت تحت الماء الساخن، ناير بدأ يشعر بنظراته، بدأ يشعر بأن في عناقه لها صدق أكثر مما يقدمه ممثل أيا كانت مهارة أدائه..

غريبة هي ماريا!

أعادت تذكرة السفر وأصبحت تذهب إلى منزل كال كل صباح وحدها.. عشرات الأطفال في البلدة أصابهم الوباء، تساعد كال في إسعافهم والاهتمام بهم بل ومن نقود صفوان تشتري أدوية وتطهو أطعمة تقدمها لهم..

يظنونها طبيبة مثله.. تشعر بأن قلبها يعود إلى الحياة من جديد، في كل مرة ينهاها صفوان أو يتصاعد بينهما

شجار وتخبره أنها لن تتراجع عن خير تفعله تشعر أنها تكذب.. لو شفى أطفال البلدة أجمعهم لا تريد أن تترك هذا الطبيب الأسمر..

فتحت زينب عينيها في ذعر ودقت بقدميها في ماء البانيو بجنون.. هذا الصباح سقطت ماريا بين ذراعيه وتبادلا نظرة طويلة كأنها تسأله وكأنه يسألها.. ما الذي يجمعهما؟!

كل من في التصوير حبس أنفاسه انبهارًا بأدائهما..

لم يكن مكتوبًا أن تدمع عيناه أو عيناها، لكن كليهما دمعت عيناه، وكليهما سقط بين شفتي الآخر في قبلة لم تطل لكن..

بكفها الممتلئ بصابون حمامها ألقت زينب بوجهها بين كفيها في ألم.. كأن نارًا أمسكت بجسدها تحت الماء..

تاهت في قبلة كال كثيرًا وحين أفاقت على صوت الكبير يصيح "Cut" فتحت عينيها تلملم نفسها رأت ناير يدير ظهره ويبتعد..

ما الذي أصابها؟ ورحمة أبيها وجدتها عروقها مسكونة بناير وحده.. لكن كيف؟ كيف تشعر بالذنب لقبلة هذا الأسمر؟ وكيف وهي تعلم أن كليهما يمثل؟!

نفضت المياه عن جسدها واضعة روب الفندق وأحكمت غلقه على جسدها.. من خلف شرفة الفندق وقطرات المطر الضعيفة وقفت تنظر..

رأت ناير يفتح لها الباب عند وصولها بيته للمرة الأولى.. سمعته يخبرها أنه أهلها وحماها.. رأت وداد تعاتبه حين قَبلَها.. رأته يركض على كورنيش المعادي خلفها.. شعرت بذراعه خلف ظهرها ورأسها على كتفه.. عضت على شفتيها تتذكر شفتيه يوم رمت هي بشفاهها بينهما..

ضعيفة مثل ماريا؟ خائنة مثلها؟!

ماريا كانت تموت مع صفوان، ماريا وجدت في كال نجاة وحياة وهدفا..

ماريا حين علم زوجها بقصتها مع الطبيب الشاب وحين وصلت أنباء علاقتهما إلى السفارة ليوجهوا له خطابًا قاسيًا بضرورة إنهاء قصة زوجته مع الطبيب لم تخف.. أخبرته أنها ستخرج لتحيا معه..

طلقها صفوان وعلمت مراسلة من الصحافة الأمريكية بقصتها وأطلقت صورها على الميديا.. زوجة دبلوماسي كبير تلقي كل شيء خلف ظهرها لتعاون طبيبا شابا في مواجهة وباء يهدد أطفال كمبالا! ماريا عادت للحياة مع

كال، لكن زينب تموت مع شعورها بالخجل من نفسها ومن رغبته فيها..

سقطت دموعها في جنون واستدارت وهي ما زالت في ردائها خارج غرفتها تركض نحو غرفته.. طرقت الباب كثيرًا وفتح ناير لترى على وجهه بقايا دموع..

نظر إليها في ألم ومن خلف ظهره رأت حقيبته على فراش الغرفة مفتوحة..

أفسح لها الطريق لئلا يراها أحد بما ترتديه واستندت على باب الغرفة تنظر إلى حقيبته وقال في هدوء:

الكبير على حق.. من الخطأ أن أكون معك..

في ألم قالت:

ألا تحميني كما وعدت؟!

ابتسامة صغيرة مريرة طافت على ملامحه وهو ينحني يغلق حقيبته قائلًا في سخرية:

ممن؟ من كال؟ من ماريا؟ مني؟! أم منك؟

أمسكت بكفه التي تمسك بمقبض حقيبته وقالت في صدق وبكاء:

ليس مني أبدًا.. منها يا ناير منها.. بيبا!

في إشفاق كبير نظر إليها وضمها كأنه يواسيها قائلًا:

نسيناها.. نسيناها..

بكت على صدره وهي تتذكر كلمات الكبير..

فُتحت الأبواب ولن توصد في وجه ماردها أبدًا!

***

السمنهوري وأحمد شادي وأبطال الفيلم والعاملون فيه جميعًا يرقصون في حفل "الفركش"، وحدها لا شهية لها في الضحك أو الرقص..

من بعيد رأت ناير يجلس على مقعد في ركن، أرغمته على الحضور لكنها تعلم علم اليقين أنه يريد الرحيل..

ما كانت ولا كان يظنان أن هذا هو "الفركش"..

شقت في دائرة الرقص الكبيرة طريقها نحوه لكن أمسك بذراعها شادي ليراقصها وهو يصيح "مبروك"..

ما زالت مثقلة بألم مشهد النهاية، ما زالت ترى ماريا وهي تُسلِّم جواز سفرها الدبلوماسي وتخرج بعيدًا عن مبنى القنصلية لترى كال يقف في انتظارها.. كان في يدها رسالة أغلقت عليها كفيها، وحين أوقفوها على الباب نظرت إليه ومنحتها لموظف أمن السفارة تقسم عليه أن يمنحها إلى صفوان..

كان التصوير رائعًا في ذاك المشهد..

صوتها يقرأ كلمات الرسالة ووجه صفوان يغلق حقيبته استعدادًا إلى العودة إلى مصر بعد أوامر بأن يترك كمبالا..

مشهد لأطفال البلدة في غرفة صغيرة من منزل كال يجلسون، وقفت أمامهم تشرح لهم كلمات تكتبها على لوحة بيضاء بجوارها..

"الحب.. الاختيار.. المصير"!

رآها الكبير شاردة وأخذ يدها من يد شادي ليخرجا من الدائرة.. سار بها إلى ناير الذي ابتسم ابتسامة صغيرة ثم انتصب عن مقعده مصافحًا مخرج العمل قائلًا:

يجب أن أذهب..

نظرت إلى حبيبها في لوعة ترجوه البقاء ونكس الكبير رأسه قائلًا:

خذها معك إن شئت.. فقط مزيد من بضع صور أخرى للجرائد والمحطات..

كانت تستبقيه بعينيها إلا أن ناير ابتسم، يعلم أنها تحب الصور والدعاية فقال في صدق:

مكانها هنا.. في الأضواء والكاميرات، إن ابتعدت عنها تنتهي..

كانت عيناها تهتزان بدمعة صغيرة، منهكة هي ولا يريحها سوى كلماته وذراعيه، عدا أن ناير أمسك بكفها وقال:

أنا إن خرجت من العزلة والهدوء لا أكتب..

وإن لم أكتب هي نهايتي! أنتظرك في البيت..

ابتعد في صمت وعيناها تتبعانه في ألم، هو على حق ليس مقدرًا لهما الوقوف في مكان واحد..

في الضوء بقاؤها وفيه نهايته!

ابتسمت تسأل ناجي عن موعد عرض الفيلم.. أخبرها أنه لن يعرض على الشاشات المصرية قبل شهور.. سيرسله إلى مهرجان كان وتورنتو وأيضًا مهرجان مالمو.. ما زالت لا تعترف إلا بمصر، ربت على كتفها قائلًا:

إن عرضناه هنا حُرم من دخول المهرجانات.. يشترطون عدم عرضه جماهيريًا..

وقفت تنظر إليه وشادي يتقدم نحوهما يشاركهما الحديث وأكمل الكبير قائلًا:

لا تتعجلي عرضه هنا، شهور تمر سريعًا كالعمر..

ضحك شادي ناظرًا إليها، وقال كأنه يريد أن يذكرهما معًا بما
لا يريد أن ينسياه:

العرض في مصر مضمون النجاح، اسم أحمد شادي وحده يكفي..

ارتعشت عيناها ونظر الكبير إليه ليكمل:

بعد اسم الكبير طبعًا..

ابتسمت في هدوء، اسمها لا قيمة له..

أي معلومة وفي أي وقت تقال!

أمسك ناجي بكفها متقدمًا نحو كعكة الاحتفال الكبيرة واستدار نحو شادي قائلًا:

أنت نجم الشباك الأول لا أنكر لكن تتغير الموازين وتنقلب في ثوان..

منحوها سكينًا تقطع بها الكعكة وسط صيحات الجميع..

تركت السكين إلى نجم الشباك، لا تريد أبدًا أن تغمدها في قلب اسم الفيلم واسم التي ما زالت تعبث بقلبها وتحاول التحرر منها..

ماريا!

***

يتمنى لو يسحق ضلوعها بين أصابعه وإن كان يخشى من اتساخهم بدمها الملوث بفضلات طيورها وطيور أمها الميتة..

ترسم العفة والطهارة وكل من سافروا معها، أخبروه عن مطاردات ممثل "كمبالا" لها.. أجمعوا بأنها كادت تستسلم له لو لم تكن تخاف ناير.. كان حريصًا على ألا يقترب منها في وجوده، عندما خرج وضع السمنهوري ذراعه حول خصرها ومال على أذنيها يخبرها أنه يدعوها إلى العشاء في بيته ليعرض عليها العمل معه في فيلم مع شركة تنافس الكبير..

الوضيعة أرخت ذراعه عن خصرها ونظرت إلى عينيه وسألته عن سر همسه ولِمَ لا يعلن الأمر في صوت عالٍ..

فاجأته، قبل أن يجيبها أكملت عليه تسأله في استخفاف:

اتفق الكبير معي في مكتبه، وقعت العقد في جلسة عمل لا دعوة عشاء، ثلاثة أشهر نصور ولم يضع يده على خصري كما تفعل..

قالت تلك الكلمات بصوت سمعه ناجي وإن تظاهر بأنه لم يسمع.. حقيرة وضيعة.. ليتها تعلم أن خصرها الرخيص بصمة من الطين على ذراعيه.. يتمنى لو حقًا يقتلها!

أغلق باب سيارته في عنف وأخذ طريقه إلى البناية الكبيرة التي وقف أمامها، في المصعد أخذ أنفاسًا عميقة من صدره.. يجب أن يظهر هادئًا.. يجب أن يفكر كيف يستعيدها وماذا يقول للكبير..
لا حل أمامه سوى أن يستعيدها أو ينسفهما إن استطاع!

بعد دقيقتين على بابها فتحت "نسمة" وبعد نظرة تفحصت بها وجهه علمت أنه ليس بخير..

عملوا معًا في أكثر من عمل درامي وفيلم العام الماضي وتعلم أن خلف ابتسامة السمنهوري حريقا يجب أن تستغل دخانه..

أفسحت له الطريق بعد عناق سريع، وأسرعت تحضر له كأسا أخذ يرتشف منها وقالت في هدوء:

أنت قادم من حفل "الفركش"؟

هز رأسه في سكون وعادت تكمل:

أغضبك ناجي؟! لا أعمال جديدة معك؟!

هز الكأس في يده لتصب له كأسًا أخرى وقال:

ليس ناجي من أغضبني، فلاحة الفيوم وصديقها الذي منحته فرصة عمره يأخذوه منك ومني!

***

وضع ناير فنجان قهوته على مكتبه في تثاقل ورمى جسده على المقعد ممسكًا بقلمه الأسود بين أصابعه..

ترك مكتب المحاماة، انتهى من موسيقى الفيلم، يستيقظ فجر كل يوم ويمسك بهذا القلم الذي لا يعرف كيف يكتب بسواه ورغم هذا لا يكتب..

هل كانت "ماريا" قصته الكبرى والأخيرة؟ هل كانت فقاعة كبيرة ولدت بين أنامله ثم انفجرت به!

أين ذهب ذاك التدفق وتلك الأفكار؟! رأسه بها مشغول.. يجب أن يعترف..

وضع القلم على الأوراق العطشى لحروفه ورمى بعينيه خارج نافذته في سكون يرقب فراشات تحوم أمام عينيه.. يراها تستجديه بعينيها ولا تعلم أن كل ما فيه يشتهيها..

الخوف قاتله!

يخشى أن تحب كل بطل تقف أمامه رغم علمه أنها ضريبة صدقها.. يخشى صخبا كبيرا على أعتاب بابه تقف.. يخشى وجوها وصورا ودعاية واحتفالات يجب أن تكون سيدتها..

يخشى خيانات لا تعنيها وصدودا لا يقصده..

ناير عالمه ورقة وقلم، فنجان قهوة على رجع لحن هادئ أو ترنيمة جيتار.. عالمه قاتم كله ألم ومعاناة، عالمها أضواء وابتسامات وألوان..

هو كلمة وهي صوت وصورة..

هو جدول مياه رقراق، وهي فيضان سهر وسفر وبكاء وصخب.. لقاؤهما نهاية.. لقاؤهما ارتطام صخرتين لا بد لإحداهما أن تتفتت..

نهض ناير عن مقعده وضم جيتاره إلى صدره مدندنًا عليه لحنًا حزينًا.. بطلة قصته أصبحت منه ومن قلمه أقوى..

لا يملك الاقتراب ولا يطيق الفراق..

يشعر أنه ظلمها مرتين..

مرة يوم كتبها، والأخرى يوم وجدها!

***

وضع في فم ابنته قطعة "السوشي" ثم أمسك ناجي بكفها يقبلها في حب كبير..

ابتسمت إيمان رغم أن الحزن يسكن صدرها دون أن تعلم له سببا.. هم في أرقى فنادق القاهرة يتناولون العشاء بعد انتهاء حفل تخرج جودي.. كان يوسف أيضًا سعيدًا ينظر إلى أخته، أمسك أبوه بيد ابنته مشيرًا إلى أخيها أن يأخذها إلى الرقص ليعلن لهما عن مفاجآت كثيرة بعد عودتهما..

ابتسمت جودي ونهض يوسف دون تردد، يحب أن يكون معها، يجب أن يجد مبررًا ليحتضنها ويتمنى لو تتسع ضحكتها أكثر.. حين أصبحت بين ذراعيه نظرت إلى عيني أخيها وقالت:

هل تعلم أني أنا من طلبت منه أن يسألك الرقص معي؟

في دهشة كبيرة نظر إليها وضمها قليلًا إليه، قبل أن يخبرها أنه يتمنى لو يراقصها ويصاحبها في كل خطواتها لكنها لا تمنحه فرصة للحديث ابتعدت عن كتفه وقالت:

أريدك أن تعرف قبلهما، أريدك أن تعلم أني أحبك وأني سأنتظرك أن تأتي..

نظر إليها يوسف كأنه يستعجلها أن تقول، نظر إلى أمه من بعيد كأنه يبحث في وجهها الحائر عن شيء يشرح

له بعضًا مما سيسمع.. كانت أمه على طاولتها تبتسم وهي تنظر إليه من بعيد، أمسك ناجي بيدها في قوة قائلًا:

عيناكِ تختلفان حين تنظرين إليهما، تصبحان أكثر جمالًا وبريقًا، لا أظنك حتى تنظرين إليَّ يومًا كهذا..

في صدق أجابته:

كل ملامحك تختلف وأنت تحادث أو تعانق ابنيك.. حتى أنت يا ناجي.. الفرق أني أعترف وأنت لا..

هي على حق، دومًا هي على حق..

ناجي يريد كل شيء حتى في عمله لكن هي تعلم أن في "كل شيء" نصيبا صغيرا لا يقاسمه فيه أحد..

عادت تنظر إلى ولديهما في حب، وبدا على وجهها شيء من القلق حين رأت خطواتهما في المرقص أقل وأقرب إلى الوقوف، ضحك الكبير قائلًا:

أظنهما يخمنان ويتساءلان عن مفاجآتي..

بعد دقائق عاد من كانا طفلين بالأمس، جلس يوسف إلى جوار أمه وجلست عروس الحفل إلى جوار أبيها وفي قلبه وصاح ناجي يعلن المفاجأة الأولى..

قال في فرحة كبيرة:

ماريا في مهرجان كان وأظنها تكسب..

لم ينتظر منهم كلمة وأكمل:

أيضًا هي في مهرجان مالمو وأظنها أيضًا تكسب..

تشعر إيمان بالسعادة لكن وجوم ولديها كان ينتقص من سعادتها، أكمل ناجي وهو يضع يده في جيبه ويخرج منها بمفاتيح ناظرًا إلى ابنته وقال:

يومًا منذ أعوام ونحن في الطريق إلى الجامعة أخبرتني أنك
لا تعترفين بسيارة اخترعها الإنسان إلا البورش..

همست إيمان في ذهول:

ناجي.. هل جننت؟!

كان يتحدث في انطلاق وحب، أب سعيد بتخرج ابنته لتلتحق إلى العمل معه.. في إدارة استوديوهاته أو شركة الأراضي أو حتى مكاتب الإنتاج..

يملك ملايين ولا يضيره إن وضع بضعا منها في سيارة تشتهيها أميرته..

سكت فجأة ونظر إليها في ذهول، إن كانت لا تصدق وفي حالة ذهول فما عساه يوسف به إذن؟!

نظر إلى وجهها ليجدها تمسك بكفه وتضع عليه قبلات كثيرة رغم دمعة تلوح في عينيها وقالت:

إن كان بالإمكان أن تعيدها أرجوكَ أن تفعل..

رغم الصخب والموسيقى وأصوات الكؤوس والأحاديث فإن ناجي ما كان يسمع سوى صوت أميرته على وقع صخب دقات قلبه..

نظرت إلى أمها وأخيها وأكملت:

قررت الرحيل.. لا أريد أن أحيا هنا..

أرخى يوسف رأسه وشهقت إيمان ليمسك بكفها بين يديه كأنه يمنحها من روحه وقوته وأكملت الشابة في هدوء:

لن أحيا حيث يقرر رجل الزواج بي وحده وإن كان حبيبي.. ويقرر آخر أين أعمل وأي سيارة أستقل وإن كان أبي.. لن أحيا أبدًا مع امرأة تتدخل في لون ملابسي وطولها وإن كانت أمي التي أحبها..

شهقت إيمان في ألم وأكملت الابنة في ثبات:

أذهب وأستقل وأعمل وأعيد إليكم يومًا جميع ما أنفقتم على تعليمي إن شئتم..

سكتت لحظة تغالب دموعها ونظرت إلى والدها قائلة:

أسوأ أنواع الحب هو الذي يجعلك عن حريتك تتنازل..

لا أريد لهذا الحب الكبير أن يكون نقطة سوء في أيامي أبدًا!

***

هل تظن حقًا أن الجريمة هي الشيء الوحيد الذي لا يولد كاملًا!

أحمق من يظن هذا! جرائم كثيرة كاملة لهذا لم نعرفها أو نسمع عنها.. الناقص دومًا هو السعادة.. هو الفرحة التي تنتظرها طويلًا وتعمل من أجلها كثيرًا..

هذه هي الناقصة دومًا، وهل تظن نقصانها نقمة؟! هي النعمة الكبرى لكن لا نعلم..

نحن إن اكتفينا انتهينا!

كانت بيبا تضم جائزتها في فرحة لا حدود لها.. فازت بالسعفة الذهبية في مهرجان كان كأحسن ممثلة، شيء أكبر من خيال عمرها الذي ما زالت في أوله لكن حين انتهى التصفيق والتصوير وجلست على مقعدها الوثير ترقب باقي الاحتفال كان بداخلها شيء كسير..

شوق صغير يزحف إلى صدرها.. شوق إلى أمها ووخز ضمير في عروقها.. كيف ادّعت موتها؟ وماذا لو ماتت حقًا؟! هل حقًا تذهب إليها بعد عرض الفيلم في مصر

كما تتدعي أم أنها حُجة تتذرع بها للهرب من رحلة الفيوم؟!

الفيوم؟ كيف أصبحت كأنها ماضٍ لا تذكره ولِمَ في وسط كل هذا الصخب والأضواء تجتر الحزن والألم؟!

لماذا في أوج فرحتنا العزيزة القدوم نبحث عن نواقصنا؟!

احتدم التصفيق حين أعلنوا فوز ناجي الكبير بجائزة أفضل مخرج.. يستحقها.. من قلبها ومن خلف دمعة عينيها كانت تصفق.. استدارت تنظر إلى زوجته وأبنائه حولها يصفقون له وهو على خشبة الاحتفال يرسل لهم قبلة وبعينيه ألف رسالة حب وشكر..

ربما فرحة الكبير مكتملة..

بيبا لا تعلم أن جودي تركتهم وتحيا في مسقط رأسها، تعمل في منظمة لحقوق المرأة.. حضرت إلى كان حين أرسل لها والدها دعوة ورسالة يرجوها أن تحضر الاحتفال قائلًا في نهايتها "حتى الغرباء يتزاورون؟!".

بيبا لا تعلم أن قلبه وقلب إيمانه مكسوران وأن فرحة جائزته مبتورة!

حين عاد الكبير إلى مقعده ووقفت لتضمه ثم انحنى يقبل رأس زوجته ويمسك بكف ولديه شعرت جودي بألم عميق.. تعلم كم أن حبيبها حزين لفراقها، هي أيضًا ليست سعيدة..

تعمل في نيويورك تكتب تقارير عن الاضطهاد والتحرش.. تسافر إلى بلاد عربية وترصد وتكتب وتنشر.. لا أحد يفتح لها الأبواب، لا أحد يحكم عليها بشيء ترتديه أو شيء اختارت أن تخلعه عن جسدها..

حرة فيما تختاره لتقرأ، حرة فيمن تقرر أن تصادق لكن بداخلها شوق حبيس يكاد يمزق ضلوعها.. عامر.. يوسف.. ناجي وإيمان!

حريتها مبتورة ناقصة تأكل من وجه ابتسامتها وصباها وثوراتها كل صباح قطعة!

لا شيء مكتمل أبدًا!

***

أصبحت تكره هذا الشيء الذي ينخلع قلبها أمامه كل ليلة بحثًا عن وجه ابنتها.. رأتها حميدة أكثر من مرة لكن كيف تصل إليها، لو أنهم مرة يتركون فرصة للتحدث معها أو مع البرنامج لكن جميعها برامج قديمة مسجلة تذاع على قنوات المدينة المحرم عليهم دخولها أو حتى الوقوف على أبوابها..

أصبحت تكره حتى أن تراها مجرد صورة خلف شاشة، لا أصابعها تطال عنقها لتسحقه، ولا ذراعاها يطالان وجهها لتغسل عنه الألوان، وتتيقن هل هي زينب أم أنها بيبا أحضرها الكبير شبيهة بابنتها..

استدارت نحو الباب تنتظر قدوم عطية، تأخر عن موعده، أعادت تسخين الطعام مرتين، هل تضع طرحتها على رأسها وتخرج إلى عشته لتبحث عنه؟!

تظن زوجها أكثرهم مكسبًا وسعادة بهذه القصة الحزينة، أصبح له بيت يغتسل فيه كل يوم ليرتدي ملابس نظيفة، يُطهى له طعام كل يوم، له جسد يُفرغ فيه متى شاء بعضًا من رجولته الباقية، لكنها تأنس إلى وجوده، تتلذذ بنومه على فرشة حماتها السابقة كأنها تُخرج لها

لسانها وتخبرها أن رجلًا بعد ولدها يريدها ويحبها ويغفو مكانها..

هي فقط فيها شيء مبتور، شيء ناقص..

تريد زينب، لِمَ لا تعتبرها تزوجت وسافرت مع زوجها إلى أحد بلاد الخليج؟! ربما حين يعود زوجها تطلب منه أن يبيع هذا الجهاز، تريد أن تنساها، تريد أن تستمتع بما تعده من طعام دون غصة في حلقها مع كل جرعة ماء أو قضمة طعام..

حميدة تريد أن ترتوي من عطية دون أن يدق رأسها وصدرها هاجس أن رجلا غريبا دنيئا يعاشر ابنتها في الحرام في هذه اللحظة!

نهضت عن مكانها في تثاقل ودجاجاتها حولها لترى من يطرق الباب.. حين وصلت وفتحت رأت زوجها أمامها وقبل أن تسأله عن سر عدم دخوله رأت خلفه رجلًا..

أفسحت لهما الطريق حين أخبرها عطية أن الرجل من مصر وأنه جاء بخصوص ابنتها.. لم تتلهف.. لم تمسك بتلابيبه.. فقط اتسعت عيناها وجلست إلى جوار عطية تنظر إلى القادم بأنفاس تائهة وألف قصة في رأسها تدور..

قال القادم:

علمت أنك تبحثين عن زينب.. ابنتك تضيع.. الكبير يتاجر فيها على الشاشة وفي جسدها خلف الشاشة..

أخرج الرجل من جيبه جهازا صغيرا فتحه وأداره نحوهما، كانت شاشة "الآيباد" محملة ببعض مشاهد ماريا مع زوجها صفوان في فراشه وأيضًا مشاهد أخرى لها مع كال وهي بين ذراعيه..

كانت حميدة تنظر إلى ما تراه في سكون تسلل حريق في حشائش غابة كبرى.. بعد أن انتهت تلك المقاطع التي تسلل إليها السمنهوري من شركة المونتاج ومنحها لأجيره، نظر الأخير إليها وقال:

هل تريدين إنقاذها؟!

كانت عيناها على اتساعهما ورغم هذا قالت في ذهول استطاعت ابنتها أن تخرج من الفيوم بأكملها فكيف لا تستطيع مغادرة "قواد" مثل الكبير..

في ألم أخبرها زائرها أنه كتب عليها أوراقًا وسندات مالية تزج بها في السجن إن فعلت، أعاد عليها ذات السؤال:

هل تريدين إنقاذها؟

صاح عطية يسأله كيف؟!

نهض الرجل في هدوء يقول:

لا أعلم، ما أستطيع أن أفعله أن أصطحبكما إليها إن كنتما حقًا تريدان..

في ذهول سأله عطية متى يفعل؟!

نظر القادم إلى وجه الأم الشاحب وقال:

الآن!

***

نظر ناير إلى مرآة مدخل بيت أمه وابتسم.. حلته الكحلية أنيقة ورباطة عنقه وردية كلون ثوب بيبا الذي أخبرته بلونه رغم أنه لم يره بعد.. وسيمًا كعادته مبتسمًا على غير العادة..

بالأمس غفت على صدره كقطة صغيرة وهو يعزف لحن الفيلم، يجب أن يعترف أنه يدين لناجي بكل شيء..

يدين له بالنجاح، بجائزة أحسن موسيقى تصويرية حازها ناير فقط لإيمان الكبير به.. يدين له بزينب التي أخذه إليها ليجدها كما رسمتها حروفه وشامة صدرها..

في الشهور القليلة الماضية أصبح اسمه وروايته بل وصورته على وسائل الميديا.. له معجبون ومعجبات.. رسائل كثيرة تصله من نساء جميلات في حفلات التوقيع يملن على كتفه حين يلتقطون صورة ويراها في الصف الأول دومًا أمامه تبتسم.. ربما لأنها أكثر من

يعلم أنه يستحق الإعجاب والحب وربما لأنها بتفهمها هذا تقايضه على صبره وتفهمه لكل نظرات الجوع والإعجاب التي تحاط بها وتصبح أكثر بعد هذه الليلة..

الليلة هي ليلة عرض الفيلم الخاص في مصر! يعلم أنها ليلة الكبير الكبرى، هو المخرج وأيضًا المنتج وأيضًا مالك دار السينما الكبيرة التي يذهبون إليها مع كل وسائل الإعلام والصحافة والفنانين..

بالأمس وهي غافية على صدره أخبرها أنه وأمه بعد احتفال العرض الخاص يخبئان لها مفاجأة..

قفزت من على صدره، في جنون نظرت إلى عينيه وهز رأسه بالإيجاب يؤكد لها أنه نعم، في الغد يعلن خطبته لها..

ضحك وقال:

لن تكون ليلة الكبير وحده ولا بيبا وحدها..

الغد ليلتنا الكبرى..

الغد أصبح الآن، ها هو في طريقه إلى قاعة السينما مع وداد التي أعدت للعروس هدية صغيرة من مجوهراتها.. يعلم أن أمه رغم حبها لها خائفة بعض الشيء.. يعلم أنه رغم سعادته بها متوتر بعض الشيء لكن إن لم يعلم الجميع أن زينب معه يأكلونها بل يمزقونها قطعًا صغيرة.. لا يعلم إن كان الكبير يعيد تجربته معها أم يتركها باحثًا عن جديد! لا يعلم إن كان يكرر تجربة الإخراج أم يعود إلى السمنهوري..

أفاق على صوت أمه تناديه وتسأله لم يطيل الوقوف أمام المرآة، نظر إليها ليجدها ترتدي "تايير" أنيقا، جميلة وداد وسعيدة بزينب وهذا يرضيه ويكفيه..

تأبطت ذراعه وانطلقا نحو سيارته، قبل أن يدير محركها وضعت الأم كفها على يده ونظرت إليه قائلة:

مبروك..

***

كانت تنتظر في إحدى سيارات الكبير التي أرسلها لها بسائقها حيث أخذتها من صالون التجميل.. حين وقف السائق في موقف السينما وحاول أن يهبط ليفتح لها

الباب أخبرته أنها تنتظر وصول خطيبها وأمه.. ابتسم السائق وعاد إلى مكانه..

نعم.. ناير سيخطبها الليلة.. فهمت دون أن يقول!

رغم أنها تعلم أنها ليلتها الكبيرة وأن ألف صورة تؤخذ لها قبل عرض الفيلم وأن ألف كلمة تُطلب منها لكنها تتمنى أن تطوي الليلة طيًا في لحظات ليصبح دخولها بين ذراعيه مباحًا، وعناق بينهما مقبولًا..

أخرجت من حقيبتها مرآة صغيرة ونظرت إليها وهي على ركبتيها العاريتين.. مكياجها جميل، ألوانه رائعة.. شعر ماريا القصير ما زال جميلًا لكنها اختارت إضافة خصلات ملونة إليه.. ثوبها الوردي الهادئ يصرخ بأنها ليست نجمة فحسب بل نجمة وعروس.. هل يُخرج لها من جيبه "دبلة" يضعها في أصبعها؟

لا تعلم.. كل ما تعلمه أنها ليلة عمرها! تعلم أنها ستخبره أن أمها لم تمت وأنها لا تعلم لِمَ تخشاها وأحيانًا تكرهها.. تخبره عن قصص جدتها لها وعن قسوة حميدة وإهاناتها لزوجها وكيف أن هذا جعله يموت كمدًا بعد أن كالت له الإهانة وامتنعت عنه، ستلقي بين يدي ناير كل ما بداخلها.. هو أكثر منها حكمة.. يخلق من بين أصابعه شخوصًا ومصائر.. أما رسمها بشامة صدرها قبل أن يراها؟! ستخبره بكل أسرارها وتفعل كل ما يقرر..

زينب سيصبح ناير البدر سر عمرها الوحيد!

أفاقت من قرارتها على باب السيارة مفتوحًا ورأت كفًا تحبها نحوها ممدودة.. كف ناير وأصابعه تعرفها من أكف الدنيا!

وقفت أمامه وكل منهما يسأل هل كان الآخر بهذا الجمال طوال الوقت أم أن قرارًا يعلنانه بعد ساعات هو ما رسم على وجهيهما هذا البهاء!

حين رأت زينب وداد قالت دون تفكير:

طنط وداد.. أنتِ أجمل من كل المرات..

ابتسمت كلتاهما ليس للكلمات، ولكن لأن كلمة "طنط" أصبحت تخرج من شفاه زينب كأنها كانت في قاموس لغتها منذ الميلاد.. توسطهما ناير وانطلقا إلى حيث مصاعد الموقف..

خابره الكبير يخبره أنه في انتظارهما..

حين أُغلق عليهم باب المصعد شعروا جميعًا أنه يأخذهم إلى السماء التي ما حلموا يومًا بالصعود إليها.. للمرة الأولى لم يستاء حين فُتح الباب وتلقفهم المصورون، كان تصويرهم لها أكثر وكان التفافهم حولها أكبر..

ابتسم ناير في هدوء ومضى بأمه نحو القاعة الكبيرة وفي الطريق إليها رأى السمنهوري والكبير يتقدمان

نحوه.. لا يعلم لم التقطت عيناه نسمة تنظر إليه كأنها تلتهم كل قطعة فيه أو تعدها لأن تفعل..

أخذ السمنهوري يد والدته ليتركه مع صحفي أراد منه كلمة متجهًا بها لينتظروه داخل القاعة.. لماذا دومًا أسئلتهم مكررة؟! "هل أنت سعيد بحصولك على جائزة أحسن موسيقى من مهرجان سويسرا؟! هل كنت تتمنى أن تكون الجائزة عن الرواية أو السيناريو؟! هل تكتب موسيقى إن طُلب منك؟".

كان يجيب في ابتسامة متمنيًا لو استطاع هو أن يسأل لكن كلًا لما خلق له!

كان بعينيه يراها من بعيد تبتسم أمام الأضواء وتجيب كأنها حقًا "ماريا" زوجة الدبلوماسي الكبير!

يظنها إن رأت دجاجة الآن رفعت قدميها وصرخت كأنها ما كانت يومًا تحيا بهم ومعهم..

هي الحياة.. حين نقرر أن نرسم لأنفسنا وجوهًا ومشاعر ومبادئ ننسى كل ما كان وإن كان عمرًا وعالمًا وقدرًا!

***

مضى على وصولهم أكثر من نصف ساعة وبين دقيقة وأخرى تسأله حميدة وعطية لم يحبسهما في موقف السيارات؟!

يبتسم ويُجري مكالمة صغيرة يعود بعدها إليهما يخبرهما أن أحدًا إن رآهما قبل الموعد المناسب يأخذها بعيدًا ويصبح من المستحيل رؤيتها!

نسمة أخبرت أجيرها أن يبقيهما في "جراج" المول حتى قبل انتهاء العرض بدقائق، تخشى أن تسمع الأم أو تشاهد شيئًا من العرض فتعلم أن ما رأته كان تصويرًا.. أيضًا تريد دخولها أثناء التصفيق وقبل التقاط الصور.. أعدت هاتفها للتصوير لتنشر فضيحة لقاء من أسماها "بيبا" بأمها بائعة الطيور..

السمنهوري ساعدها لكنها دفعت وحدها ثمن المساعدة من جسدها رغم أن كليهما إلى الفضيحة وسقوط فيلم الكبير يحتاج!

يسقط الفيلم بعد نشرها لصور اللقاء وادعاء الممثلة موت أمها..

لن يصدق أحد دور البريئة العاشقة الذي تراه على الشاشة..

لن يصدق إنسان أن فتاة تهجر أمها لفقرها وعوزها مدعية موتها هي امرأة تنذر روحها لإنقاذ أطفال كمبالا وتعليمهم مع حبيبها الطبيب..

طلبت أجيرها ووضعت الهاتف على شفتيها وقالت:

- "الآن"!

***

السمنهوري الذي يجلس على يسار الكبير هو الآخر ينتظر "الآن" منذ شهور.. منذ سرق الكبير القصة التي أحضرها وأخرج الفيلم الذي تمنى إخراجه.. لا ينكر أن ما فعله وما يراه على الشاشة أكبر من كل ما كان سيفعله وإن مزق نفسه في الإخراج تمزيقًا، لكن أليس هذا سببا آخر لينتظر "الآن"!

الكبير لن يفلس، حتى إن نجحت خطتهما وسقط الفيلم وعزف عنه الجمهور لثقته بأن نسمة ستشعل بالقصص والصور مواقع التواصل الاجتماعي، من قال إنه يريده مفلسًا؟!

حبس أنفاسه وهو يرى باب القاعة يُفتح ويرى أمها تدخل بينما الجميع أنفاسه محبوسة مع كلمة النهاية.. حين علا التصفيق وأضاءوا أنوار القاعة وقف الجميع لتركض حميدة نحو الصف الأول حيث يجلس ثلاثتهم..

كانت بيبا مشغولة بالنظر إلىناير الذي التقط الراكضة نحوهم بطرف عينيه، وسمعته وداد يقول في ذهول:

أمك لم تمت..

استدار الكبير وزينبه إلى حيث ينظر ليجدا حميدة تُخرج من جيب جلبابها سكينًا..

صاحت الابنة وصاح عطية واستدارت حميدة نحو ابنتها تريد أن تغمد السكين في صدرها.. لم يرغمها أحد على الخروج من الفيوم، لم يخطفوها..

هي لحظة خاطفة لا أحد يعرف بدايتها من نهايتها لكن كل اللحظات الفارقة في أقدارنا مجهولة الكنه والتفسير.. تذكرها ناير وفتح الكبير فمه في ذهول..

لم تمت! أمها لم تمت..

حاولت أن تغمد السكين في صدر ابنتها لكن لا تستطيع.. لا تقتل دجاجة ربتها فكيف تقتل من تكونت في أحشائها؟!

صاح الكبير يقول "حميدة"، واستدارت نحوه تغمد سكينها في أول مكان طالته يدها وهي تصيح:

لعنك الله.. لعنك الله في الأرض وفي السماء!

***

انثنى السمنهوري على ناجي ومعه ناير يحملانه وسط الهرج الكبير إلى خارج القاعة..

نسمة رغم ذهولها أرسلت كل ما صورته إلى أصدقائها ليبدأوا حملتهم، وضعت صورة لناجي يسقط في دمائه على صفحتها وكتبت "أم بطلة ماريا تقتل المخرج في حفل فيلمه الخاص!".

عطية كان يتراجع بعيدًا عن زوجته، سيأخذوهما إلى قسم الشرطة من جديد، لن ينجوا أبدًا، هي تهمة قتل هذه المرة!

لحق به بعض أفراد الأمن وأمسكوا به هو الآخر حين صاح أحدهم أنه كان بصحبة حميدة.. وحدها وداد تمالكت نفسها واقتربت من زينب وقالت في ذهول:

هل كنتِ تعلمين أن أمك على قيد الحياة!

لم تعلم بماذا تجيبها، كان المشهد أكبر من أن تؤدي فيه دورًا ترضى عنه، فتحت عينيها تنظر إلى ذعر وداد واستدارت بهما ترى حدقتي حميدة بلا حياة.. ماذا يفعل عطية معها ولماذا يرتدي ثيابًا غير ما اعتاده؟!

أعادت وداد عليها ذات السؤال وحين استدارت برأسها نحوها وجدت أمين شرطة يدخل متجهًا إلى أمها وما زال كل من هناك يلتقط بهاتفه لهم صورًا..

يجب أن تفعل شيئًا.. شيئًا تحافظ به على ناير وأمه، شيئًا لا يقتل نجاحها ويدمر صورتها..

حين أمسك أمين الشرطة بأمها ووضع في معصمها قيده الحديدي اختارت زينب الهرب منهم أجمعين.. سقطت تحت أقدامهم جميعًا مغشيًا عليها!

***

استدارت إيمان في فزع حين سمعت يوسف يدخل عليها يمسك بهاتفه في يده ووجهه غارق في الدمع، حين رآها صاح يقول:

بابا..

لم تفهم ما قال، لم تفهم كلمات نسمة على صفحتها، ألقت بالهاتف في سماء الغرفة ونهضت عن فراشها تضع على كتفيها أول "جاكيت" وأمسكت بكف ولدها دون أن تكترث لما يرتديه وصاحت "إلى السينما"..

في الطريق حادثت السمنهوري، أخبرها دامعًا أن زوجها في غرفة العمليات، قبل أن يصلا المستشفى كانت جودي تحادثها باكية.. لا تعلم ماذا تقول لابنتها، لا تعلم ماذا تقول لولدها أو قلبها، ما تعلمه أنها يجب أن تحادث كل من تعرفهم من أطباء ليسبقوها إليه وكل من تعرفه من معارف ليهتموا به..

بدأت برأسها تستعد لحجز طائرة تنقله إلى أي مكان في العالم.. استدارت تنظر إلى ولدها تقول في حدة وقوة:

لا تخف، أبوك لن يموت.. لن يموت..

كان على الهاتف مع أخته يقسم لها أنه مثلها لا يعرف شيئًا بعد، التقطت الهاتف من يده وصاحت في صوت عال لتسمع ابنتها أن عليها أن تخرج إلى المطار وتجد طائرة تُحضرها وإن اضطرت إلى ركوب ألف رحلة وألف تغيير..

قالت كلماتها تلك ثم أغلقت الخط دون كلمة أخرى..

هي لحظة يجب أن يكونوا جميعًا فيها معًا، لا أحد يسأل الآخر، فقط أحدهم إلى جوار الآخر..

والفرق كبير جدًا!

***

حين غادرت إيمان السيارة وتركت بابها مفتوحا ركض خلفها يوسف، صاح موظف أمن المستشفى يخبرهما أن عليهما أن يأخذا السيارة إلى موقف السيارات، عندها رقصت ساقا يوسف في تردد كأنه يفكر ماذا يفعل!

وقفت أمه لتمسك بذراعه في قوة وقسوة تصيح في ثبات لم يره يومًا:

في الأزمات الكبيرة لا نسمع ما يقوله من حولنا، في الأزمات الكبيرة لا نهتم بمال أو سيارة أو قانون.. هل تفهم؟!

أجهش في البكاء لتنظر في عينيه نظرة أقوى تجذبه إلى داخل المستشفى قائلة:

حتى البكاء في الأزمات محرم.. هل تفهم؟!

ترك لها يده وسار إلى جوارها ينظر إلى موظفي الأمن، بعد نظراتها وكلماتها تلك ما نطق أحدهم حرفًا.. سار إلى جوارها بخطواتها السريعة الثابتة وعينيها المفتوحة وبدأ يشعر بالقوة تدب في أوصاله..

نعم.. في الأزمات الكبيرة لا نبكي..

نتعامل معها وحين نجد منها مخرجًا ونعبرها نبكي بعدها كيف نشاء!

***

أسرع ناير إلى الغرفة التي ترقد فيها زينب في ذات الطابق في المستشفى.. كانت أمه تجلس على مقعد إلى جوارها في هدوء وما أن رأت ولدها حتى نهضت لتلقي نفسها بين ذراعيه..

ما حدث أكبر مما تفهمه.. عاشت أعوامًا طويلة على سطح الأرض وظنت أنها تغادر دون أن ترى سكينا ترشق في صدر رجل ومن امرأة بسيطة كتلك التي فقدت قدرتها على النطق بعد ما فعلت.. أكثر ما يؤلمها أن الابنة سقطت أيضًا مغشيًا عليها دون حتى أن تضم

أمها أو تواسيها.. ضم ناير أمه في حنان وسمعها على صدره تقول:

المسكينة حين سقطت ابنتها على الأرض واقتادها رجل الشرطة بعيدًا أوصتني بها وهي حتى لا تعرفني..

هل تصدق، ما أفاقها ولا أنطقها سوى خوفها على زينب!

هدأت وابتعد بها ناير عن صدره مستديرًا ينظر إلى الغافية على فراش المستشفى.. الطبيب أخبره أنها بخير تمامًا وأنها حالة نفسية لا يفهمها وإن لم تفق حتى الصباح يُحضر لها طبيب أمراض نفسية وعصبية..

لحظات طويلة قضاها ينظر إلى وجه زينب ثم أمسك بيد أمه قائلًا:

أوصلك إلى البيت وأعود..

سألته عن الكبير وقال وهو يعبر بها باب الغرفة:

أخبرك كل شيء في السيارة!

حين أغلقا الباب فتحت زينب عينيها في ألم.. أنهكها هذا الدور؟! عبث الطبيب ومن معه بجسدها كثيرًا بين قياس نبض وضغط وحقن أدوية في ذراعها.. تعلم أنها أبلت بلاء حسنًا في دور ما أرادت أن تلعبه ولا تملك سواه..

هل مات الكبير؟ هل يشنقون أمها؟! ماذا يفعل معها عطية؟ ماذا تفعل بأمها؟ هل تعترف بها؟ وهل تملك ألا تفعل؟ هل تنكرها؟ هل تتركها تواجه السجن وحدها؟! إن دافعت عنها خسرت الكبير وإن لم تفعل خسرت وداد وولدها؟! كيف جُنت حميدة إلى هذا الحد؟ إن كانت تعجز عن ذبح دجاجة صغيرة فكيف تذبح رجلا؟!

تشعر أن ناير يعلم أنها في كامل وعيها.. تشعر أنه سيعود إليها.. تحتاجه.. تحتاج عقله وحكمته وبصيرته لكن يجب أن تفكر جيدًا قبل أي كلمة تتبس بها شفاهها.. إن كان الغياب عن الوعي تم رغمًا عنها، زينب يجب أن تختار متى وكيف تعود عنه..

إفاقتها إن لم تكن محسوبة ومدروسة فقدت كل شيء.. تريد نجاحها..

عشقت الكاميرا والأضواء، أدمنت الصور والأحاديث.. لن تترك مشاعر أو التزامات أبدًا تقصيها عن هذا العالم!

هي الآن مسئولة عن امرأة ولدت ولها الحق في الحماية والحياة..

"بيبا" لا يجب أن يحطمها أحد!

***

كان يجب عليه أن يذهب إليها ليس فقط لأنه يريد أن يعرف منها الحقيقة ولكن لأن ناير يعلم أن حميدة سترى الأمرّين في قسم الشرطة.. بسيطة فقيرة حملت سكينا وأشهرته في وجه رجل من كبار رجال المجتمع.. يعلم أيضًا أنها مذنبة لكن حتى المذنب يجب أن يأخذ عقابه في كرامة وعدل!

كان ضابط القسم يعرفه، أخبره أنها لا تقول كلمة عن سبب ما فعلته، هي إما تبكي وإما صامتة كحجر، أرخى ناير رأسه وقال:

اسمح لي بدقائق أحادثها فيها أرجوك.. سأكون محاميها!

نهض الرجل تاركًا الغرفة بعد أن أخبره أنه سيرسلها إليه وعاد البدر يفكر..

قارب عام على الانقضاء.. أين كانت الأم طوال هذه المدة؟ أخبره الضابط أن زوجها تحت الحجز.. أما أخبرته زينب أنها يتيمة؟

ابتسامة صغيرة مريرة طفت على وجهه.. كل ما قالته ماريته كذب في كذب..

رفع رأسه يراها تدخل غرفة الضابط، رغم الإجهاد الواضح على ملامحها وتمزق جزء من جلبابها فإنها بكل ما بقي منها من قوة بصقت في وجهه ثم ابتعدت

بجسدها عنه كأنها تعلمت في هذه الساعات ردود أفعالهم..

رغم ألمه فإن خوفها أسكت بداخله كل الغضب، أمسك بكفها بين يديه بقوة وقال:

لم يؤذ أحدنا ابنتك فَلِمَ تؤذين نفسك؟!

نظرت حولها لتتأكد مرة أخرى من خلو الغرفة وانفجرت تسأله أي كلب هو ليدعي أن بيع جسدها ليس أذى..

انفجرت باكية تخبره أنها ما استطاعت أن تخبر الشرطة عما فعلوه بها وكيف تشهر بابنتها؟!

كانت تصرخ وتبكي وتهذي وتدعو الله عليه وعلى الكبير وكان مذهولًا يسمع ويفهم القليل مما تقول لكنه أشفق عليها كثيرًا.. أخبرته عن صورها عارية وزاد جنونه يقسم لها أن زينب ما فارقت بيت أمه ليلة واحدة.. أخبرته عن شيكات جعلها الكبير توقعها ليضمن بقاءها في شبكة دعارته وأقسم لها برأس أمه ورحمة أبيه أن الكبير ما جعلها توقع سوى استلام أجر كبير عن فيلمها..

لم تسكت أبدًا ولم تهدأ وكان يعلم أن الضابط يعود فأخرج سكينه التي ما كان يريد إشهارها وقال:

جاءتنا زينب ترتدي الأسود وأخبرتنا بموتك!

لا شيء يقتل إنسانا سوى أن يصبح ميتًا في قلب ولسان من أفنى العمر من أجلهم..

زينب ارتدت الأسود وادعت موتها بعد أن أخبرت عطية أنها ستذهب إليها!

تركت أمها على رصيف الذل والانتظار وأعلنت موتها وارتدت ثوب الحداد!

كان يعلم أنها القاضية لكن كان يجب أن يُسكت بركانها ليتمكن من إنقاذ ما بقي منها..

هدأت وربما انكسرت لكنها سمعت، سألها وأخبرته عن أمر زائرها، عن تلك الصور التي تعددت فيها الرجال وعن ذاك الأسمر الذي كان يحتضنها..

أدرك عندها ناير أي مكيدة وقعت فيها حميدة، وأي مكيدة أكبر سقط هو وأمه تحت براثنها!

***

أسبوع مضى وناير يتنقل بين الغرفتين.. تتناوب إيمان وولداها على البقاء مع زوجها، زيارته ممنوعة ودخول غرفته ممنوع والتصوير عدوهم الأكبر..

ثابتة إيمان، استعاد زوجها وعيه وفي طريقه إلى الخروج وكلما سألها عن حميدة أو زينب أخبرته أنها أمور تناقش في المنزل..

أحمق من فجر وسائل الميديا والتواصل الاجتماعي ضد "بيبا"، الفيلم لم يسقط بل منذ الحادثة أصبح الإقبال عليه مجنونا.. يذهبون لمشاهدة بطلة حاولت أمها قتل مخرج كبير فيخرجون مغرمين بأدائها وبإخراجه.. لكن ليس هذا ما يعني إيمان وحده، يعنيها كثيرًا سمعة زوجها وأولادها.. كل القصص والتعليقات تجزم أن الأم اكتشفت علاقة سيئة بين زوجها وبطلة الفيلم، هذا الأمر يشغلها كثيرًا..

أسبوع وناير يدخل إلى الكبير بعد تعهد منه لها بألا كلمة تقال عن الحادثة.. حاول ناير مرة واحدة أن يحدثه عن حميدة وعن خديعتها لكن إيمان لم تدعه أبدًا يكمل حتى بعد أن أخبرها أن السيدة تم تجديد حبسها خمسة عشر يومًا.

"بيبا" لا تتحدث هي الأخرى.. كلما دخل عليها وجلس إلى جوارها أمسكت بكفه وبكت.. أقسمت له أنها بحثت عن أمها في كل مكان حتى فقدت الأمل وظنتها ماتت، أقسمت مرات أخرى أنها خشيت البقاء وحدها في البارودية دون أمها لأنها إن فعلت مزقها رجالها ونساؤها فاختارت اللجوء إليه..

هو أيضًا طلب منها إرجاء الحديث في أي شيء حتى عودتها إلى البيت..

شيء كبير تحطم بينهما، شيء يراه في عيني أمه وكلماتها عن حبيبته.. يتمنى لو يصيح ويخبرها بشكوكه وبما سمعه من أمها وزوجها لكن إن فعل أين تذهب "بيبا" بعد خروجها؟!

لا مكان لها سواهما..

لا أحد في كل نسائه تحمل وجهًا يساوي ما بداخلها.. حميدة الصامدة في حبسها بداخلها كسر لا يجبر.. زينب الصامتة في فراشها بداخلها جبروت لا يهزم.. أمه التي تبتسم بداخلها ألم من اختياره لا يظنه أبدًا يلتئم! إيمان الرقيقة تذهله بقوتها وصبرها وثباتها..

كأن الوجوه خلقت لتغاير ما في القلوب لا لتعبر عنها!

مر أسبوع وجاء اليوم الكبير.. كلاهما يغادر المستشفى ولا يظن أحدهما يرغب في رؤية الآخر.. وحده ناير يتنقل بينهما في صمت وحيرة!

حين دخل غرفة الكبير لم يجد أحدا من ابنيه، وحدها إيمان كانت تغلق حقيبته الصغيرة في هدوء، ناجي كان يجلس على مقعده في سكون مرتديًا ملابس الخروج.. كعادتها ابتسمت حين رأته ومنحته قطعة حلوى من صحن كبير قائلة:

تبقى هنا مع ناجي ولا تتركه حتى أعود..

حين أغلقت باب الغرفة خلفها نظر إليه الكبير وقال:

تلعب دورًا أكبر منها..

ابتسم ناير وقال في مرارة:

نختار ما يناسب قدراتنا من الأدوار، أما الأدوار المفروضة علينا فلا نملك سوى الرضوخ لها محاولين حُسن الأداء!

***

فتحت باب غرفتها في هدوء، ووقفت تنظر إليها في قوة، إيمان تعلم غرفة زينب، رقمها وطعامها وحالتها بل وحدها من أخبرت الطبيب ألا يسمح لها بالمغادرة حتى تغادر في ذات اليوم..

النقود والنفوذ يشتريان كل شيء!

هم دومًا يريدون شيئًا، إن لم يكن نقودًا فهم يريدون وعدًا بدعوة فيها فنانات الشاشات أو مطربي الغناء.. تعلمت إيمان جيدًا..

شهقت زينب حين رأتها واقتربت إيمان منها في هدوء وقالت:

ما زلت أراكِ وأنتِ تعلنين رغبتك في ذبح وتنظيف الحمام نظير تلك المئات بل مازلت أشتم رائحة الريش والدم من أنفاسك..

بعد لحظة صمت أكملت:

تعبنا وأنفقنا كثيرًا لتصبحي "بيبا"!

أمسكت بهاتف زينب الصغير الملقى على فراش المستشفى وأكملت في صوت أكثر حدة:

هذا الجهاز الذي علمتك نقودنا كيف تحملينه لا بد أنه أخبرك كيف يلوكون سمعة الكبير..

استدارت زينب نحوها وما زالت تحمل قميص نومها بين يديها وألقته في الحقيبة، تعبت من الصمت، تعبت من ادعاء الغياب وهي حاضرة، قالت في غضب رغم الخوف:

علمني الأستاذ وأنفق عليّ لكنه كسب من ورائي كثيرًا، أصبحتُ نجمة لكن حدث هذا بجوعي وركضي إلى الاستديوهات ومراقبة ما يحدث وتعلم كل صغيرة قبل الكبيرة..

كانت إيمان تنظر إليها في هدوء وأكملت الشابة في ألم أكبر:

شهور لم أنم إلا ساعات لأستمع لتعليمات ناير وأقرأ سطوره.. كنت أصغر فنانة في التصوير، لم أذهب إلى معهد ولم أدرس أصول التمثيل لكن أكثرهم تألقًا وفهمًا، لم يضطر الأستاذ لإعادة مشهد معي أكثر من مرتين، كسبت يا سيدة إيمان لكن أخذتُ أقل من نصف ما أستحق، كسبت لكن خَسِرتُ أمي، هل تعلمين معنى أن أكون هنا

ولا أستطيع أن أصل إليها لأني لا أعلم هل ذهابي إليها صواب أم خطأ؟!

تهدج صدرها بالألم وقالت كأنها تتمزق:

حتى الرجل الوحيد الذي أحبه خسرته.. يراني جاحدة كاذبة.. زوجك كسب ملايين وأرضى رغبته في العودة إلى الكاميرا وغدًا يتماثل للشفاء ويكسب تعاطف الجميع..

لا أحد خسر سواي وحدي! خسرث كل شيء!

جميعكم تعودون إلى أماكنكم وأنا أبقى العمر ألملم في شظايا ما أصابني وقد لا أعود قطعة واحدة مرة أخرى أبدًا!

لا أمي تعود ولا ناير يثق ولا أمه تقبل ولا تُمحى خطيئتي من سجلي مع الجمهور ما حييت!

ضحكت إيمان ساخرة رغم إشفاقها وقالت:

"جمهور" ألا يكفيك أن أصبح لك جمهور؟!

لمعت دمعة في عيني زينب واقتربت منها ممسكة بذراعها قائلة:

قد تكونين جميلة، موهوبة لكنك أصغر من التفكير.. استعملي جمالك وموهبتك للنجاة.. أنا هنا لأخبرك ماذا

تصنعين!

أنا هنا لتستعيدي ناير ونغفر أنا والكبير لكِ، وأيضًا ليحبك جمهورك أيتها الصغيرة فاستمعي جيدًا لما أقول!

***

حين دخل ناجي غرفته وأغلق الباب نظر حوله في هدوء..

تشتاق بيتك، جدرانه تعرفك، أرضيته التي تطأها بحذائك تمنحك راحة وقوة أيضًا..

لا شيء يوازي وجودك مع أهل بيتك إن كنت تحبهم..

حين خلع ملابسه وأخذ حمامه شعر أنه للمرة الأولى يستحم منذ تلك الليلة.. كانت غرفته في المستشفى جناحا كبيرا به حمام يحتوي جاكوزي ومقعدين، وقف تحت الماء هناك كثيرًا في الأيام الأخيرة لكن لا يشعر أنه حقًا يستحم إلا هنا.. في بيته!

ارتدى البيجاما التي أعدتها له واستدار ينظر إليها.. ما زال وجهها باهتا وملامحها متحجرة..

كأنها جندي خاض معركة شرسة، إن أغمض عينيه لحظة، إن غفا دقائق قد يخسر معركته وربما حياته.. ابتسمت إيمان وهي تراه أمامها، لو يعلم أن هذه الغرفة كانت قفصًا من أشواك مدببة وهو هناك.. لو يعلم أن كل

قطعة فيها الآن فقط تشعر بها تتكسر وتذوب لو يعلم لعلم أن ما بينهما ليس حبًا فحسب.. ما بينهما حياة ومصير!

نظر إليها في حنان وقال:

انتهى كل شيء وما لحقه الدمار أعيد بناءه.. ارتاحي يا إيمان..

بدأت دموعها تسقط في بطء، كاد يموت، كان جرحًا عميقًا في الأمعاء كاد يصل إلى الطحال..

بدأت تستعيد كل ما أغلقت عنه رأسها وعينيها..

وجه جودي الخائف، بكاء يوسف، وجه زوجها في غيبوبته وفي غرفة العناية المركزة..

بدأ صدرها يتهدج وأطرافها ترتعش وهي ترى نفسها على باب العمليات تنتظر خروجه أو رحيله، وجه السمنهورى إلى جوارها وهو يحاول رسم حزن أكبر وقلق أكبر، حتى وجه زينب وهي تبكي وتعدها بتنفيذ كل ما أملته عليها..

ضمها ناجي إلى صدره رغم ضعفه ووهن قواه وعاد يكرر عليها أنه عاد وأنه معها..

أغمضت عينيها على صدره وقالت:

الآن أريد أن أبكي وكثيرًا!

***

يستحيل أن ترقد يومًا على فراشها هذا دون أن تتحسس المكان الذي كان عليه عامر يوم أحضرته إلى غرفتها..

شهور طويلة منذ سفرها وبعد أن استطاع والدها بعلاقاته أن يلحقها بالعمل في أحد أهم منظمات NGO في نيويورك.. شهور تكتب التقارير وتسافر إلى البلاد العربية وتلتقط الصور لكل ما تتعرض له نساؤها من تحرش وتعصب واضطهاد.. رغم حداثة سنها فإنها حققت نجاحًا وشهرة في المنظمة وصفحات الجرائد الأمريكية..

ستعود إلى نيويورك محملة بتقارير عن المرأة المصرية، عن اضطهادها النفسي وغسل رأسها بالموروثات التي تجعلها تحمل فوق رأسها مسئوليات بحجم السماء وتلقى نظيرها تعنتا وإهمالا بأضعاف حجم الأرض.. ستذهب إلى جامعتها، منها ستخرج بصور لا حصر لها..

يظنون أن الجامعة الأمريكية أكثر الأماكن تحررًا، ما زالت فتيات في عمر الزهر فيها يرقصن على حبال شائكة.. فتيات يعتقدن أنهن خلقن فقط للتزين وإيجاد عريس من نفس المكان كأن لا حق لهن حتى في اختيار

آخر.. في جامعتها فتيات المنح الدراسية القادمات من مدارس الحكومة بدرجات عالية.. كانت تراهُن يذوبن في جحيم الاستنكار والسخرية.. السخرية من مظهرهن ومن لغتهن الإنجليزية بأخطائها الشائعة.. كثيرات رغم تفوقهن.. رغم انتحارهن على صفحات الكتب وأروقة المعامل، رغم المنحة بإكمال الدراسة مجانًا في جامعة تصل نفقاتها إلى أكثر من نصف مليون سنويًا.. أكثرهن ينسحبن من الجامعة..

الفشل ليس رسوبًا، الفشل ليس غباء.. الفشل في أكثر الأحوال ضعف وحسرة على النفس..

كلها ظواهر تدرسها وتكتب عنها وترفع بها تقارير.. وفي النهاية تعود إلى ذكرياتها.. إلى احتياجها..

كانت تغضب منها لكنها أكثر تصالحًا..

جودي تعلم أنها إنسان.. إنسان يحيا في غابة.. تحاول وستبقى تحاول أن تحيلها إلى بستان.. تعلم أنها ترحل وترحل بعدها أجيال ولا تتحقق الأحلام لكن يومًا يحدث لأنها ببساطة إرادة الله وكلمته.. يومًا قد تلتقي رجلا مثلها.. وربما يومًا تلتقي عامر وقد أدرك حقيقة معركتها..

الحب لا يتعارض مع قضيتها ونضالها.. كما تحاول أن تُعلِّم النساء كيف يحافظن على الحقوق والكرامة

والوقوف أمام سطوة الرجل ربما يأتي يوم تلتقي عامر وهو على استعداد للدخول إلى عالمها والعمل معها..

لو يعلم أنها لم تنسه ولو أمكنها فقط أن تعلم إن نسيها أم ما زال يريدها..

هل حقًا أقامت الدنيا ولم تقعدها لأنه اتخذ قرارًا فرديًا بالزواج منها؟!

هي تراكمات قديمة اشتعلت بداخلها أعوامًا.. من كل خادمة عملت في بيتهم، من كل مربية جاءت، من كل عاملة أو فرَّاشة في مدرسة دخلتها.. من على وجوههن، من خنوعهن تكونت بداخلها أكوام من الرفض.. أكوام ألقى عليها عامر قطرة الزيت الأخيرة لتشتعل حرائقها وتكون هي وهو أول الضحايا!

مولدها على أرض تلك البلاد لم يجعلها منهم.. ما زالت لا تشرب الخمر، ما زالت تبحث عن وجوه الشرقيين وتأنس إلى رفقتهم.. ترنو روحها إلى البقاء وعدم العودة، تريد أن تستمتع بذراعي والدها كل صباح..

كاد يموت وكادت تفقده.. بل ترنو إلى كل من ظنت أن في ابتعادها عنهم استقلالًا لها وإنجازًا..

ليته كان هنا! لو أنها حتى تعلم عنوانه في كندا لزارته في إحدى مرات البكاء التي كانت تنتابها في شوارع نيويورك.. حاولت كثيرًا أن ترسل له رسالة أو تحادث

أمه تطلب عنوانه لكن إن فعلت يكن اعترافًا منها أنها أخطأت.. كل الظلم وكل العنصرية وكل قضاياها الكبرى دواؤها المواجهة..

الكبرياء كالخوف كلاهما سم قاتل!

استدارت في فراشها ومدت يدها تخرج علبة صغيرة أرسلها لها عامر قبل الرحيل وفتحتها في سكون.. أرسل لها "دبلة" من الذهب ومعها ورقة صغيرة كتب فيها..

"ما زالت رغبتي في الزواج منك خطيئتي التي أتمنى ألا تغفريها"!

أعادت الورقة الصغيرة داخل العلبة الحمراء وضمت ركبتيها بذراعيها إلى صدرها وتكورت تتذكره وتستعيد ملامحه وصوته..

لم تستدر حين سمعت باب الغرفة يفتحه أحد، ربما ظنته وهمًا.. ربما تمنته عامر.. لم تستطع أبدًا أن تستدير، لكنها شعرت بيده على ظهرها بعد لحظات يهمس باسمها.. عندها فقط استدارت واعتدلت، رمت بنفسها إلى صدره وبكت ككل ليالي البكاء وأخذت تردد:

بابا..

تركها على صدره تبكي حتى هدأت وبعد لحظات قال في صوت هادئ:

لا تسافري أرجوكِ ابقي معنا..

رفعت عينيها وعادت تحتمي به من جديد وسمعته يقول:

أجريت اتصالات عديدة وبإمكانك الالتحاق بمنظمة حقوق الإنسان هنا أو حتى ب United nation في مكتب القاهرة..

كطفلة صغيرة تعلقت بصدره.. لو أنها تعلم ما تريد، لو أنها تُفرغ رأسها من كل ما قرأت وسمعت وآمنت به وعادت مجرد فتاة كبنات العرب تتزوج وتحب وتنفق من ثروة أبيها.. أو لو أنها تستطيع أن تقتل هذا الشوق وتقتلع هذه الجذور لاستطاعت أن تكمل حياتها هناك.. تائهة بين جودي الكبير وبين جودي المثقلة بهموم وقصص ليتها ما سمعت عنها..

اعتدل بجسده قليلًا فما زالت بعض الأوضاع تؤلمه، فرد ذراعه لتضع رأسها على صدره وتحدث ناجي في هدوء وألم.. تحدث معها كأنه يتحدث مع نفسه.. لماذا يحدث لهم كل هذا؟! أخبرها عن بداياته، عن فقره القديم، عن انتحاره في العمل بكل ما كانت أمها تملك.. أخبرها أنه ظن ابنيْه يكونان سعيدين.. يوسف معتزل الجميع، وهي تركت كل شيء ومضت..

حدثها عن زينب وفقرها وبؤس حياتها وكيف أصبحت، أخبرها أنه كان يوصي ناير وأمه بها كأنها ابنته فِلِمَ جاءت أمها تريد قتله؟! ولِمَ حين تحقق حلم عمره القديم كسروا فرحته وألقوه جريحًا! كأنه يحادث صديقًا أو حكيمًا يريد منه تفسيرًا.. وضع كفه في طيات شعرها يمسح عليه وأكمل يسألها لماذا يحبها عامر وتحبه ورغم هذا تفرض عليه وعلى نفسها العذاب.. قبل أن تجيب وبعد أن شعر برعشة جسدها رجاها أن تتركه يكمل فما زال لديه ألف سؤال..

"من في عمرك تحلم بثوب وقنينة عطر وربما عمل أو سيارة.. ربما حب أم أو اهتمام أب.. لمَ يمنحك الله كل هذا وأكثر وتتركينه لتعملي في آخر بلاد الدنيا وحدكِ؟".

تململت واعتدلت بعيدًا عنه واستدارت تنظر إلى وجهه وقالت في حب وهي تشير إلى رأسها:

حين نؤمّن طعامنا ونقودنا، حين نخرج من صراع القطيع هذا يعمل أكثر..

أنت الفن قضيتك لأنك تحبه لأنك مؤمن به.. لأنك تراه كما لا يراه غيرك، حاولت المجنونة قتلك وسيحاول آخرون الإطاحة بك..

سكتت لحظات وأكملت:

لأنني أنظر إلى نفسي وكل بنات الدنيا بعين أخرى أتعذب.. فقدت عامر وأصبحت بعيدة عن بيتي وأمي وذراعيك..

كبرت ابنته، كبرت بعد السفر أكثر مما كانت، يراها تشيخ رغم ملامحها الصبية.. في هدوء جذبها إلى صدره من جديد وأخبرته أنها ستعمل في المنظمة وتجرب شهورًا أخرى..

بعد سقوط الضحايا القضايا تكبر وتصبح أكثر استحقاقًا للاستمرار والجهاد!

***

بعد طرقات صغيرة على باب وداد فتحت زينب الباب ودخلت على استحياء، كانت ترتدي ملابسها كاملة رغم أنها التاسعة صباحًا.. اعتدلت وداد في فراشها حين رأتها، لم تتحادثا منذ خرجت من المستشفى بالأمس لكنها أحسنت استقبالها فرغم كل شيء ما زالت تشفق عليها.. تقدمت زينب نحوها وجلست على حافة الفراش وأمسكت بيدها تقول:

تعاهدت مع السيدة إيمان على القيام ببعض الأمور نظير مساعدتي على إيجاد سكن..

التاعت عينا وداد قليلًا، رغم أنها بعد الحادث علمت أنها ترى زينب أخرى غير التي ظنت أنها أحبتها إلا أنها ما

زالت تحبها وتحب حب ناير لها.. ربما ما زالت تريدها أن تبقى..

أكملت الزائرة في هدوء:

لم يكرمني أحد كما فعلتِ ولم...

سكتت لحظة ثم أكملت في صوت مرتعش:

لم أحب أحدا سوى ناير ولا أظنني أفعل رغم يقيني أنه وأنك...

اعتدلت وداد تقاطعها وتخبرها أنهم بحاجة لأن يفهموا لا أكثر.. بحاجة إلى وقت بعد الفهم..

كانت تتحدث بدافع من الإشفاق والحنان لكن بداخلها قلب أم غاضبا على أم أخرى ادعت وحيدتها موتها.. كان بداخلها شيء يرفض أن تكون فتاة بهذه القسوة حبيبة وزوجة لولدها..

كانت كلماتها متقطعة لا قوة فيها ولا حرارة وانحنت زينب تضع على رأسها قبلة وقبل أن تخرج من الغرفة قالت:

أغادر في نهاية الأسبوع..

في صوت مبحوح قالت الأم:

وناير؟!

ابتسمت زينب ابتسامة صغيرة مريرة وقالت:

أهبط إليه الآن وأرجوه أن يأخذني إلى أمي!

***

كل من مروا بهم في طريقهم إلى قسم الشرطة حيث تُحتجز حميدة عرفها، حتى ضابط القسم صديق ناير التقط معها صورة وأخبرها أنه سيذهب لمشاهدة "ماريا"..

أصبحت بيبا مشهورة حتى لمن لم يشاهدوا الفيلم أو سمعوا عن الجوائز التي حصدها.. صورها وصور أمها لحظة سقوط ناجي مضرجًا بدمائه لا تظن أن أحدًا في البلاد لم يرها أو يعلق عليها..

يلعنونها على صفحات الميديا ويتهمونها بالسقوط والقسوة ورغم هذا يقفون لها احترامًا ويلتهمونها بأعينهم ولا تملك إلا أن تبتسم لهم وتقف إلى جوارهم تنظر إلى كاميرات هواتفهم وهي تعلم أي كلمات وتعليقات تكتب أسفل هذه الصور..

تنهدت بعد صورتها مع الضابط وخطفت نظرة سريعة إلى ناير الذي أرخى رأسه وجلس على مقعد ينتظر وصول أمها..

دخلت حميدة ووقف الضابط يرصد بعينيه نظرات اللقاء، وحده ناير سأله أن يخرجا ويتركا المرأتين معًا للحظات.. تحرك رغمًا عنه في ابتسامة وأغلق خلفهما الباب..

ازداد نحول حميدة بعد تجديد الحبس الأخير، بعد خطوات متهالكة رمت نفسها على مقعد وجدته، لا أحد سوى الله يعلم إجهادها وذلها وجوعها في زنزانة الحبس..

كانت زينب تجلس على المقعد المقابل لها تنظر إلى رأسها المنكس وجلبابها المتسخ..

مشاعرها متضاربة، تتمنى لو تنحني وتقبل قدميها وتعتذر لها وفي ذات الوقت تتمنى لو تصيح ألف صيحة ألم.. تحاول أن تقول شيئًا ولا كلمة تلين لها..

بعد لحظات سمعت أمها تقول في صوت خائر ضعيف:

ورثتِ عن أبيك وأمه القسوة.. طردتِ أمك وتركتها في الشارع ساعات وحين أرسلت لكِ من يرجوكِ عودتي ارتديتِ ثوبًا أسود وادعيتِ موتي ورحلتِ..

همت زينب أن تفتح فمها لكن الجريحة أكملت قائلة:

أنا ورثتِ عن أمي الغباء..

قاطعتها ابنتها قائلة:

لماذا تلجئين إلى القتل دومًا؟!

رفعت حميدة عينيها للمرة الأولى تنظر إلى وجهها في ذهول وانطلقت زينب في صوت خفيض قاس تكمل:

قتلتِ زوجك بالتعالي والسخرية والإهمال، كنت تعلمين أنه مريض قلب.. لم تمر ليلة دون أن تذليه بفقره وقلة حيلته و...

سكتت كأنها تخجل من أن تكمل لكنها قالت:

وضعفه عن إشباع...

نظرت حميدة إليها في حدة ورفعت كفها كأنها تهم بضربها وارتفع صوت زينب:

سكينك لم تقتل ناجي لكن إذلالك قتل أبي..

أمسكت حميدة بذراعها في ألم وقالت:

أهذا ما كانت أمه تلقنك إياه؟ ورثتِ عن أمك الغباء أيضًا.. إن كان يعنيني كثيرًا أمر ضعفه كنت لألقي بنفسي بين ذراعي أول رجل بعد موته، هو من كان يعلن اشمئزازه من معاشرتي..

نظرت إليها زينب في ذهول وصاحت حميدة تخبرها أنها بقيت لترعاها، بقيت وقتلت في روحها الحياة لتمنحها لها إلا أنها نظرت إليها ساخرة وقالت:

لهذا تزوجتِ عطية عند رحيلي؟! عطية الأشعث؟! هل.. هل تراه عوضك الحرمان؟! أسكنت رجلًا لا يستحق في بيت لا تملكينه وعلى فراش رجل قتلتيه تمارسين...

سكتت.. لا تستطيع أن تقولها.. أمها لا تفهم ولن تفهم..

تحاملت حميدة على نفسها ونهضت عن مقعدها تمضي نحو الباب، استدارت لتجد دمعة تلمع في عيني ابنتها، ظنتها بكاء على والدها القتيل لكن لا أحد سوى زينب يعلم أنها كانت دمعة حيرة وشوق وضياع..

نهضت عن مقعدها تتوجه إليها، ستخبرها أنها لن تتركها، تخبرها أنها رغم كل ما فعلته مع أبيها ما زالت أمها.. ستقسم لها ألا أحد مس جسدها.. ستضمها كما ترى وداد تضم ناير..

أبوها مات وجدتها أيضًا، أمها باقية، حميدة من بعرقها أبقتها على قيد الحياة.. ستفعل وتقول حين تقترب منها وإن عجزت تعانقها علَّ العناق يكسر حواجز ويشفي أوجاعا..

فتحت حميدة الباب ونظرت إلى ابنتها قائلة:

كنتِ على حق.. أُمكِ ماتت!

***

إيمان لا تعبث أبدًا..

أرسلت لها سائقا وسمسارا صاحبها خمسة أيام حتى استقرت على شقة صغيرة اختارتها زينب لقربها من بيت ناير وأيضا لأنها تشبهها كثيرًا..

شقة في شارع 73 بالمعادي القديمة يفصلها عن بيته شارعان، غرفة نوم صغيرة مطلة على حديقة البناية القديمة وريسبشن كبير يطل على أشجار الشارع العتيقة..

وقعت عقد الشقة وفي هدوء أخذ سائق إيمان كلًا من العقد والمفتاح في يده، حين هبطت أمام بيت وداد ابتسم وقال في أدب:

غدًا أسلمك العقد والمفتاح وأنقل أشياءك..

نظرت إليه وقالت في حزم:

بل اليوم.. سأبيت فيها..

لم تنتظر منه ردا، أغلقت باب السيارة وقبل أن تدخل أرسلت رسالة إلى إيمان قالت فيها "الليلة أبيث هناك.. في بيتي بعد إنجاز مهمة المساء وهي آخر ما طلبته مني"!

دخلت في هدوء إلى حيث شرفة ناير، تعلم أنه نائم وتعلم أنها ربما تكون المرة الأخيرة التي تراه فيها.. أبرمت الصفقة مع إيمان لتشتري مستقبلها.. وعدتها بعقد فيلم توقعه في الصباح بأكثر من خمسة ملايين..

نظرت إلى شرفته التي خرج إليها منها ذات مرة وتحسستها بأصابعها لتقف عيناها على أصابعها.. في أحد هذه الأصابع كان يجب أن يكون هناك دبلة تحمل اسمه..

منذ خروجها من المستشفى يعاملها هو وأمه بتحفظ كبير.. هل يحبها حقًا؟! هل يغفر لها ما حدث وهل يغفر لها ما سيحدث هذا المساء..

سمع كلمات حميدة حين فتحت باب ضابط القسم، رأته بعينيها يربت على كتفي أمها يخبرها أنه لن يتركها حتى يُخلى سبيلها..

إيمان وعدتها أنها لن تدع حكمًا يطالها..

رائعة إيمان.. رائعة هي النقود والسلطة لكن ورغم شعورها أنها قد تصبح في قوة إيمان فإن غصة كبيرة في القلب لن تبرحه..

غصة اسمها ناير!

هل تطرق النافذة؟ هل توقظه، هل حقًا تستطيع لو أنها تلجأ إلى ذراعيه وتخبره عن كل شيء.. هل تستجديه الحب والزواج.. لا تمانع لكن هل تراه يقبل؟!

أرخت رأسها واتجهت إلى سلالم العمارة وبعد خطوات ومن خلف ظهرها فتح النائم شرفته يرقبها وهي تبتعد.. حمدًا لله أنها لم تطرق بابًا أو شرفة.. لا يريد أبدًا صدامًا معها.. ما بين قلبيهما من التصدع والشروخ ما يكفي..

زينب يحب أن تبتعد حتى لا تموت بداخله وهي التي خُلقت من بين أصابعه!

***

كانت ترتدي قميصًا في لون سماء يوم ربيعي، شعرها الذي ما زال قصيرًا عاليًا يتدرج حتى نهاية عنقها كان ناعما لا كسرة فيه، الكسرة الكبيرة كانت في عينيها وهي تنظر إلى كاميرا البرنامج الشهير، كفاها متعانقتان في كبرياء على ركبتيها العاريتين أسفل "جوب" سوداء واسعة تقف على نهاية فخذيها..

رفعت زينب وجهها إلى الكاميرا وقالت في صوت هادئ ناعم كأنه ما كان زمنًا يصيح في أزقة الفيوم وخلف دجاجات السوق والسطوح:

حين رآني الأستاذ ناجي منذ عام اتفق مع والدتي على دخولي عالم السينما.. عاهدها أن أكون ابنته لا في

مقامها فحسب وأشهد الله أنه ما خان القسم ولا نكث العهد لحظة..

سكتت لحظة ومن بعد تنهيدة صغيرة أكملت:

عالم السينما عالم لا يعلم أحد ما خلف أبوابه سوى من طالت قدماه رماله المتحركة، أمي لم ترفض.. أمي وافقت، كل ما اشترطته كان حصولي على شهادة الثانوية العامة خاصة بعد تعثري أعواما في الدراسة..

لم أنجح، انهارت أمي التي نذرت نفسها وعمرها لي وحدي بعد موت والدي وأنا طفلة، خرجت هائمة في حزنها، بقيت أبحث عنها أيامًا طويلة، أدركت أنها ماتت.. ومن في بلدة فقيرة كبلدتنا حقًا يخرج ويعود؟! من يهتم لأمر امرأة فقيرة مثلها أو فتاة لا قيمة لها مثلي؟! بكيتها كثيرًا وحين أتعبني البكاء أدركت أني سأموت جوعًا وهذيانًا وعطشًا وانتظارًا.. كنت أراها تدخل البيت وأسمع صوتها يناديني، أفتح الباب كل عشر دقائق ظنًا مني أنها تقترب منه..

تكورت دمعة في عيني زينب وفي صوت متهدج قالت:

كان يجب أن أبتعد عن شبح شوقي إليها، لم أجد سوى الرجل الذي ارتضت هي أن تسلمني إليه.. حضرت إلى الكبير.. السيدة إيمان زوجته احتضنتني.. أفنيت نفسي

في الدروس والركض خلف الاستديوهات والسفر للتصوير والاستماع إلى تعليمات الأستاذ ناير..

رفعت أصابع كفيها أمام وجهها وقالت:

لم تمر ليلة دون أن أخبئ وجهي خلف هاتين الكفين وأبكيها وأدعو لها.. حين رأيت أمي في دار السينما أصابني ذهول.. لم أكن أعلم هل أتقدم وأضمها أم أنها ضرب خيال وإن فعلت يظنوني مجنونة ويتحطم نجاح الرجل الذي آمن بي ومنحني فرصة العمر في نقاء وطهرة.. كنت أنظر إليها وأتمنى لو يخبرني أحد أنها هي وأن ما أراه ليس في رأسي فحسب.. لا أعلم ماذا حدث أو من أين خرجت تلك السكين أو كيف رُشقت في صدر الكبير؟! لكن أثق أن العدالة تثبت أني وأمي بريئتان.. هي من تهمة التعدي وأنا من تهمة الخيانة والجحود..

كل من كان في استديو البرنامج الكبير كاد يترك الكاميرا أو يخرج من خلف موقعه ليربت على كتفيها أو يأخذها بين ذراعيه..

مذيع البرنامج أرخى رأسه في ألم وقال:

العدل وإن غاب حاضر.. إن كان في الأمر مكيدة يكفي أن الله جعل من القصة سببًا لأن يعرف فنكم الجميع وأن يحقق مشاهدة أكبر ونجاحا أعظم، ألا يرضيك هذا وأنتِ بعد شابة في الخطوة الأولى؟!

كأنها شردت بعيدًا، كأنها تفكر عادت تنظر إليه في ابتسامة ما زال الشجن يسكنها:

يعنيني أن أعلن أمام الله أن الكبير فنان حقيقي ومن كان الفن في دمه هو أطهر من كل ادعاء..

يعنيني أن أعلم حقيقة ما حدث.. اطمئن إلى أن أمي بخير.. أن أعود إلى ذراعيها بعد أن أيقنت أنها بخير ولم تمت.. يعنيكم ويعنيني أن أكمل هذا الطريق كما بدأت..

لا شيء أملكه سوى موهبة أرادها الله لي ومحبة من الجمهور أحافظ عليها حتى النهاية.. عهد أمام الله وأمامك أتخذه!

***

ابتسم ناجي حين أنهت زينب كلماتها، استدار إلى إيمان التي كانت تمد يدها بحبة الدواء وكوب ماء وقال مهللًا:

"ماستر سين" موهبة رائعة لم أر مثلها.. سبحان من وضعها على دربي لأضعها على دربها..

أجابته دونما اكتراث:

يجب أن توقع معها عقد العمل القادم..

هز رأسه بالموافقة وقال:

هي والسمنهوري لكن هل تراه ناير يكون معنا؟!

من صحن صغير أمامها التقطت قطعة بسكوت وضعتها بين شفتيه وقالت في بساطة:

قبل أن تفكر في البدر، يجب أن تفكر في حميدة ونقرر.. إن أعلنت أنها كانت تنوي قتلك أَحْرَقت بطلتك يا ناجي وفَقَدتْ مصداقيتها..

نظر إليها لحظات، هي على حق لكنه قال:

كادت تقتلني! ألا تفكرين في الانتقام منها؟

ببساطة أكثر أجابت:

قتلتها كلمات ابنتها يا ناجي، أنت وإن تنازلت ما زال حق القانون يقتص من تلك الحمقاء! دعها تخسر وحدها!

***

ابتسم ناير ابتسامة واسعة ومد يده يغلق جهاز التليفزيون ثم رفع رأسه ليتبادل نظرة طويلة مع أمه التي هزت رأسها في نهاية الأمر قائلة:

أخبرتني أنه مطلب من زوجة الكبير..

قال في ألم:

ومازلتِ تصدقين؟!

لم تعرف وداد بماذا تجيب لكنها أكملت في هدوء:

قبل خروجها أخبرتني أنها سترحل إلى بيتها هذه الليلة..

أوجعته الكلمات أكثر مما أوجعه الكذب ونكران ما فعله وفعلته أمه معها..

ترحل!

لن تقف على شرفته مرة أخرى! لن تضع رأسها على صدره بجوار جيتاره.. لن يحاول أن يقرأ لها بعضًا من أشعار يحبها ولن تحاول أن تستمع أو تقرأ!

هز كتفيه في هدوء ونهض عن مقعده لينحني ويقبل رأس أمه كأنه يعتذر عن كل شيء..

حين وصل إلى بيته أشعل ضوءا خافتا كعادته، أمسك بجيتاره يعزف عليه لحن الفيلم الذي حاز جائزة من أكبر جوائز المهرجانات العالمية.. أغمض عينيه ليرى كل ما كتبه وكل ما كان بينه وبين ماريا..

دون أن يفتح عينيه مد يده إلى الطاولة الصغيرة الموجودة إلى جوار أريكته يتحسس هديتها الباريسية..

قلم "كريستيان ديور" عاهدها أن يكتب به أول سطور روايته الجديدة، لحظتها أخرجت من حقيبتها ورقة وقالت: "بل اكتب اسمي وكلمة لي"..

ارتفع عزفه كأنه يهرب من تلك الكلمات التي كتبها.. كان يعنيها لكن لا هي تستحقها ولا يظنها تفهمها!

يعرف نقر أصابعها على شرفته، لن يستطيع أن يدعي النوم..

تسمع صوت موسيقاه لكن ماذا أحضرها وكيف تجرؤ على الوقوف أمامه؟! فتح عينيه ونظر إلى الشرفة.. خيالها خلف الشرفة يناديه.. ستغادر بيته ولا يعلم إن كان يراها بعد اليوم، فكيف لا يجيب؟!

ألقى بجيتاره إلى جواره وأسرع إلى الشرفة يفتحها.. كانت تنظر إليه في رجاء وقالت:

من يكتب كما أنت تكتب يختلف.. أنت عنا جميعًا تختلف!

كان حائرًا يتمنى لو يفتح لها صدره لترى نزفه لكن كما يعرف كيف يكتب لا يعرف كيف يتحدث وأكملت:

لن أتحدث عن شيء، لن أقسم ولن أبرر فأنا أعلم أني بت في عينيك كاذبة..

سكتت لحظة تغالب دمعها وقالت وهي تمسح ما خانها منه وسقط:

حتى هذه أعلم أنك تظنها كذب وادعاء، أنا فقط أرجوك دقائق.. دقائق أخيرة..

لا أظن بعدك صدرًا يضمني أبدًا!

***

رجته كثيرًا أن يصعد بها وبحقيبتها إلى بيتها، تريده أن يدخل البيت.. أن يترك بين الجدران أنفاسًا منه.. يرسم على الأرض وقعًا من خطواته.. رفض ناير أن يفعل ولم تستطع أن ترجوه أكثر.. يكفي أنه يعرف عنوان البيت..

قبل أن تدخل إلى بوابة البيت وقبل أن تبتعد عن سيارته وضعت يدها على نافذة السيارة تسأله:

هل تأتي يومًا؟!

بكت طويلًا على صدره حين فتح لها شرفته منذ ساعات وأدخلها.. حكت أشياء كثيرة عن أمها وطفولتها، عن خوفها، عن زوجة الكبير.. لا يذكر كلمة ولا تظنه أو يظنه يصدق حرفًا لكن لا يعلم إن كان يومًا يأتي..

قال في صوت خفيض وصادق:

أنتِ صغيرة وجميلة، دومًا سينظرون إليك على أنك نصف شريفة وضعْف أنثى.. أنا وأمي دومًا في ظهرك..

قالها وأدار محرك السيارة ومضى..

دخلت بيتها الجديد تنظر حولها، شعرت للمرة الأولى منذ مولدها أنها حقًا طفلة ووحيدة..

جدتها كانت معها وحين رحلت كانت حميدة رغم السدود معها.. حين غابت كانت وداد وناير معها.. في هذه اللحظة فقط زينب وحدها.. بيت كامل لا أنفاس فيه سوى أنفاسها..

عمر قادم تخطو فيه وحدها..

شعرت بريح باردة عاصفة في صالة البيت الواسعة، دخلت حجرة النوم ورمت بنفسها على الفراش، تكورت كأنها قطة صغيرة رموا عليها أطنان ماء بارد بعد مطاردة عنيفة لا رحمة فيها..

أغمضت عينيها وبأنفها وشفتيها حاولت أن تستعيد رائحة صدره للمرة الأخيرة..

غدًا يوم آخر.. يوم جديد!

يوم لا ناير ولا أنفاسه فيه!

***

أغلقت حقيبتها واستدارت تضع أوراقها وصورها مع جهاز اللاب توب الخاص بها.. كانت إيمان ترقبها في هدوء ويوسف وأبوها بانتظارها في السيارة ليذهبا بها إلى المطار.. رفعت جودي وجهها تقاوم كعادتها دمعة لا تخلو منها مآقيها واستدارت إلى أمها قائلة:

عشت عمري بأكمله أظنك ضعيفة.. ظننتك منحتِ بابا إرثك ضعفًا لا حبًا، ظننتك تقيمين له الدعوات وتصاحبينه إليها انقيادًا لكن...

سكتت لحظة وأكملت:

لو كان بإمكاني أن أسامح هذه المجرمة لسامحتها إكرامًا لوجهك الذي أريتني إياه للمرة الأولى..

اقتربت من أمها تأخذها إلى ذراعها وهي تقول:

أنتِ رائعة وقوية يا إيمان.. ربما أقوى مني..

لن تنسى كيف كانت تحتمي هي وأخوها بها في أيام المستشفى وكيف كانت أمها الرقيقة هذه تتابع كل شيء، العمل وصفحات الميديا والتحقيقات والأطباء وحبات الدواء..

بكت إيمان وهي بين ذراعي ابنتها في ألم تردد:

أما طابت عقدتك إذن؟ لَستُ بالسوء الذي تخيلته.. ألا تبقين؟! احتفال العام بعد أيام واحتفال هذا العام

يختلف..

كانت دموع الابنة تنساب في هدوء وبقيت تضم أمها حتى لا ترى دموعها، اشتد بكاء الأم ترجوها البقاء، حين استعادت سيطرتها على نفسها ابتعدت بها قليلًا عن صدرها ونظرت إليها تقول:

لا توجد امرأة قوية مثلك تبكي هكذا..

أعادتها الأم إلى صدرها في حب قائلة:

قد تكون المرأة قوية لكن الأم دومًا ضعيفة!

***

احتفال هذا العام يختلف..

الحضور جميعهم يريدون رؤية ناجي الكبير الذي حصد جوائز لم يحصدها فيلم في السينما العربية.. السمنهوري ونسمة وعشرات النجوم يريدون التقرب إليه أكثر، يريدون التحديق في وجهه وملامحه والبحث عن آثار السكين خلف ملابسه..

إيمان رائعة جميلة أنيقة كعادتها، دعت صديقات ابنتها جميعهن وحضرت غالبيتهن، منهن فتيات مع أزواجهن وقليلات بدت عليهن آثار الحمل وأخريات يحلمن بإيجاد عريس في احتفال الكبير الذي وقف يعانق الجميع ويتنهد كلما ضمته إحدى صديقات جودي..

لا أحد يعلم بتأثير غيابها على روحه.. لا أحد يرى ما في الصدور، ولا أحد حتى يتخيل أي خناجر مرشوقة فيها.. كل من في الحفل يرى تلال الزهر والأطعمة والمشروبات التي لا يجمعها بار في البلاد بأكملها..

أقبلت "بيبا" بعد ساعة من بدء الحفل..

أقبلت ترتدي ثوبًا أسود يقف على كعب قدميها.. بسيط كأصلها.. حزين كفقدها.. صامت كشوقها.. كان شعرها القصير بلونه الجديد يضفي على وجهها شيئًا من غموض، شيئًا له كف تأمرك ألا تقترب أكثر مما ينبغي ولا تبتعد أكثر مما تريد..

عانقتها إيمان في حب كبير كأنها كما قالت في ذاك البرنامج ابنتها.. الكبير أيضًا ضمها إلى صدره في حنان وخطى بها إلى وسط الحديقة الكبيرة، طلب من الموسيقى أن تهدأ وأعلن أنها بطلة فيلم العام الجديد..

نظر حوله وقال في حب رغم رنة مرارة:

السمنهوري مبدع إخراج هذا العام وأثق أنه يحصد جوائز أكبر..

تململ السمنهوري قليلًا حين ناداه ناجي وفي نظرة سريعة إلى نسمة أخبرها أنه يعتذر لكنها توقن أنه سعيد بالعمل مع ال"بيبا" أكثر من العمل معها.. ضم السمنهوري زينب وابتعدت عنه بسرعة وابتسمت كأنها تخبره أن عناقها ليس سهلًا..

كانت تنظر حولها في تردد.. تبحث عنه.. كل هذا النجاح منسوب إليه قبلها وقبل الكبير..

كلماته.. قصته.. موسيقاه.. هل حقًا لم يدعُه الكبير؟!

حين أعلنت إيمان افتتاح البوفيه سكتت ابتسامتها، لا معنى لهذا سوى أنه لن يأتي..

أكثر من منتج أخبرها أنه كان يريدها، كبار النجوم توددوا إليها أملًا أن يكونوا معها في فيلم العام.. لا شيء سوى ابتسامة ناعمة حانية وكلمات رقيقة ربما لو

شاءت ما تذكرت معناها أو حروفها.. اقترب منها الكبير يدعوها إلى الطعام ونظرت إليه تقاوم السؤال..

وضع ذراعه حول كتفها وسار بها إلى البوفيه قائلًا:

طبعًا دعوته لكنه اعتذر..

تعلم سبب اعتذاره.. لا يريد رؤيتها.. بشوكة منحها إياها الكبير التقطت إحدى حبات الجمبري وابتلعتها ممزوجة بدمعتها.. كانت تبكي بكاءً حادًا لا يراه أحد..

زلزال دمع عنيف بداخلها وتبتسم ابتسامة لا يصدق بهاءها أحد!

ربت الكبير على كتفها وقال:

هل تعلمين ما المشكلة الأكبر من رفضه الحضور؟!

لا مشكلة أكبر من ابتعاده عنها، لكن الكبير أكمل يُجهز على ما بقي منها قائلًا:

رفض البدر أن أشتري إحدى قصصه التي سبقت ماريا..

نظرت إليه في ذهول وقال في صدق:

أعلن أنه لا يبيع قصة تلعبين فيها أنت دور البطولة..

كان يعلم أنه يصوب إلى صدرها سهمًا سامًا، لكن ما زال يحمل لها بعضًا من ضغينة كذب قديم وطعنة أم باق

على صدره أثرها.. أكمل يقول مبتسمًا:

علينا أنا وأنت والسمنهوري عبء كبير، العثور على قصة كقصته أمر غير يسير!

كل الوجوه تُظهر غير ما تضمره..

من قال إن "الكتاب من عنوانه" أحمق مسكين..

كل العناوين واجهات لإيقاع الشارين والمستهدفين..

مضامين الكتب والنفوس دومًا تختلف!

***

نظر ناجي إلى بحيرة قارون.. هذا الماء الذي يشبه لون الفضة يشعر أنه يتغلغل داخل روحه.. كان عامًا رائعًا لا شيء فيه سوى رحيل جودي عنهما.. حتى الموت كان تجربة رائعة.. حين أصبح رأسها على صدره استدارت بوجهها تضع قبلة على كل قطعة في هذا الصدر الذي كادت تفقد..

في حنان سألها:

ترى لو أن الطعنة ذبحتني.. هل كنت لتأتي هنا؟!

شعر بانتفاضتها على صدره وضمها أكثر لتهدأ.. لم تجب.. هناك أسئلة افتراضية من العبث أن نتخيل لها

إجابات.. نتوسم في أنفسنا قوة ومهارات وأحيانًا نظن في أنفسنا ضعفًا وضآلة لكن دومًا في المواقف تفاجئنا أرواحنا بعكس ما نظن..

إن مات أو ماتت سيكون هناك ناجي آخر وإيمان أخرى لا أحد منهما يعلم عنهما شيئًا..

انحنى برأسه يضع على شعرها قبلة حانية وقال ضاحكًا:

كيف خرج يوسف إلينا في نهاية الحفل؟!

اعتدلت وهي تبتسم كأنها تعود من تصور افتراض موته القاتم وقالت:

جودي حادثته وطلبت منه أن يفعل..

نظرت إلى البحيرة تبتسم وهي تتذكره حين فعل.. كان بهيًا كأمه شهيًا كأبيه.. التفت حوله صديقات أخته وفنانات كثيرات التقطن معه الصور وللمرة الأولى ترى ولدها يضحك ويتحدث..

ناجي تركه يتحرك بين المدعوين وفي نهاية الحفل همس في أذنيه عرضًا رائعًا.. عرض عليه أن يذهب إلى شركة الإنتاج يومين أسبوعيًا يتعرف فيهما على كل ما يدور.. قبل أن يفكر يوسف أكمل والده يخبره أن له راتبا مغريا وضمانا بأن ينسحب وقت يشاء..

جودي رغم ابتعادها وركضها وراء قضيتها فإن اتصالها بأخيها
لا معنى له سوى أن جزءا من قلبها باقٍ معهم..

إن أرضعت أولادك حبًا صادقًا واحترامًا حقيقيًا لا بد أنهم عائدون وإن طال بهم الضلال وأخذتهم المسافات!

تنهدت واعتدلت وقالت في مرح:

جائع؟!

نهض عن مقعده يصيح:

جدًا.. جدًا يا حبيبتي..

حين نهضت لتبدأ في إعداد الطعام أخبرها أنه سيذهب لشراء شيء مهم ويعود في خلال ساعة..

ضمها ووضع على وجنتها قبلة موصيًا بزبدة أسماكهما وأعشابها وحين خرج أمامها من الباب شعرت أن الكبير ماضٍ إلى أمر آخر..

تكاد تجزم أنها تعلم إلى أين يذهب ولماذا؟!

***

جلست القرفصاء على فرشتها ونظرت حولها في ذهول.. كلما استيقظت من نومها استيقظت مذعورة

ظنًا منها أنها ستجد نفسها في زنزانة القسم.. أفرجوا عنها بعد الخمسة عشر يومًا، وحده ناير جاء في الصباح وأنهى الإجراءات.. رأته بعينيها يدفع نقودًا لأكثر من يد ويصافح صديقه ضابط القسم يشكره على كل ما فعله معه ومعها.. كانت أيامًا سوداء..

مدت حميدة يدها تربت على رأس "لطيفة" في حنان..

شاخت لطيفة، يقترب عمرها من سبع سنوات، أغمضت عينيها في ألم ترجو الله أن يطيل في عمر دجاجاتها.. هي أقرب لها من... ابتلعت غصة كبيرة في بلعومها.. أقرب لها من ابنتها، أقرب لها من زوجها.. منذ خروجها من السجن وهي لا تذهب إلى السوق.. حاولت مرة فوجدت كل من فيه ترك الدجاج والطيور والتف حولها يسألها عن زينب وعن الحقيقة..

ابتسمت في مرارة..

الحقيقة؟! هل يوجد أحد يعلم حقيقة أي شيء؟! كيف حملت معها السكين في تلك الليلة؟! من ذاك الذي حضر بصور ابنتها العارية؟ وأين اختفى؟! هل كانت حقًا تظن أنها تقتل ابنتها؟ وهل يومًا كانت تصدق أن بإمكانها رشق سكين في صدر إنسان؟! وبعد كل ذاك الغضب والألم كيف لم تأت بذكر قصة الرجل والصور العارية في التحقيقات سترًا لمن ظنت أنها تقتلها..

آه يا حميدة وكيف.. كيف قلتِ القصة لمن أغواها مع رفيقه وكيف هو وحده من ساندها وساعدها ووعدها أنه لن يتركها تمثل أمام المحكمة وحدها؟! ما زال هناك محكمة وحكم قد يكون سجنًا وربما إعدامًا..

أحيانًا تظن ناير يخدعها.. يقنعها بالدفاع عنها ويوم يأتي اليوم الكبير يطالب بشنقها.. لا أحد يعرف الحقيقة حتى من يظن أنه يخبئها في صدره!

بعد عودتها من السجن جاءت بعض نساء البارودية تزورها.. أخبرها عطية أنهن بالباب يحملن لها حساء وطعامًا وفاكهة.. اتكأت على ذراعه وخرجت إلى لقائهن.. ثلاث جارات رحبت بهن في لهفة.. للمرة الأولى في عمرها تشعر أن هناك من يشفق عليها ويرق لحالها.. حين أنهين تناول أكواب الشاي بدأ جحيم الأسئلة، بدأ سيل من الطعن بالكلمات..

"منذ طفولتها وهي تعشق التسكع في الطرقات! أبلة مها أخفت عنها أنها كثيرًا ما وجدت في كتبها أرقام تليفونات وصورًا غير لائقة.. ابن سعدية كان يمارس معها الرذيلة وابن سعاد كان يقبلها في الحارة عند الفجر بعد نومها!".

صرخت صرخة كبيرة في ألم أسرع بعدها عطية من على السطوح إليها..

نظرت إلى وجوههن وصرخت في جنون.. ابنتها طاهرة.. هي كانت تعلم أنها ذهبت للتمثيل لكنها أخفت الأمر عن الجميع خوفًا من الحسد.. صاحت تخبرهن أنها رشقت سكينها في صدر الكبير لأن ابنتها أخبرتها أنه لم يمنحها أجرها.. لم تصح هكذا في القسم أو يوم اعتدت عليها نزيلاته.. لم تصح هكذا حتى يوم وفاة أمها وأبيها.. آه يا حميدة..

ألف آه من ابن لا يعلم وأم لا تقول!

كانت لطيفة ترتعش تحت كفها ونظرت إليها حميدة وقالت باكية:

لا تموتي أبدًا قبلي!

كانت هناك طرقات على الباب، أما يئسوا منها؟! لن تفتح لأحدهم.. لن تفتح لوجوههم القميئة وأفواههم النتنة أبدًا..

ارتفع صوت الطرقات وسمعت صوتًا ينادي قائلًا:

سيدة حميدة.. سيدة حميدة.. أرجوكِ أن تفتحي!

لا أحد في الفيوم يدعوها سيدة بل لا أحد يناديها باسمها.. هي دومًا "أم زينب"!

هل جاءت الشرطة خلفها؟ ابتسمت في مرارة تتكئ على الأرض لتنهض، الشرطة لا تنادي أحدا.. الشرطة

تقتلع من تريد من مكانه.. ربما أرسلت لها زينب أحدا.. ربما كانت تحتاجها ربما.. ربما تستميل منها العطف!

في خطواتها الثقيلة المنهكة وقفت خلف الباب تصلح من وضع طرحتها على رأسها وفتحت الباب ممسكة به في يدها تسأل من الطارق؟!

حين رأته حاولت أن تعود بالباب في وجهه، شهقت وهي تحاول، وشهقت مرة أخرى ويدها تسقط إلى جوارها..

من تحارب؟ هل تصد أمٌ كسيرة مهزومة فقيرة نشأت على الذل والجوع ذراعي ثري قوي لم يكسروا له قلبا ولا ذبحوا فيه كرامة! أرخت يدها وابتعدت في سكون ليدخل ناجي ويغلق خلفه الباب.. كل منهما يبحث في وجه الآخر..

هو يبحث عن وجه حميدة الغاضبة القوية التي صرخت ولطمت وانهالت عليه وناير بالسباب وجمعت عليهما رجال السوق حتى كادوا بهما يفتكون.. بحث وما وجد سوى امرأة تثير الألم والشفقة..

بحثت في وجهه عن ذاك الرجاء الذي وقف يطلب به ابنتها لتعمل معه، عن تلك الطيبة وأيضًا ما وجدت.. أمامها رجل قوي حصل على ابنتها وتحت قبضته عنق أمها.. من تصارع وماذا تحاول؟!

في سكون قالت:

فلتقتلني إن أحببت، لن يطالبك أحد بدمي، حتى الرجل الذي تزوجت يرث البيت ويدعو لك..

أغمضت عينيها كأنها حقًا تصدق أن رجلا مثله يحمل سكينًا ويلوث يديه بدم "نكرة" مثلها!

انتفضت حين شعرت كفه تلمس كتفها وفتحت عينيها لتجده يقول:

تنازلت عن حقي لكن ما زال عليك حق الدولة.. طلبت من المحامي أن يترافع عنك..

كانت في ذهول وأكمل الكبير قائلًا:

ابنتك حتى اللحظة ما لمسها أحد لكنها استقلت ببيت وحدها..

سكت لحظة وأكمل يقول:

ناير تركها وسيلتف حولها ألف رجل لا نعرفه.. اغفرى لها واذهبي إليها.. ما عاد لي عليها من سلطان..

بقيت تنظر إليه تحاول أن تفهم وأكمل الكبير يقول:

ابنتي تركتني، تحيا كابنتك تحت ضغوط وإغراءات لا حصر لها.. هذا ما أحضرني..

ليس تسامحًا ولا طيبة.. هو طمع كبير في رحمة الله.. هل عاقبه الله بما سقاها منه! هل هجرته ابنته لأنه سرق ابنتها؟!

ربما! هي طعنته وهو جاء يرجو فيها رحمة الله..

أخرج مظروفًا من جيبه واستدار يبحث عن شيء يضعه عليه فما وجد سوى أريكة خشبية قديمة ذهب إليها قائلًا:

في هذا المظروف كل بيانات ابنتك.. عنوانها الجديد هاتفها وعنواني وهاتفي..

كانت تنظر إليه في ذهول واستدار نحو الباب يمسكه بيده ونظر إليها قائلًا:

لا تكابري.. تحتاجك أكثر من كل وقت مضى!

قالها الكبير وأغلق خلفه الباب ومضى!

***

باع قصته الأولى لمنتج منافس للكبير، دفع له ضعفي ما دفعه ناجي في "ماريا".. رغم هذا يوقن أنها لن تنفذ مثلها، لا منتج مثل هذا الرجل..

لماذا رفض أن يبيعها له؟ لأنه أخبره أن زينب بطلته التي وقع معها عقد فيلم العام.. لا يريد أبدًا أن يجتمع

بها.. يرفض أن يراها كما رفض أن يدخل بيتها رغم رجائها له أن يفعل في تلك الليلة!

إلى هذا الحد يكرهها؟!

بل هو إلى هذا الحد يحبها.. يحبها إلى الحد الذي يجعله يحتقر نفسه إن رآها تتمرغ بين ذراعي رجل من سطوره.. يحبها إلى الحد الذي يجعله يحرم نفسه وكتبه موهبتها.. أيكتب لها كيف تُقبّل رجلا وتعاشر الآخر؟! أي حب إن فعل وأي رجولة كاذبة أن قَبِل؟!

شرط مكتوب على كل من يشتري منه رواية ألا تلعب بيبا دور بطولتها.. شرط قد يغضبها ولن تفهمه برأسها الصغير.. لكنه أحد براهين كثيرة على حبه لها..

نعم يحبها إلى الحد الذي لا يريد معه أن يشعل نارًا يجب إطفاؤها، نارًا تستعر باللقاء وإن كان لقاء عمل.. رفض أن يدخل بيتها حتى لا يترك صورا وبصمات في الزوايا كالتي تركتها حوله في كل مكان.. مؤلم أن تتحسس مكانًا مرت عليه كف من تحب في غياب الكف ذاتها.. مؤلم جدًا أن تنظر إلى ركن أو مقعد اعتاد الجلوس فيه ولا تجده..

لا يريد لها كل هذا الألم! ورغم هذا يعلم أن ألم فراقه أكبر! ستنساه.. سيشتد ساعدها وترى غيره وتعلم أنه ليس الأوحد، هو الرجل الأول في حياتها.. ناير كان

صدرًا وظهرًا وذراعًا.. هي كانت نبوءة وحلما وكنزا صَدَقت خريطته.. قارة زرع عليها أعلامه!

ستنساه لكن كيف هو ينساها!

وضع الجيتار جانبًا ونهض ناير في هدوء إلى مكتبه الصغير.. القلم هو الحل.. نجاحه أصبح أكبر من أن يصدقه.. أصبح له هو الآخر معجبات ورسائل وجميلات تتمنى وده وأخريات يتمنين لقاءه لكن القلب معطوب..

لم يحب بطلة كماريا ولم تجهده شخصية مثلها.. لم ينقش ملامح بطلة من روحه ودمه كما فعل بها ومعها..

نفض رأسه في هدوء وفتح أول الأدراج وأخرج قلمًا دون أن ينظر.. يعلم أنها تركت له مقصلة في كل ركن.. بين الأقلام هديتها.. قلم لا يستطيع أن يمسك به ولا يحتمل أن يخلو منه درج مكتبه.. أمسك بالقلم الأسود وبدأ يخط أول سطور روايته..

رواية اسمها "أيامي بعدك"!

***

اليوم هو أول أيام التصوير..

السمنهوري دون شك مخرج كبير لكن كل شيء في غياب صاحب رأس المال يختلف: تأخير في التصوير، تأخير في التحضير، ساعات تُهدر في الانتظار والاستراحات وتناول الطعام.. مراد السمنهوري لا يعمل إلا إن تجرع كأس خمر بل يكون إنجازه وصبره في أفضل حالاتهم إن فعل..

زينب هادئة هذه المرة، كلماتها محسوبة وخطواتها ثابتة.. على عكس كل من حولها، هي في الدور تحيا حتى انتهاء العمل بأكمله لا انتهاء المشهد أو اليوم..

"إنصاف" محامية شابة قررت أن ترفع دعوى على والدها تطالب بمعرفة حقيقة نسبها بعد اكتشافها أن أمها كانت عاقرا لا تنجب.. رغم محاولات والدها المسن بإثنائها عن الدعوة احترامًا لسمعة زوجته الراحلة فإنها تزيد في إشعال النار ووسائل الإعلام.. لا يهديها أو يعلمها التسامح سوى قصة حب تجمع بينها وبين أحد القضاة المعروضة أمامهم القضية مما يجعل والدها يطلب رد المحكمة..

القصة جميلة ومختلفة والسمنهوري يعمل بحب ونشاط وجميع من في العمل يتبارون لعلمهم بموهبة زينب وكيف أن بإمكانها أن تبتلعهم جميعًا لكن في كل يوم،

في كل لحظة تسمع فيها كلمة "داير" أو كلمة "أكشن" تتمنى لو كان ناجي من يجلس على مقعد المخرج وتتمنى لو يطل ناير ولو لحظات!

حين أنهت مشهد اكتشافها أن أمها الراحلة ليست أمها وبعد انهيارها في بكاء عنيف بعد مواجهة مع والدها وحين توقفت الكاميرات بقيت تبكي لحظات طويلة.. ضمها الفنان الكبير "رضوان بهيج" الذي يلعب دور والدها، حتى أنه أخذ يتلو كعادته آيات قرآنية كثيرة علها تهدأ لكنها ما توقفت عن البكاء إلا بعد وقت طويل..

ذهبت إلى استراحتها وأغلقت خلفها الباب ووقفت تنظر إلى مرآتها في ذهول..

لِمَ تبكي؟ هل تبكي غياب ناير، هل تبكي حرمانها من أمها؟ هل تبكي شوقها إلى وجه وداد وصوت دعائها لها؟! هي حزينة بداخلها حمم بركان.. ما يخيفها أنها رغم شوقها إلى ناير وحنينها إلى أمها وأمه غير أنها تبكي حيرة "إنصاف".. تبكي شعورها بالضياع والخديعة.. تتمزق زينب لأن إنصاف يصيبها هاجس أن حتى هذا الأب الحاني الطيب قد لا يكون هو الآخر أباها..

كان وجهها مختلطًا بدمع أسود كثيف نظرت من خلاله إلى مرآتها في ذهول.. لماذا تشعر أنها ما عادت زينب

ولا ماريا.. هي إنصاف.. نظرت خلفها في جنون.. هل يعاني الآخرون مما تعاني منه! هل يذهب الأستاذ رضوان إلى منزله يحمل بداخله قصة الفيلم!

أتراهم جميعًا بعد أداء مشاهدهم يعودون إلى ما كانوا عليه، يتبادلون التعليقات والنكات بينما تبقى وحدها غارقة في مشهد ذهب وآخر آتٍ..

ليس الجميع مثلها! وحده نابر كان على حق!

حين يكون عملك عشقًا وصدقًا تكون أنت فريسة وتصبح نسيًا منسيا!

***

آفة الإنسان هي النسيان!

سكب مراد السمنهوري مزيدًا من الويسكي في كأسه وضحك ضحكة صاخبة رغم مرارتها.. لو أقسموا له بجميع الكتب السماوية أن هذه "الهانم" هي من اتفق مع نسمة على تدميرها ما صدق.. عيناه اللتان تسكنان وجهه لا يصدقهما حين تستعيدان صورتها الأولى.. جميلة بيبا كما جاءت لكن كل شيء فيها اختلف.. ثلاثة أشهر معها صباح مساء في التصوير ومراجعة المشاهد والسيناريو والكلمات ويراها في كل صباح منهم امرأة أخرى..

بيبا تناقش في كل التفاصيل حتى الإضاءة والديكور!

تقرأ أدوار الجميع وتبدي فيها الرأي، تقف خلف الكاميرا معه وتنظر إلى الكادرات كأنها مخرج، تفعل كل هذا في هدوء ورقي لا يصدقه أحد.. بيبا رغم هذا تحضر في موعدها ولا تتأخر وتحادثهم عن الالتزام وعن ال Team- work!

ضحكة أخرى كبيرة أطلقها..

الجميع يحبها من أصغر عامل في الاستديوهات وحتى مدير التصوير مرورًا به هو نفسه.. هو نفسه.. السمنهوري الذي يوم وضع ذراعه حول خصرها أشعرته أنه قزم دنيء!

آفة الإنسان النسيان..

نسي من كانت ونسيت هي أيضًا.. نسيت كل شيء حتى ناير البدر الذي كانت تلتصق به كما تلتصق ذبابات بلدتها باللحم والخضر.. هي الآن في ذيل الكبير.. ذكية أيضًا إلى حد بعيد..

مضى على انتظاره لها في هذا البار ساعة وليس غاضبا، ينتظرها ساعات لو شاءت فقط ليشكرها على قبولها دعوة العشاء..

لا شيء ثابتا سوى التغيير.. لا شيء صادقا سوى الكذب!

كان يتمنى موتها وأصبح حريصًا على حياتها.. كان يتآمر مع نسمة وأعوانها عليها واليوم يبيع نسمة ويشتري معها أياما أو لحظات.. وضع كأسه واستدار حين رأى كل من في المكان يستديرون برؤوسهم وابتسم.. وصلت رفيقته الجديدة.. وصلت من دارت بها دائرة الأيام واختارت أن تصبح نقطة التمركز حتى يحين موعد دورة أخرى واسم آخر..

كانت ترتدي بنطلونا من الجينز الذي تمزقت خيوطه على منطقتي الركبة والفخذ ويتدلى فوقه قميص "بيربري" أرجواني اللون وفي يدها حقيبة صغيرة من Y.S.L..

كل هذا لا يدهشه.. ما يدهشه هو السلسلة الماسية القادمة من عائلة "تيفاني" التي تتدلى على صدرها.. بوركت "ندى سالم" في كل ما تفعله بها..

تقدمت بيبا في خطى هادئة وابتسامة رقيقة على وجهها تنظر إليه في هدوء.. وقف يصافحها ويضع على يدها قبلة، علمته ألا عناق ولا قبلات.. حين جلست مال على أذنيها يقول:

أما آن الأوان لأن تجربي كأسًا؟!

نظرت إلى الكأس وابتسمت تقول:

ولم أفعل؟! غيرت ملابسي لتناسب عملي، غيرت عاداتي لتساعدني على النجاح.. أي شيء تقدمه لي الخمر؟!

ضحك السمنهوري قائلًا:

تمنحك الخمر كل ما يحرمك منه عملك أيتها الفنانة..

نظرت بيبا إليه بعينيها الواسعتين كأنها تسأل وقال في حكمة عمره الذي أفناه خلف الكاميرا:

الفن يمنحك الشهرة والمال والهدايا لكن يسلبك الأمان والسعادة..

رفع الكأس على شفتيه يقول:

وحدها تمنحك كليهما وإن كان زيفًا..

ابتسمت في هدوء تخبره أنها سعيدة وآمنة.. ضحك مراد حين سمعها تقول ذلك وهل يصدقها من يشرب من ذات كأسها؟!

كانا في انتظار عشائهما حين بدأ الكثيرون يطلبون منها صورة أو أنباء عن الفيلم القادم.. بيبا تجيبهم في حنان وتبتسم في نقاء تشعر معه أن "إنصاف" تطل برأسها من تحت ثيابها..

تنهدت حين وضع الساقي أمامها صحن طعامها، لا بد أنهم يتركونها الآن دون أسئلة وصور.. حين وضعت اللقمة الأولى بين شفتيها رفعت عينيها تنظر إلى مراد تتفحصه.. وسيم.. أرق مما كانت تظنه، واضح أنه مغرم بها والأكثر وضوحًا أنها تعاني يأسًا ووحدة وانتظارًا لمن لن يأتي ولا يهتم..

السمنهوري أفضل من الخروج مع منتج لا تعرفه أو أحد عشرات المخرجين الذين يريدون التسلق على أكتاف نجاحها.. هو ناجح.. وسيم وأيضًا أعزب.. لا امرأة خلفه تطاردها أو تلعنها.. ما عادت تحتمل الحديث إلى جدران بيتها كل ليلة.. هو أفضل من غيره.. كأنه رأى ضعف مشاعرها.. كأنه شعر بانتفاضة وحدتها.. في هدوء وضع السمنهوري يده على كفها وقال:

بيبا.. أعلم أنك تختلفين وتعلمين أو تظنين أني أختلف..

نظرت إليه في سكون وأكمل في صدق يقول:

لا أحد يفهم ما يدور بين جوانحنا إلا من كان مثلنا.. أنتِ بحاجة إلى من هو مثلك.. قد أكون أكبر منك كثيرًا، لكن لا أطمع سوى في حمايتك و.. قلبكِ!

أشاحت بوجهها في ألم.. لو يعلم أنها فقدت ذاك القلب حين انشطر نصفين:

نصف مات تحت أقدام أمها، والآخر تحت أقدام البدر..

عادت برأسها تنظر إليه ليكمل:

أريد الزواج منك.. اليوم.. غدًا.. بعد عام أو عشرة.. وحدك تقولين متى؟!

***

هناك أماكن كثيرة جميلة خارج أسوار المعادي.. هناك مطاعم وأطعمة ومقاعد وثيرة لم تكن تعرف عنها شيئًا.. هناك حياة بأكملها يجب أن تحياها.. حياة من أهم شروطها ألا تكون وحدها! جربت أن تخرج وحدها.. معها من النقود ما يكفي لأن تجلس في أكثر الأماكن رفاهية وتدفع بل وأيضًا دون أن تدفع، يكتفي المكان بصورة يأخذها لها لتصبح دعاية تجذب إليه الزوار والزبائن..

لكن وحدها العيون تصبح أكثر جرأة والالتفاف حولها أكثر إرهاقًا.. اتفقت على استئجار مدير أعمال لكن هل تصحب مدير أعمالها إلى السوق أو المطاعم وإن فعلت هل تستمتع؟! مع السمنهوري استمتعت.. بالحديث.. بالصحبة.. بنظرة الوله..

في هدوء وضعت المفتاح في ثقب بابها ودخلت.. خلعت حذاءها في صالة البيت الكبيرة ونظرت حولها في سكون.. إلى متى تنتظر ناير؟! في بداية الأمر ظنت أنها ستفعل حتى نهاية العمر.. ظنت أنه من السهل أن تعمل كثيرًا وطويلًا وتعود في نهاية اليوم لتفتح كتابًا من الكتب التي يقرؤها ثم تضم وسادتها إلى صدرها وتنام..

زينب علمت أن الصخب والأضواء والأحاديث الصحفية والصور، كل هذا ينتهي حين توصد خلفها هذا الباب..

الوفاء أمر صعب.. أصعب من عمرها وإمكانيات صباها!

كل شيء يخفت صوته ليعلو صوت بداخلها يسأل "إلى متى؟!"..

البدر لن يعود وأمها لن تصفح وهي لن تقوى على الحياة وحدها..

أيام وينتهي التصوير، أيام يجب أن تقرأ بعدها نصوصًا معروضة عليها وتناقش عروضًا تطاردها، أيام وتتحرر

من "إنصاف" وتعود زينب للخروج من بين أضلاعها..

ارتشفت قطرات ماء من كوبها وهزت رأسها في عنف.. لا تريد لزينب أن تعود أبدًا..

جحيم لا تقوى عليه.. على الأقل بمفردها.. هل تقبل حقًا عرض السمنهوري؟! أتتزوج رجلًا يكبرها بعشرين عامًا.. رجلا سمعت أنه... ابتلعت ريقها في ألم.. هي شائعات.. لو كان مراد كما سمعت ما طلبها للزواج..

هل تفعل؟ ألم كبير أن تفعل، وضياع بلا حدود أن تبقى وحدها!

كلاهما مباح.. ما عليها سوى أن تختار!

***

هناك شيء كبير في أيامنا دومًا نؤجله.. شيء نحيا على أمل الإتيان به ونعلم أنه يحيينا إن فعلناه لكن دومًا نؤجله!

رغم الاحتياج.. رغم ضياع العمر.. رغم شوقنا وقَسمِنا وعهدنا دومًا نؤجله ونبقى نؤكد أن موعده غدًا أو بعد غد أو في يوم قريب! لا نحن من قائمة أمانينا نمحوه.. ولا تواتينا القوة فنأتيه!

أكثر من عامين وناير يعد نفسه بالذهاب إليها.. بمحادثتها لكن لم يفعل.. وحده ترافع عن أمها، الكبير

أخبره أن له أن يفعل ويقول ما شاء حتى تحصل على البراءة.. أي براءة لامرأة خرجت من بيتها تحمل سكينًا بين طيات ثيابها لترشقه أمام جمهور غفير في صدر رجل.. كان القاضي رحيمًا حين أصدر عليها حكمًا بالسجن عامًا مع إيقاف التنفيذ..

ظن أنه يراها في المحكمة..

أعد جملًا وكلمات، تمرن على نظراتٍ ولفتات لكن الابنة لم تأت..

قبل موعد الجلسة بأسبوع أعلنت على صفحتها وفي كل وسائل الميديا أنها كسرت ساقها كسرًا مضاعفًا أثناء سفرها وتحتاج معه إجراء جراحة وقد لا تعود إلى البلاد إلا بعد شهور.

في ذات يوم القضية كانت هناك صور لأمها في قفص الاتهام وصور أخرى لساق بيبا النائمة في الجبس الملون ووجهها الغارق في الألم والإجهاد.. ابتسم ناير في مرارة.. عشرات آلاف الصلوات لها والسؤال عنها وربما عشر تعليقات لا أكثر على زنزانة المحكمة..

نحن دومًا في صف من يثير شهواتنا أو قلوبنا!

الصامتون لا حليف لهم أبدًا!

ما زالت أمه تذكرها وما زالت بيبا من وقت لآخر تحادثها وما زال هو كلما أخبرته عنها أشاح بوجهه وأرخى عينيه وسكت.. ما قضيته معها؟! ما خصومتها الكبرى معه؟! أن كذبت؟! أن ادعت موت أمها؟! وأي امرأة عرفها بعد فراقها لم تكذب؟!

يثق أنها تحبه.. بكاؤها على ذراعيه ليلة الرحيل.. رجاؤها له بالدخول إلى بيتها.. سكونها على صدره وجنونها في رفقته.. كلها شواهد لكن ماذا يفعل في حاجز كبير بينهما؟!

نجاحها.. شهرتها.. التصاقها بالسمنهوري وخروجها من تحت عباءة الكبير.. تعاملها مع شركات إنتاج أخرى.. كلها مسامير رُشقت في تابوت حبهما!

حبهما! هل هو حب وما هو الحب؟! ألا تواعد بيبا السمنهوري وترافقه كظله؟ كيف تفعل إن كانت كما تتدعي تحبه؟!

ألم يواعد "فرح" وضاجع "فاتن" وراسل "مروة"؟! كيف ورغم هذا يدعي أنه يحبها؟!

ما نظنه الحب هو ذاك الشخص الذي ما اكتملت قصتنا معه.. هو ذاك الشخص الذي يرى فينا ما لا يستطيع سواه أن يعلن رؤيته..

حين تكتمل القصص تنتهي.. القصص الناقصة وحدها يطول عمرها وتلتهب فصولها وتطاردنا في أحلامنا وتجلد ضمائرنا..

لا تهدأ ولا نحن نفعل أبدًا..

إما أن تكتمل وتموت وإما تعذبنا حتى نموت نحن!

ما زال يشعر أنه يخبئ لها شيئا من كل شيء.. يتمنى لو يخبرها أنه يكتب هذا العام رواية في قوة ماريا.. يراها تكتب على صفحتها دومًا سطورًا من رواياته ويرى قلمه يدس لها بين سطور كتبه أنباءً وأخبارًا عنه وعن أيامه..

أصبح بينهما مسافات طويلة رغم أن ما يمر عليه من هواء يصل إليها في الشارع القريب..

مع كل كلمة "تمت" في كتاب يَعِد الروح أن يطرق بابها ويخبرها أنها ما زالت تعشش في الحنايا.. وعدًا لا يظنه يأتيه يومًا!

وعد حنثه مباح والعودة إليه وفيه حلال محرم!

لو أن الصدفة تفعلها لكن أنَّى لها أن تفعل وهو في عزلة مع أوراقه..

نظر إلى أوراقه وابتسم.. أسابيع قليلة وتنتهى أحلى رواياته.. يودعها دار النشر ويذهب إلى بيتها.. ليبارك لها

نجاح مسلسلها الذي يشهد الجميع أن الملايين تلتف حوله حتى تكاد الشوارع تخلو من مارتها.. فليهنئها..

ألا تستحق امرأة تسكن القلب أن يقف ببابها ويقول "مبروك"!

***

كان كل منهما ينظر إلى جهاز الكمبيوتر الخاص به ويمد يده ليلتقط بعضًا من حبات الفاكهة الموضوعة على مائدة الإفطار.. كانت تقرأ في اهتمام وتختلس نظرة إلى وجهه الغارق في العمل على جهازه وتبتسم.. قررت فجأة أن تكسر الصمت وتسمع صوته الذي تشتاق إليه، صاحت في فرحة صادقة تقول:

رائعة هذه المصرية..

لم يسمعها.. أمامه مشروع يجب أن ينهي العمل في جزئيته ويسلمه مع بداية الأسبوع وعادت نهال تصيح:

عامر.. ألا تسمعني؟!

في تثاقل رفع جفنيه ينظر إليها وابتسم، هي إجازة نهاية الأسبوع ونهال منذ حضرت بعد زواجهما لا أصدقاء لها في "مونتريال"..
لا شيء تفعله سوى التنزه والخروج إلى التسوق وانتظار نهاية الأسبوع ليكون معها..

في حنان قالت:

ليتنا كنا نحيا في نيويورك.. حتمًا كنت أذهب إلى لقائها وربما عرضت عليها العمل معها ومساعدتها..

ابتسم يتابعها تتحدث عن الشابة المصرية التي تعمل حتى اشتهرت وأصبحت صورتها وأخبارها على كل المواقع الأمريكية..

- مناضلة صادقة وأيضًا رائعة الجمال وأجمل ما فيها أنها مصرية!

ابتسم قائلًا:

كل المصريين إن خرجوا من مصرهم عملوا بتفانٍ لا حدود له..

نهضت عن مقعدها واقتربت منه لتجلس على ركبتيه، ضمها عامر في حنان وتمتم معتذرًا يعدها أن يأخذها إلى السينما في الليل وبعده إلى العشاء.. مالت بشعرها الأسود على وجهه وضمت رأسه إلى صدرها.. لو يعلم أن كل ما تريده أن يحبها أكثر.. وضعت قبلة على رأسه النائم على صدرها وهمست:

أرسلت لها رسالة.. هل تظنها تجيب؟!

وضع عامر قبلات صغيرة على صدرها وابتعد برأسه قائلًا:

إلى هذا الحد؟!

نهضت من على ركبتيه وقالت:

وأكثر.. لتنهِ عملك وفي المساء أحدثك عنها أكثر..

حين عادت إلى مقعدها وجهازها قالت:

إن لم ترد على رسالتي.. أذهب مع ماما عند حضورها إلى نيويورك وأحاول رؤيتها..

تظاهر بالانشغال بما يفعل لكنه كان يفكر.. نهال يجب أن تلتحق بعمل ما.. سيقتلها الملل وانشغاله عنها رغمًا عنه.. حضور أمها قد يشغلها لكن الأم لن تستطيع البقاء طويلًا.. يجب أن يهتم بإيجاد عمل لها.. تتفانى في إسعاده فكيف لا يهتم لأمرها أكثر.. رفع عينيه إليها وأرسل لها قبلة في الهواء وقال:

إن أردت أن تعملي في نفس مجالها أحاول أن أفعل وأثق أنك ستكونين أكثر نجاحًا منها..

ضحكت ضحكة عالية وقالت:

لا أريد أن أعمل، أريدك أنت أن تقلل من عملك..

عقد حاجبيه كأنه لا يفهم وأخذت تشرح له قائلة:

أنا فخورة بها لأنها مصرية، شابة وجميلة.. سعيدة بها لأنها تنصر الفقراء والنساء وتحقق نجاحات هائلة لكن لا أظن أنك أنت أو أنا نحتمل ما تفعله جودي من سفر وتحقيقات وزيارات..

لوحت له بسبابتها من بعيد وأكملت:

أنا لا أحب العمل.. أحب الحياة.. أحب السفر وأحبك أنت..

كل الكلمات لم يسمعها أو يفهمها بعد أن قالت ذاك الاسم.. كل شيء في أوصاله كان يرتجف وسكتت نهال عندما لاحظت جمود ملامحه ودون وعي وبصوت مبحوح قال:

ما اسم المرأة التي تتحدثين عنها؟!

أدارت له شاشة جهازها وقالت:

جودي الكبير.. هل تعرفها؟!

كانت صورتها على الشاشة.. ترتدي "تايير" أسود تحته قميص أبيض ونظارة طبية كأنها حلية ازدانت بها ملامحها وزادت وجهها جمالًا.. أمن دون النساء جميعًا اختارتها زوجته لتحبها وتتابع أخبارها وترسل لها رسالة؟! كان في ملامحه شيء يصرخ وآخر يبكي

وثالث يحاول إخفاء وجهه، وعادت نهال تسأله إن كان يعرفها وقال في هدوء:

أظنها كانت معي في الجامعة..

صاحت تقول:

حقًا؟ أرسل لها علّها تتذكرك..

قاطعها عامر كأنه يئن:

أرجوكِ لا تفعلي.. لا تفعلي..

قالها ونهض يدخل إلى غرفة نومه وفي الطريق شعر أن ما قال وفعل يثير الشكوك فاستدار إلى زوجته، وقال في حنان:

لا تجعليها تظن أنك تتقربين إليها.. لم نكن أصدقاء ولم نتبادل الحديث مرة.. لا تجعليها تظن أننا...

نهضت ترفع صحون الإفطار وقالت ضاحكة:

لن أفعل، لا تغضب.. الأمر لا يستحق..

اقترب عامر منها وضمها إلى صدره في حب ووضع على رأسها قبلة قائلًا:

أذهب إلى المكتب ساعات وأعود لأصطحبك إلى السينما..

قالها وغاب في غرفتهما ووضعت نهال الصحون على الطاولة من جديد، هو على حق، تبالغ في أمور كثيرة لا داعي فيها للمبالغة!

كان هاتفها يرن وحين أجابت كانت أمها تسألها عن كل ما تريده من مصر، في نهاية الحديث أخبرتها أن عامر لا يجيب، بسرعة استدارت إلى حيث كان يجلس، أخبرتها أن هاتفه أمامها وركضت نحو الغرفة تمنحها إياه..

حين فتحت الباب وجدته يقف أمام الشرفة الزجاجية ينظر إلى أشجار الطريق ويعبث بسلسلة أهدتها إياه أمه.. رفعت عينيها إلى الزجاج لتجد وجهها منعكسًا عليه وشهقت وهو يستدير إليها تسأله في ألم:

عامر.. أنت تبكي؟!

***

السير من المكتب إلى البيت من أجمل الأشياء التي يحرص عليها عامر منذ سكن مونتريال وقرر البقاء فيها وهجر مصر إلى الأبد..

أشجار كثيفة كبيرة على جانبي الشوارع المؤدية إلى بيته وعربة الأطعمة التي يقف أمامها ليشتري أصبعا من أصابع الدونتس المكسيكية من صديقه الجزائري، المقعد الخشبي الذي يجلس عليه في منتصف الطريق ليرتاح ويحادث أمه مكالمة كل يوم..

أشياء صغيرة نعتادها حتى تصبح أمورًا كبيرة لا نعلم كيف نحيا دونها.. جلس على مقعده الخشبي ونظر إلى الأصبع المسكر الذي في يده ولم يستطع أن يقضم قطعة منه..

كان يومًا مختلفًا.. قضى اليوم بأكمله يتابع صورها وأخبارها.. جودي الكبير أصبحت امرأة شهيرة في حقل حقوق المرأة.. لماذا الآن يعرف عنها كل هذا؟ ولماذا تأتيه نهال زوجته باسمها وأخبارها.. لم يحاول يومًا أن يدخل على صفحتها.. شيء على وجهها، شيء في ملامحها يشبه شيئا تَكوَّن أو ربما مات على وجهيهما معًا.. أصبح لوجهيهما معًا ملامح الآلة..

هو أيضًا ناجح بل ربما يتفوق على كنديين أكبر منه سنًا وأكثر خبرة.. عمل طويلًا وكثيرًا.. تزوج نهال منذ ستة أشهر بعد أن عرفته عليها أمه في إحدى زياراتها له.. يحنو عليها ويشعر بالامتنان الصادق لحبها له وتفهمها لعمله وتفانيه فيه.. فعل كل شيء كما يجب أن يفعل ويؤتى فلم تحاربه الأقدار والصدف؟!

ألا تساعده السماء فُتُقصي اسم جودي بعيدًا عنه؟! ألا يستحق أن تؤازره الأقدار؟!

زوجته.. شريكته تتحدث عن جرح غائر في الروح وتفجر بداخله براكين من الأسئلة وحمما من الحنين.. هل هو عقاب؟ وعلام يُعاقب؟!

تنهد في ألم وأخرج هاتفه الصغير يحادث أمه ككل يوم.. أخبرها عن يومه.. عن خروجه إلى السينما بعد ساعات مع زوجته.. أخبرته أن شيئًا في صوته يثير قلقها وفي ألم كأنه يبحث عن أحد يشاركه ما تتألم به روحه صاح يخبرها عن كل شيء.. أخبرها عن زوجته التي رأته يبكي وكيف فشل في إيجاد سبب يحكيه لها وأنه في النهاية اكتفى بضمها إلى صدره يخبرها أنه وفي لحظة تذكر الجامعة والبيت وأمه..

كانت الأم تستمع في صمت وألم، وحين سكت بعد الحديث والبكاء قالت في إشفاق:

ظننتك نسيت.. لم تسألني يومًا عنها.. أحقًا ما زلت تحبها؟!

لا ننساهم إن هجرونا، لا ننساهم إن ظلمونا.. أحيانًا نغلق عليهم حجرة صغيرة في القلب لكن هم دومًا وفي كل وقت يخيل لنا فيه أننا نسينا.. يطلون علينا ويُخرجون لنا ألسنتهم لنسقط من جديد في الألم والشوق والذكرى..

أغلق الخط ونهض على قدميه..

سيقاوم.. هو اختبار عابر.. اختبار لن يسقط أمامه.. تلك كانت قصة قديمة بين طفلين..

من العار أن ندع أطفالًا تقتل رجالًا ونساء!

***

أصبح السمنهوري أكثر رقة معها بل إن أرادت الحق مع نفسها أصبح أكثر حنانًا وتفهمًا مع الجميع عدا أن إلحاحه على طلب الزواج بدأ يكبر.. أصبحت بيبا من أصغر نجمات العالم العربي سنًا وتتربع وحدها على قمة عرش النجاح.. متعبة هي حد السقوط، صامدة حد الجمود!

ناير أيضًا أصبح أشهر كتَّاب مصر.. روايته الأخيرة فاق نجاحها "ماريا".. قرأتها أكثر من أربع مرات وفي كل مرة تشهق وهي تكتشف معنى جديدا وحكاية مختلفة.. في سطوره ألم وفي حروفه شجن تتمنى لو كان فراقها سببه..

ما الذي يمنعه عنها إن كانت هي من ترى رأسها يطل بين الفواصل والهمزات؟!

أكلما طال البعد كبر حقًا العجز عن اللقاء أو السعي له!
أغلقت روايته وضمتها إلى صدرها كما تفعل كل صباح وكل مساء..

الكبير أخبرها أنه لن يترك الرواية تضيع من يده، أخبرها أيضًا أنه يتمنى لو أن ناير لا يشترط عدم إسناد البطولة إليها.. لا يرى غيرها للبطولة ولا يرى الجمهور عاد يحب سواها!

ابتسمت في مرارة تتذكر ما أنهى به كلماته عن اعتذاره لها بإسناده الدور إلى أخرى مُرغمًا إن كان هذا هو ثمن حصوله عليها..

لم لا تفتح باب البيت وتذهب إلى بيته؟! تطرق الباب وحين يفتح ترمي بنفسها بين ذراعيه وتقسم أنها رغم البعد والأعوام ما زالت له وحده.. هدايا من كل بلاد العرب، دعوات من كبار رجالهم ونسائهم، ملايين في حسابها بالبنك.. كل هذا تعلم الآن أنه لا يساوي تلك الذراعين اللتين تشتاق عناقهما ورائحتهما..

أجهدها العمل.. أجهدها التمثيل.. ما عادت تتذكر زينب.. هي مرة ماريا وأخرى إنصاف ومرة شيري أو منة وحنان.. ودومًا.. دومًا بيبا..

بيبا التي تبتسم في وجوه الناس وكاميرات الهواتف وأضواء البرامج..

"علوي" مدير أعمالها رائع.. يختار مناسبات قليلة لتكون فيها وبرامج أقل تقبض آلاف الدولارات لتظهر فيها..

تتمنى لو تُمزق ثيابها أحيانًا وتصرخ كالأطفال وتبكي في شوارع المعادي تناديه.

طال البعد حتى استحال اللقاء وكبر نجاحها حتى بات مستحيلًا أن ينادي أحدهما الآخر ويعترف بانكساره!

ناير في الإمارات.. البدر في القائمة الصغرى لإحدى أكبر جوائز الكتاب العربية.. لم لا تذهب إلى زيارة وداد؟!

تختنق لمجرد أنها تخيلت نفسها تقف أمام أمه.. أمام بيته.. إن ضمتها تنهار وإن أساءت استقبالها تموت.. لن تسيء استقبالها.. تجلس معها على تلك الطاولة التي كانوا يلتفون حولها لتناول الطعام..

تحتسي معها فنجانًا من القهوة وتتحسس بيديها مقعده علَّ بعضًا من رائحته تَعْلق بأصابعها.. تسألها عنه في سياق الكلام.. ماذا لو أخبرتها أنه في هوى أخرى غرق؟!

تُبارك لها وله ومن قلبها تدعو له بالخير ثم تعود هنا لتبكي من جديد.. تعكف في طريق خروجها إلى شرفة الملحق السفلي علَّه ترك على الزجاج بقايا من بقاياه تتنسم منها ما تملأ به جوف ضياعها ووحدتها..

كم مرة منعت نفسها عن السقوط بين ذراعي السمنهوري؟!

كم مرة أمسكت بأصابعها شفتيها تمنعهما عن إعلان موافقتها بالزواج منه إكرامًا لناير.. فلتخبره وليصدها لكن تريده أن يعلم أنها ما زالت تسكن شقة صغيرة من غرفة وصالة رغم أنها اشترت "فيلا" رائعة في أحد المنتجعات الشهيرة بجوار الكبير.. تفعل هذا من أجله..

علّه يمر أو علّها تمرّ.. له الحق في أن يعرف كل هذه الأشياء..

ما زال قلبها وكبرياؤها لا يمانعان.. تخشاه؟ تخشى صده؟! أعلن رفضه لها صراحة.. ألا يكفيها أن الجميع يعلم أن البدر لا يبيع رواية تلعب فيها بيبا دور البطولة!

فلتذهب إلى وداد.. تخبرها.. إن كان لديها ما تقوله عن ناير فلتخبرها بها علّها تزهده أو تنساه؟!

وداد تحبها وهي تشتاق رائحة أم.. أغمضت عينيها في ألم.. حاولت الذهاب لتهنئة حميدة بغلق قضيتها.. أخذت إلى أمها هدية من الذهب ومبلغا ماليا كبيرا.. تمنت لو تسامحها.. ليالٍ طويلة تتحدث إلى ذاتها بأن حميدة ربما لم تقتل أباها وربما لم تعن قتل الكبير ولا الإساءة إليها وتدمير نجاحها! حاولت أن تصدق أنها حقًا أم كجدتها.. كوداد.. كأمهات الكتب والحكايا!

كانت تقف على بابها في السابعة صباحًا.. حين فتح عطية الباب نسيت أنها سامحتها.. اشتعلت حمم في رأسها وقلبها لكنها تذكرته.. إن فتحت لها أمها ذراعيها قد يغفر لها ناير..

كأنها تقايض القدر! تسامح حميدة فيسامحها ناير..

عطية شهق حين رآها، أفسح لها الطريق بصدره العاري وصاح ينادي زوجته..

لم تضع قدميها داخل الدار، ليس فيها مكان يختبئ فيه أحد.. بعينيها ترى كل شيء! أمها كانت على سطح المنزل..

ركض عطية على الدرجات المهترئة وحين تأخر كثيرًا علمت رد أمها.. علمت لكنها بقيت..

أحيانًا نعرف الأنباء جيدًا لكن لا نصدق إلا حين يخبرنا بها أحد..

هبط وحده على الدرجات وحوله الدجاجات.. اقترب منها في هدوء يدعوها للدخول على استحياء.. ابتسمت في مرارة وسألته ماذا قالت؟!

أجابها في خجل:

الأموات لا يعودون إلى الحياة!

أشاحت بوجهها ومنحته مظروف النقود وهدية الذهب.. تردد عطية قبل أن يأخذها لكنه فعل.. مجنونة أمها.. مجنون كل من سكنه الرفض..

في ذات الليلة وقبل أن تنام طرق رسول منها الباب وأعاد لها كل شيء.. أصبحت كل البيانات عنها مباحة للجميع.. من أخبر أمها بعنوانها..

لا أحد سواه! يذكر عنوانها ونسيها.. لِمَ تجلد نفسها بالذكريات؟! فلتذهب إلى أمه.. علها تخبرها أنه تزوج أو أنجب أطفالًا..

من تخدعين يا زينب؟! تعرفين جميع أخباره وتتابعين كل أنبائه.. نظرت إلى ما ترتديه في المرآة وابتسمت.. ما ترتديه يكفي لأن تقطع الشارع الذي يفصلهما.. هو في بلد آخر وأمه لا يعنيها أناقتها.. أمه رأتها يوم جاءت بثوب أسود رخيص أبت وأبى ولدها أن ترتديه مرة أخرى..

أنت لا تتأنق أبدًا أمام من يعرفون حقيقتك ويعرفونك.. بل تخلع أمامهم جميع أقنعتك..

أغلقت الباب في هدوء ووضعت مفتاح البيت وهاتفها في جيب بنطلونها وسارت.. لن تعود من منتصف

الطريق كعشرات المرات السابقة.. ناير ليس هنا.. الأمر سهل.. حين وصلت كانت قائمة الأسئلة في رأسها جاهزة..

تعلم كيف ومتى تسأل دون أن يبدو أنها جاءت من أجل السؤال عنه بعد انقطاع الأعوام..

وقفت أمام باب البيت ترتجف.. سهل أن نعد أنفسنا وكلماتنا لكن صعب أن ننفذ.. ليس مشهدا في فيلم.. ليس لقطة من كتاب.. هو حب ومصير!

سحبت نفسًا من صدرها وقبل أن تعبر البوابة سمعت صوته يصيح باسمها..

استدارت نحوه في ذعر وقال:

لا أحد منهم هنا.. سافر السيد ناير والسيدة معه!

ابتسمت في وجه عبده واستدارت في هدوء من حيث جاءت، سمعته يناديها ويسألها عن سر الغياب وأين تسكن؟! لم تجبه.. ما برأسها من الضجيج يكفي..

أمه على حق، ناير لا يترك أمه في يوم كيوم إعلان الجائزة الكبرى.. هو حدث قد لا يتكرر في حياته مرتين..

كانت تخطو وقلبها يعلو دبيبه، دون وعي أخرجت من جيبها هاتفها وقالت بعد لحظات:

علوي.. أريد حضور حفل جائزة الكتاب في الإمارات؟

ربما لم تسمع ما قال أو لم يعنيها ما قاله في شيء فأكملت بعد ثوان تقول:

أعددت حقيبتي ولا أريد أن يعرف شخصي أحد.. تذكرة لحضور الحفل..

تذكرة لمجهول.. افعل أي شيء.. لا أقبل أي أعذار!

***

علوي ليس مدير أعمال فحسب، هو حارس وهاتف ومحفظة نقود منذ ذاك اليوم الذي جلست فيه أمام الكبير في مكتبه تخبره أنها ما عادت وحدها تستطيع الرد على هاتفها والتواصل مع الصحافة والإنتاج وعامة الجمهور وأنها حقًا تحتاج من يكون معها..

الكبير رجل طيب ودومًا تشعر أنه يحمل لها محبة وشعورًا بالذنب وأيضًا بالامتنان لتصريحها بعد حادث أمها..

بعد اتصالات قليلة وبعد أقل من نصف ساعة كان علوي يقف أمامها.. شاب طويل مفتول العضلات متجهم الوجه، ما قال له الكبير سوى جملة واحدة..

أنت منذ اليوم مع "بيبا".. تتولى جميع شئونها..

قبل أن تعترض أو تسأل ما هي جميع الشئون نظر إليها قائلًا:

تدفعين له خمسة عشر ألفًا شهريًا وهو يخبرك كيف يسير بينكما العمل وكيف تتوزع المسئوليات..

مالت برأسها على مقعد الطائرة وأغمضت عينيها تبتسم.. لم تكن حقًا تعلم ماذا تطلب منه أو كيف تتعامل معه.. وحده الأجير علّم المستأجر كيف يكون العمل.. جلس إلى جوار سائقها وسألها أي شركات الهواتف تحب، حين وصلا البيت أخبرها في هدوء أنه سيدخل معها شقتها.. لم تعلم ماذا تقول.. أخذ منها شريحة هاتفها ومنحها أخرى يأمرها ألا تمنح رقمها إلا لأهلها والمقربين جدًا..

علم علوي مع الوقت ألا أهل لها ولا مقربين سوى الكبير والسمنهوري ونايير البدر.. لم يره مرة لكنها أخبرته أنه الوحيد الذي إن طلب هاتفها الذي يحمله معه يأتيها وإن كان فجرًا..

شهور قليلة أصبحت هي من تتبع تعليماته كالقط الصغير، وحده يفعل كل شيء ويخبرها ما تفعله؟ حتى اتفاقاتها المادية هو من يبرمها ووحدها من توقع العقود والشيكات.. هو معها في كل مكان وفي السفر.. لا أحد يحادثها إلا من خلاله.. لم تطلب منه شيئًا إلا وكان بين

يديها وها هي الآن في طريقها إلى الإمارات حيث يجلس خلفها على مقعد في الدرجة السياحية..

لم يسألها إن كانت تريد صحبته فما عاد هذا اختيارًا، دومًا يخطو خلفها بخطوات وحين يلتف حولها الكثيرون وحده يقرر متى يتسلل بينهم ويلف ذراعيه حول كتفيها ويمضي بها بعيدًا وهي تبتسم في اعتذار كأنها تتمنى لو تقتله وتعود إليهم..

ما كانت تريده في هذه الرحلة لكنها اعتادت أن يكون القرار له وحده.. هل أخطأت بحضورها؟ وماذا تريد من وجودها هنا؟! هل تفلح في حضور الحفل دون أن يعرفها أحد؟!

لا تريد أي ضجيج، لا تريد أن يشعر بها ناير أو يراها.. تريد فقط أن تراه، أن تلتقط له صورة وهو يقف على خشبة الحفل.. تصفق له إن كان الفائز وتمسح بعينيها على جبهته إن لم يكن.. تريد أن تختبر شعورها به بعد كل هذه الأعوام.. أليس من حقها أن تفعل لهذه القابعة بداخلها شيئا كهذا؟!

فتحت عينيها في ذهول حين شعرت بكف تربت عليها في هدوء.. نظرت إلى وجه مضيفة الدرجة الأولى تسألها إن كانت تريدها أن تغلق عليها باب مقصورتها.. ابتسمت تهز رأسها بالإيجاب وقبل أن تمضي قالت على استحياء:

يستأذنك الكابتن وطاقم الضيافة في صورة معك وقت تشاءين، هل تحققين لنا هذا؟!

ابتسمت مرحبة ووعدتها أن تفعل قبل هبوط الطائرة..

حين ابتعدت زائرتها ارتبك بداخلها كل شيء.. ماذا لو وضعوا الصورة على وسائل الميديا؟! ماذا لو عرف ناير وماذا لو عرف السمنهوري بسفرها؟! ألقت وجهها بين كفيها في ألم ونهضت تذهب إلى علوي، هل لديه مخرج؟! هل لحياتها ورغباتها وأمورها الخاصة جدًا مخرج تتنفس معه أبدًا؟!

ما عادت تعلم.. هي امرأة يجب أن تجيد الظهور والاختفاء بذات القدر لتحيا وتكمل مسيرتها..

قبل أن تصل إلى مقعده كان هناك العديد ممن استوقفوها يطلبون منها صورة أو إجابة على سؤال.. جاءت تستنجد به ليهرب بها من صورة واحدة فإذا بها تبتسم في عشر صور وأكثر.. استدارت تعود إلى مقعدها وعيناها على الأرض، الطريق إليه يكلفها صورًا أكثر وأحاديث أكبر..

كان يتبعها في هدوء وما أن ألقت بنفسها على مقعدها ورفعت رأسها تنظر إليه حتى قال في هدوء كأنه يعاتب تلميذة طال شرح الدرس لها:

مصر والإمارات بأكملها ستعلم أنك على الطائرة..

نظرت إليه في يأس تخبره أنها كانت تريده ثم قالت:

من الآن فصاعدًا تركب إلى جواري..

ابتسم ابتسامة صغيرة وقال:

لا نريد أبدًا أن يعرف الناس أنك تستأجرين من يمنعك عنهم..

أردف في هدوء:

ألا تفكرين، كان بإمكانك أن تطلبي منها استدعائي.. ألم أمنحك رقم مقعدي؟!

كيف تخبره وهل يفهم؟ هي ليست مثله..

هناك لحظات ترتبك الأمور في رأسها ويصبح عليها أن تفكر أو تقرر بسرعة ودون خوف.. لم يعاتبها؟ ألا يعلم أنها لو كانت مثله ربما ما عرفته ولا اجتمعا ذات يوم!

***

أخبرته أنها ستنام لكنه يشعر أنها لن تفعل.. ما زال رجل الشرطة الذي بداخله مسيطرًا على كل تصرفاته وتحركاته.. خلع علوي الجاكيت الذي يرتديه وفتح نافذة غرفته المطلة على "المارينا"..

أصر مدير الفندق على منحها "جناحا" بذات سعر الغرفة الذي دفعته، كانت تنظر إليه وهي ترتجف ترجوه أن يفعل شيئًا.. حمقاء "بيبا" إن ظنت أن بإمكانها التنكر أو بإمكانهم تجاهلها..

بطرف عينيه نظر إلى شرفة جناحها ليراها تقف وتنظر إلى مطعم الفندق.. تبحث عن "ناير" رغم أنها تختبئ منه.. تختبئ منه رغم أنها ما جاءت إلا من أجله!

أسرع إلى داخل غرفته، لا يجب أن تراه.. خلع ملابسه ودخل ليقف تحت الماء الساخن، من خلف زجاج الحمام كان يرى سماء دبي وبحرها الجميل.. هل هو سعيد بعمله معها؟ بل هل مر يومًا برأسه أن مقدم المباحث "علوي شاكر" يصبح مدير أعمال وحارسا شخصيا لممثلة شابة تصغره بعشرة أعوام تقريبًا؟! وهل يحدث لنا إلا ما كان بعيدا عن تصورنا ومستبعدًا من كل حساباتنا وتخطيطاتنا!

وضع جسده الطويل الأسمر في "برنس" الفندق وخرج ليجلس على مقعد خلف الشرفة حاملًا في يده كوب شاي صنعه بسرعة وأشعل سيجارة..

كان أبوه أمين شرطة له حلم واحد وهدف واحد وغاية لا تتغير.. أن يصبح علوي وحيده ضابط شرطة، يوم أصبح وبعد حفل تخرجه وحين رآه في صفوف

الخريجين سقط فاضل شاكر ومات! قتلته الفرحة أو الحسد كما كانت أمه تقول، لا فارق..

مات أبوه لحظة تحقق الحلم..

كان ناجحًا وسيمًا له جسد فارع الطول والعرض أيضًا.. لم تكن أمه تريد من الحياة شيئا سوى أن يتزوج وأن تذهب إلى عمرة أو حج..

حين أصبح برتبة نقيب سافرت إلى عمرة وفي بيت الله الحرام التقت بالصدفة إيمان زوجة الكبير.. أخبرته أن إيمان كادت تسقط بين جموع من يطوفون الكعبة وكادت الأقدام أن تدوسها، لا ينسى ضحكتها وهي تخبره أنها لا تعلم من أين واتتها القوة لتنحني وتمسك بذراعها وتنهض بها.. حملته لها معروفًا ما زالت تتحدث هي ويتحدث عنه الكبير حتى اليوم..

حين عشق نجوى وقرر الزواج بها كانت إيمان تقف مع أمه في استقبال المدعوين.. يوم أنجب "علية" حبة عينيه ونبض روحه كانت إيمان أول المهنئين وهديتها النقدية أضحكت زوجته كما لم يضحكها الزواج أو الإنجاب..

يوم اتهمته الداخلية بالتقصير في حراسة أحد الوزراء حين أصاب موكبه رصاص طائش قدم استقالته من الشرطة أو فليقل كانت إقالة مقنعة!

اتهموه بالتقصير كأنه كبش فداء لا أكثر.. لم يتخل الكبير عنه، أخبره أنه سيتصل من أجله بالوزارة بل الوزير نفسه.. وحده علوي رجاه ألا يفعل.. شعر أنه يضع روحه وعمره على كف المجهول من أجل حماية رجل يوم حاولوا قتله ما أطاح برأس أحد إلا رأس من كانوا في حمايته..

أخبر الكبير أنه ما أراد الشرطة يومًا وما دخلها إلا من أجل أبيه وقد رحل.. علوي يريد أن يحيا حياة بسيطة يستمتع فيها بصحبة "لولي" ابنته وصحبة زوجته..

لا ذنب له أبدًا أنه خُلق طويلًا عريضًا ليُحْكم عليه بهذا الدور ما بقي له من حياة.. ترك الشرطة وعمل زمنًا مع الكبير..

ترك الشرطة وتركته "نجوى" بعد أن بقيت شهورًا تلطم خديها كلما رأته وهي تصيح أبعد أن كان زوجها مقدم شرطة يصبح محاميا أو حارسا خاصا لناجي الكبير؟!

تركته وتركت ابنتها معه وأمه لتتزوج بعدها بشهور من زميل له في العمل..

وضع كوب الشاي الفارغ أمامه وهو يبتسم ونهض ليلقي بنفسه على فراش فندق دبي..

عامان يعمل مع بيبا، يسافر معها، يخرج بها ومعها إلى كل مكان.. في كل رحلة يوفر لها فيها تذكرة أو فندقا

بالمجان يأخذ نسبة مما كانت ستدفعه.. يقبض راتبًا كبيرًا ما كان ليأخذه في آخر رتبة له في الشرطة..

بيبا تحترمه بل كثيرًا ما يعتقد أنها تخافه.. لولي الصغيرة تحبها، في كل عيد ميلاد تحمل لها هدية ثمينة وصورا كثيرة تذهب بها إلى زميلاتها في المدرسة.. يؤدي عمله معها بأمانة كبيرة ويختصر لها دروبًا لا تعلم عنها شيئًا لكن دومًا في صدره غصة صغيرة.. ما زال ابن حي "السيدة زينب" يستنكف أن يكون أجيرًا لدى امرأة وليتها امرأة في سفارة أو وزارة.. هي ممثلة.. تطاردها أعين الرجال وتبقى تبتسم لهم وتعدهم وإن كان كذبًا!

علوي شاكر في نهاية الأمر حارس شخصي لا أكثر.. ربما كانت زوجته على حق لكنه ليس نادمًا..

ليس نادمًا وليس راضيًا..

وياله من ألم كبير!

أرسل إلى ابنته رسالة صغيرة ثم أغمض عينيه لينام ساعات يصحو بعدها لمصاحبة حمقاء جاءت تظن أنها متخفية لتتبع رجلا يشعر علوي أنه نسيها وأغلق صفحتها إلى الأبد.. لكن بيبا حالها حال نساء الأرض..

حين تُعشق تَهْجر وحين تُهْجَر تركض خلف هاجرها من أرض إلى أخرى!

***

هذه المرة شعوره يختلف.. هذه المرة كل شيء يختلف.. حتى الحضور يختلف.. جميعهم من عالمه.. عالم الكلمة.. لا شبهة علاقات، لا علاقات مادية أو إنتاجية..

نايل البدر هنا لأنه "أديب".. لأنه "كاتب".. ليس هنا لفيلم نجح أو سيناريو تَقدَّم في سوق كل كلماته رخيصة وكل إنتاجه رديء.. هو في حضرة أرقى العقول وصفوتها.. هو وأربع كتاب آخرون من العالم العربي بانتظار إعلان الأول..

استدار بعينيه ينظر إلى أمه التي تجلس تتمتم بآيات ودعوات، يعلم ألا حواجز بينها وبين السماء..

اعترت روحه ذكراها وهز رأسه إيجابًا لا رفضًا.. ليتها هنا.. ليتها معه.. تراه في أبهى صوره.. ينحره الشوق إليها.. تمر دومًا برأسه وخاطره كبارق سريع في أسعد لحظات انتصاره وفي أقسى لحظات يأسه وينساها ما بينهما!

لم يخالجه شعور أنها تسللت إلى القاعة كلص جاء يسرق لحظة فرح..

لم تستطع أذناه أبدًا أن تسمع دبيب قلبها وهي تجلس وعلوي خلفها..

رغم لهفته، رغم فنه واختلافه هو في النهاية لا يرى إلا ما انتصب أمام عينيه ولا يسمع إلا ما يدق بالضجيج سمعه.. زينب كانت الاستثناء الوحيد يوم رأى ملامحها وكتبها قبل أن يلتقيا!

لو يعلم أنها الآن جمعت شعرها فوق رأسها وارتدت ثوبًا في لون الفيروز ووضعت على عينيها نظارة لها إطار أسود كبير بزجاج أبيض لا قوة له ولا لون فقط لتختلف ملامحها..

لو يعلم أنها كأمه تقرأ كل ما تحفظه من آيات وتتشابك أصابعها الباردة أحدهم بداخل الآخر كأنها تمسك بهم لسانها عن الصياح باسمه وتُثَبت بهم قدميها على أرض الاحتفال لتمنعهما عن الركض إليه..

لا هو يعلم ولا هي على سوى الصمت تجرؤ..

"الجائزة الأولى والكبرى من نصيب..

قالها مسئول الحفل وسكت لحظة كأنها الدهر وأكمل يقول في صوت صاخب:

"ناير البدر"!

الجميع يصفق والجميع يبدي السعادة رغم أن أربعة رجال آخرين إلى جواره يكويهم الألم والخيبة..

لماذا تهتز صورته أمامها؟! خلعت نظارتها وعادت تنظر إليه وهو في طريقه إلى مسرح الاحتفال.. رأته ينحني على يد أمه يقبلها وتمنت لو أنها هي أيضًا تفعل.. له أم رائعة تستحق الفرح..

ركض ناير إلى وسط المسرح الأنيق، صورته بالإضافة إلى صورة غلاف روايته باتساع المكان.. تسلم جائزته ونظر حوله في امتنان وهدوء وبعد أن هدأت أضواء الصور وقف خلف الميكروفون يقول كلمة وعيناه لا ترى سوى عيني أمه..

قال إنه سعيد وأنه يشكر من أعادوا له وللأدب والأدباء الاحترام والثقة.. قال إنه يوم لا ينسى ولن يُمحى وستبقى ملامحه على كل حرف بعد اليوم يخطه..

بعد كلمات قليلة نظر أمامه مكملًا في حنان:

رغم العناء والعزلة.. رغم الثمن الكبير من روحي ودمي فإن "الكلمة تستحق.. القلم يستحق".. الكلمة هي أمي التي لا رحم لي سواها وكلمة أمي سيدة النبض والكلمات..

تمنت بيبا لو تصيح تخبرهم أن هذا الرجل رآها قبل أن يلتقيا..

وصفها قطعة قطعة دون أن يبصرها.. تمنت أشياء كثيرة اختلطت بصور كثيرة ظنت أنها نسيتها..

رأته وهو يركض بين السيارات من أجلها، رأت ذراعيه حول كتفيها على سور الكورنيش المهترئ.. حلمت ربما للمرة الأولى منذ مولدها بعينين مفتوحتين، حلمت أن يراها ناير وتضمها وداد ويعودوا جميعًا معًا..

لحظات غابت في أحلامها تلتها دقائق ابتلعتها فيها أشواقها، وكالعادة أفاقت على كف علوي ممدودة أمامها يطلب منها النهوض.. الحفل انتهى وإن أرادت ألا يشعر بها أحد يجب أن تذهب الآن.. كان يمسك بذراعها لينهض بها بينما كانت تتنقل بعينيها بين ذراعه القوية التي تنهض بها وبين ناير ومن حوله من صحفيين ومصورين..

نسيت أنها مشهورة، نسيت أنها بيبا، ما عادت ترى أو تسمع سوى صوت مسجون في صدرها يرجوها البقاء..

كل الأضواء أُشعلت إلا ضوء العقل انطفأ في رأسها..

انحنى علوي بكلتا ذراعيه يرفعها عن مقعدها واستدارت بعض الرؤوس إليها حتى هو على البعد رآها.. التقت عيناهما، عندها فقط عادت إلى وعيها.. عادت إلى وعيها وعلوي يسير بها إلى بوابة الخروج لكن انفض جميع من حوله، من كان يصور ومن كان يتحدث.. ركضوا خلفها ينادونها ولم تستطع أن تهرب.. وقفت بيبا في دائرة كبيرة كل من فيها كانوا حوله قبل لحظات!

رأته يقف بعيدًا مع صحفي ما استطاع أن يبتعد رغم ثقتهم بأنه يريد أن يفعل.. نظر ناير إليها في غضب وأرخى عينيه ينهي حديثه، تمالكت نفسها تجيب على أسئلتهم.. هل حضرت من أجل البدر؟ هل انتهى الخلاف بينهما؟ هل يعني هذا أن يجتمعا في عمل جديد مثل "ماريا"؟! وإن كان لماذا لم تهنئه.. لماذا تجلس بعيدًا؟! كانت تشعر أنها حائرة تتمنى لو تصرخ في وجوههم جميعًا..

في عينيها بريق دمع تحاول ألا يطفو ورغم صدق المحاولات طفقت دمعتان حين رأت البدر يتأبط ذراع أمه ويغادر بها من باب آخر دون كلمة!

بالكاد أمسك بها علوي بين ذراعيه معتذرًا للجميع راكضًا بها هي الأخرى..

في طريقهما إلى السيارة لنقلهما إلى الفندق كانت تبكي في جنون وتقول:

حتى البكاء ما عاد مباحًا.. حتى البكاء يجب أن أبكيه وحدي..

كان علوي يشعر بها تترنح بين ذراعيه، أدخلها السيارة مسرعًا إلى جوار السائق الذي انطلق يراقبها في مرآته وأرخى الأول عينيه قائلًا:

لكل شيء ثمن، أنتِ اشتريتِ فلا تجزعي من الحساب!

***

كانت وداد تنظر إليه في حزن، يحاول أن يبدو سعيدًا هادئًا كأن شيئًا ما حدث!

تناولوا طعام العشاء في احتفال جميل وحين سألوه عن ظهور بيبا ابتسم واندفعت أمه تتحدث عن حبها لها وكيف أنها من أجمل الفنانات.. لم يلح أحد في الحديث ولم يسأل أحد إذا كان ما تقوله الأم هو الحقيقة فَلِمَ لم يقترب أحدهم منها حتى للعناق أو المصافحة؟!

انتهى حفل العشاء بسلام وها هما في غرفتهما من أكثر من ساعة تلفهما ريح صمت عاتية.. نهضت في تثاقل تخبره أنها ستأخذ حمامًا ساخنًا وتنام..

في الطريق إلى الحمام أمسك ناير بكفها وقال:

سامحيني.. أفسدت بيبا فرحتك..

كان يجلس على حافة الفراش يدها بين أصابعه ورأسه متدلٍ فوق صدره، تعلم أنها إن رفعت أو رفع عينيه لوجدتهما في الدمع غارقتين.. فلتذهب إلى حمامها وتعفيه من الحديث أو البكاء.. أطلق يدها وبعد خطوات استدارت إليه تقول في صدق:

ألا تذكرني على ماذا نعاقبها؟!

لحظات من الصمت رفع ناير رأسه بعدها لتلتقي عيناهما في ذهول وأكملت وداد:

على ماذا نعاقبها؟ هل فعلت شيئًا لا أعرفه؟!

ابتسامة صغيرة مريرة لاحت على وجهه وأكملت تتقدم نحوه من جديد:

لأنها ادعت موت أمها؟ لأنها امتنعت عن الذهاب إليها والوقوف معها؟ لا أحد يعلم ما بينهما..

نظر إليها ناير في ذهول وأكملت:

نعم.. الأم مسكينة، ضعيفة لكن هناك أمورا في الصدور لا يعلمها إلا الله.. على ماذا نعاقبها؟ على نجاحها؟ شهرتها؟ قصص نسمعها عن علاقات لها؟! هذه الفتاة نامت على فراش أبيك وأكلت من صحنك.. ضمها صدري كما أنها حقًا..

سكتت لحظة ونظر إليها يستجديها أن تكمل وقالت:

تحبك.. وأظنك تحبها.. علام نعاقبها؟!

أغمض عينيه في ألم وأشاح بوجهه بعيدًا واستدارت أمه لتمضي إلى حيث كانت تتجه..

حين غابت وأغلقت عليها الباب وبعد أن تسرب إلى أذنيه صوت الماء أمسك بيده سماعة هاتف الغرفة وقال

محادثًا موظف الفندق:

هل تسكن بيبا معنا؟

***

ألسنة من اللهيب تكويها.. ماذا تقول للسمنهوري عند عودتها.. صورتها تبكي على الميديا، صورتها تستند على ذراعي علوي أيضًا عليها.. لا أسرار أبدًا في حياتها.. الثمن كبير بل أكبر مما أصبحت تحتمله.. فلتترك هذه المهنة.. أصبح لديها ملايين..

نظرت حولها في غرفة الفندق في جنون.. تدفع زينب هذه الملايين جميعها عن طيب خاطر ولا تُحرم وقوفها أمام الكاميرا.. تحب ما تفعله.. تقتات من الأضواء وتنتشي باستدارة الرؤوس نحوها وشهقات الشفاه!

فلتهدأ.. فقط لو تؤمن أن ناير ليس لها..

يغضب منها السمنهوري أيامًا ويعود راكعًا.. ليس فقط لأنه يحبها بل لأنه معها ينجح أكثر ويحفر اسمه بعمق في ذاكرة السوق.. يتحدث عنها المجتمع معلنًا أنها مجنونة بحب البدر وتطارده.. فليكن، هذا يجعلها محور الأحاديث فترة أطول.. يدفعون أكثر لاستضافتها في برامج أكثر من الفترة السابقة.. كل ما تراه مدمرا هو في صالح نجوميتها..

كل شيء يدور حول نجوميتها.. آدميتها ما عادت تعنيهم ولا تعنيها!

أخرجت حقيبتها الصغيرة وأسرعت تقذف فيها بكل ما أحضرته، بكت أمام علوي ترجوه أن يخرجا إلى المطار ويركبا أي طائرة وإن حملتهم ساعات إلى مطار آخر.. لا تريد أن تنام هنا.. لا تريد أبدًا أن تكون إلى جواره..

طلب منها إعداد حقيبتها ريثما يتدبر الأمر..

ألقت بقطعة من ملابسها إلى قلب الحقيبة وكسحت من أمطار دمعها بظهر كفها متجهة نحو الباب بعد طرقات سمعتها.. فتحت الباب دونما اهتمام، تثق أنه علوي، استدارت لتدخل لكن وقفت ساقاها مكانهما حين سمعته يناديها باسمها..

كأنها مسمار رشقوه حتى إخمص قدميه، تحاول أن تقتلع ساقيها وتستدير لكن عبثًا تستطيع!

عاد يناديها باسمها الذي ما عاد يناديها به سواه..

استدارت بكل ما أوتيت من قوة وشهقت تقول:

ناير!

أغلق الباب ودخل.. أصبح واقفًا أمامها.. كم عاما مضى دون أن يقفا بهذا القرب؟! كأنها تسقط من أعلى جبال

الأرض.. خانها شعورها وها هو جسدها يخونها ويميل على صدره..

طوقها بذراعيه في حنان وقال:

سامحيني!

بكت أكثر وعلا صوتها حتى أخافه وأخافها ارتفاعه، حاولت أن تسكت، حاولت أن تكتم نحيبها فكل لحظة إلى جواره أولى بالحياة لا بالبكاء لكنها ما استطاعت..

أنهارٌ طال سجنها، أحمق من يظن أن بإمكانه صدها بكفيه إن فاضت..

كان يضمها في إشفاق كبير ويهدهدها كالأطفال.. تقطعت أنفاسها من البكاء على صدره حتى شعر بها تكاد تغيب..

خطى بها وهي بين ذراعيه ليجلسها على حافة فراشها بجوار حقيبتها المفتوحة.. جلس تحت ركبتيها يمسح بكفيه ما استطاع من دمعها، حين استعادت بعضًا من سيطرتها على نفسها فتحت عينيها لتراه ينظر إليها..

لا تصدق أنه قريب، لا تصدق أنه معها وقالت في ألم:

لماذا.. لماذا يا ناير؟!

أغمض عينيه ووضع كفيه حول وجهها يرفع خصلات شعرها المبتلة وقال في صدق:

لأني أخافُكِ!

توقعت أن تسمع كل شيء وأي شيء إلا هذه..

نهض عن الأرض واتجه إلى شرفة الغرفة يواجه ماء البحر وأكمل كأنه يفرغ هو الآخر ما بات لا يطيق كتمانه..

قال البدر:

أخاف مجموعة النساء التي تسكنك.. أخاف الفيومية التي حملت حقيبة صغيرة على ظهرها ذات ليلة وطرقت بابًا لا تعرفه لتشتري مصيرا مجهولا بدمع أم لا حيلة لها.. أخاف جبروت زينب!

همت أن تفتح شفتيها عَلّها تدافع عن نفسها لكنه أكمل في صوت عميق يقول:

أخاف "ماريا" التي جاءت كما كتبت حتى شامة صدرها.. أخاف ماريا التي ارتوت من أكثر من رجل وتبقى تحبني!

أخاف بيبا التي شقت طريقها كالسهم لتصبح الأولى.. أخاف تلونك.. ضحكاتك وأنت مع الذئاب ولعناتك

عليهم بعدها.. أخاف دمعًا لا أعلم صدقه وحبًا لا أدرك مداه.. أخاف كثيرًا المارد المجنون بداخلك..

استدار إليها وقال:

أنا رجل السلام غايتي والقلم وحده حليفي.. ماردك لا يحيا في سلام..

قلمي ينكسر إن أخرج له ماردك وجهه..

كانت تنظر إليه في ذهول.. واقترب منها يقول:

لستُ غاضبا منك لأهدأ ولستِ متهمة لأصفح عنك..

أنا خائف منك..

من جنون شهرتك وسفه حممك!

لا رجل يحيا مع امرأة تخيفه!

قالها في ألم وشق طريقه نحو الباب لكنها استعادت نفسها.. كأنه صفعها وأفاقها وصاحت:

أنت لا تخافني..

استدار يقول في قسوة:

أنا لا أكذب!

أجابته في مرارة:

وتلك هي القصة!

نهضت وصاحت:

بيبا الكذب مهنتها.. بيبا تتلون، بيبا رخيصة.. البدر لا يكذب.. البدر ذو رسالة، إن أراد العزلة احترموه وإن ظهر بجلّوه.. أنت
لا تخافني.. قضيتك معي أنك ترى نفسك أفضل مني.. ترى نفسك عملاقا وأنا ضئيلة..

اتسعت عيناه في ذهول وهو يسمعها، ما أثار ذهوله وجنونه أن صوتًا بداخله كان يصيح أحقًا لا تعرف أنه الأفضل!

انطلقت كالمذبوحة تصيح:

أنا أفضل منك..

عادت تكررها وعاد ينظر إليها في إشفاق.. اقتربت منه كأنها ما كانت منذ لحظات تبكي على صدره، أمسكت بذراعه وصاحت تزأر:

تكتب كتبك وقت تريد وفي أي مكان تحدد، إلى جوارك كوب قهوتك وموسيقاك.. كلمات.. مجرد كلمات تلصق إحداها بالأخرى.. كلمات ترسم بها شخوصًا وتحدد بها لهم أقدارًا.. حروف ميتة على سطور سوداء.. إن كتبت صفقوا لك وإن امتنعت انتظروك..

كان ينظر إليها في ذهول كأنها تحولت إلى زعيم سحرة في لحظة وأكملت تصيح:

أنا لا أحد ينتظرني.. إن غبت أموت.. أنا أرتدي ثيابًا لا أحبها لأخرج في أوقات لا أريدها.. أجتر أحزاني لأبكي وأضحك وإن كنت أتمزق، أترك شفاهي وجسدي بين أكف وأعين حمقى جوعى، هل تعلم لماذا؟!

في سكون قال:

لأنك تمثلين..

صاحت تقاطعه:

لأن كلماتك وحدها عاجزة.. أنا أحيلها إلى روح ودم.. أنت كتاب يُلقى على الأرصفة لكن أنا أدخل البيوت وأقتحم الأسرّة، أسكن الأرواح والأفئدة!

أنا حقيقة يا ناير.. أنت وهم وخيال!

كان ينظر إليها كمن ينظر إلى طفل أحمق يهذي، نتركه يفعل فقط لأنه طفل.. كانت وكان جنونها يستعر وهي تقرأ عينيه، أكملت صراخها تقول:

تظن أنك رسول رسالتك القلم والموسيقى.. جميعنا رسل.. أتظن رسالتك أنقى؟! أبدًا..

كانت تضحك وهي تبكي، تهمس رغم أنها تصرخ، تصوغ حكمًا وهي تهذي قائلة:

جلال الرسائل ليس بكيف تُكتب أيها المفكر.. جلال الرسائل بكيف تُقرأ.. جلالها بما يبقى منها على أرواح من قرأها..

في سخرية مريرة أكملت:

كتبك كالخمر لا يشربها إلا فئة صغيرة ضائعة.. لست أفضل مني أبدًا.. أنا أكثر منك شجاعة.. أنا أعلن أني أمثل بينما تُخفي تمثيلك وأوهامك خلف عذب الكلمات ومنمق الأحرف..

رفعت سبابتها إلى السماء في كبرياء وصاحت تقول:

أنا أفضل.. ابنة بائعة الدجاج أكثر صدقًا وعطاءً.

هل تمضي ونترك الحمقى يقولون ما يريدون لمجرد أنهم حمقى ولأننا ننتقص من أنفسنا وقيمتنا إن شرحنا لهم أم واجبنا أن نخبرهم الحقيقة ثم نمضي..

لا يعلم، لكن هذه التي كانت تبكي منذ دقائق على صدره كجرو مذعور تقتله كلماتها.. هذه التي ترفع سبابتها إلى السماء كأنها ترى نفسها تسكنها لا يجب أن تُترك في غيها وإن كانت طفلة..

أمسك بسبابتها الباردة المرتعشة بين أصابعه وقال في حزم وقوة:

المسافة بين السماء التي تشيرين إليها والقاع الذي تعيشين فيه هي المسافة بين قلم يكتب ووجه يتلون ولسان يردد ما كُتب..

الكلمة أجلُّ ما في الحياة.. الموت كلمة والميلاد كلمة.. تدخلين الجنة بكلمة وتُلقين في الجحيم بكلمة..

خاطب الله عبيده بالكلمات.. أيتساوى من يصنع الكلمة بالأخرق الذي يرددها؟!

كان يضغط على أصبعها ويراها تتألم، لا هو يرحمها ولا هي تستغيث أو تتألم.. أكمل وهو أكثر منها ألمًا:

أنا أنزف حروفًا وأنتِ تتناثرين ثيابًا وألوانًا.. قد تكونين على حق إن قلت جميعنا نؤدي أدوارًا على مسرح الأرض لكن شتان يا صغيرة بين دور ودور..

يعلن أنها صغيرة ضئيلة، لهذا لا يقترب منها.. كانت تسمعه وفي عينيها دمع يتكور وكان يقول وعلى رجع كلماته آمال تموت..

حين رأى دمعها وارتعاشة شفتيها أطلق كفها ودون وعي رفع سبابته مثلها إلى السماء وقال في زهو:

الخمر كلما مضى بها العمر تتعتق وتصبح أعلى ثمنًا وقيمة..

في مرارة قال وهو يبتعد:

تبقين وتبقى سلعتك كحالة السُكر ينتشون بها وقتًا ثم يفيقون.

كانت تنظر إليه في جنون وهو يفتح باب جناحها ونظر إليها ثم قال:

وماذا بعد السُكر والإفاقة؟!

لا شيء..

لا شيء سوى الندم والغثيان!

قال تلك الكلمات وصفق خلفه الباب ومضى!

***

تراجعت بظهرها في ذهول حتى ارتطمت بشرفة غرفتها، استدارت تنظر إلى انعكاسات قوارب المارينا في الماء والأضواء، سقطت تجلس على الأرض في سكون..

جاءها يعتذر، يعلن خوفه منها وفي لحظة علا صوته مخرجًا كل ما خبأه ما بجوفه من احتقارٍ واستصغار

لها.. رمت بنفسها على صدره تتمنى لو تذوب على كتفيه، وفي لحظة هاجت وماجت تعلن غيرته منها وأنها الأفضل.. كيف نتحول هكذا؟ كيف يتحول همس الحب وأنين الشوق إلى دناءات مفاضلة وعقم جنون!

فقدت ناير.. فقدته إلى الأبد.. فقدت الرجل الوحيد الذي لا تخجل من السقوط على قدميه ولا تشك في نواياه أو ما يريده منها.. فقدت الرجل الأوحد الذي رآها ووصفها وعرِفها وعَرَّفها على نفسها.. فقدته حين أخبرته أنها تعلم ما يدور بداخله ويحاول أن يخفيه..

ماذا جَنْت؟ الحقيقة دومًا تأخذ في وجهها كل شيء.. لهذا خلق الله لنا صدورًا ندفنها فيها..

كانت ترتجف ولا تعلم أهي ارتعاشات موت أم إفاقة؟! كانت تستعيد نظراته الساخرة مع خناجر كلماته وتضم ركبتيها إلى صدرها وتبكي..

لم تفهم صوت الطرقات على بابها، لم تتعرف على صوته يناديها طويلًا.. هي لا ترى سوى صورة مياه المارينا المرتعشة!

لحظات طويلة خفت بعدها النداء وتوقفت الطرقات ثم أبصرت علوي ينحني عليها ويحملها قائلًا:

رأيته يخرج من عندكِ؟ هل آذاك؟ هل آذاكِ؟!

كانت على ذراعيه تنظر في سكون، ليتها تستطيع أن تخبره أنه قتلها عَلّه يقتله ويثأر لها!

وضعها على فراشها وبحذائه لطم حقيبتها المفتوحة لتسقط بعيدًا.. استدار لمن فتح له باب الغرفة يصيح:

نحتاج طبيبا.. نحتاج طبيبا بسرعة!

***

لم تكن تعلم أن هذه الشابة الناجحة الشهيرة التي تكتب رسائل الميديا والإعلام عنها كل هذه المقالات بهذا التواضع والبساطة.. ردت جودي ناجي على رسالتها وأصبحتا تتبادلان رسائل سريعة قصيرة.. بداخلها شعور يزداد عمقه بأن هناك شيئًا خفيًا جمع بينها وبين زوجها..

في كل مرة ترسل إليها تخبره وفي كل مرة تجيب جودي أيضًا تخبره ودومًا.. دومًا ينظر عامر إليها نظرة لا تفهمها ويرخي رأسه بعدها ليعمل أو يرفعها بموضوع آخر.. لماذا تصر على مراسلة جودي؟! في البداية كان حقًا إعجابًا يصل حد الانبهار لكنه الآن ما أصبح كذلك.. نهال إن غابت عنها جودي تتذرع بأي قصة أو قضية أو حتى دُعابة عن حقوق الإنسان لترسلها لها.. نهال تريد أن تعرف القصة التي جمعتهما..

لماذا يحمل عامر لامرأة كهذه ضغينة أو حسرة كالتي تراها في عينيه..

كتبت عشرات المرات إليها تسألها إن كانت تعرفه ودومًا كانت تمحو السطور.. الرسائل تمنحك وقتا للتفكير والرد.. تريد أن تسأل جودي وهي أمامها لتقرأ رد فعلها قبل أن تفكر في كلماتها.. أمها في "نيويورك" تقضي أسبوعا مع أخيها، ستذهب نهال إليها بضعة أيام وتعودان معًا إلى مونتريال..

ألحت الأم على عامر بالذهاب لكنه في كل مرة كان يرفض فيها كانت ترى الألم يطفر من عينيه على عكس سابق عهده.. لا يعنيها إن كانت هناك قصة حب قديمة بين جودي وزوجها.. يكفيها أنه لم يتزوجها واختارها دونًا عنها.. بل ربما كانت تسعى وتتمنى أن تكون هي الحقيقة.. يُرضي غرورها وأنوثتها كثيرًا أن تكون نهال العلمي أجمل وأبهى في عيني عامر من جميلة مناضلة مصرية ذاع صيتها اسمها "جودي ناجي"..

ستلقاها بعد يومين في مقهى فندق "بارك أفنيو"..

أخبرتها جودي أنه قريب من مقر عملها ووعدتها بشرب القهوة معها في مقهى الفندق.. حين تعود من رحلتها وبعد أن تتأكد من نظريتها تأخذ عامر بين ذراعيها وتخبره أنها علمت الحقيقة ورغم هذا ليست غاضبة..

النساء لا تغار حين ترى رجالها فضلوهن على من يظن البشر أنهن أكثر شهرة وأناقة وثراء..

نصرٌ لها وكرامة أن يتركها ويختارها لتكون هي الحبيبة والزوجة!

***

نيويورك عندها حياة.. روح صاخبة.. مشتروات لا حصر لها.. عروض مسرحية في Broadway لا يجب أن يفوتها عرض منهم.. تتمنى لو يقبل عامر الانتقال إليها..

شقيقها وعائلته الصغيرة هنا، أمها دومًا تأتي وطويلًا فيها تبقى..

قضت الأمس كله في التسوق، اشترت حقائب يدوية وملابس لها ولزوجها، يمنحها الكثير لكن أمها أيضًا منحتها بطاقة مفتوحة تشتري بها ما شاءت..

نهال مدللة في عائلتها، مات أبوها وهي طفلة ومنذ تلك اللحظة وشقيقها الأكبر وأمها يتفانيان في تدليلها.. عامر أيضًا يدللها، أخبرته أن ما ورثته عن أبيها وما يمنحه إياها هشام سنويًا من نصيبها يكفيهما معًا ويفيض فلا حاجة به لذبح نفسه في عمله صباح مساء كما يفعل.. عامر ليس فقيرًا بل هو في ثرائهم لهذا لم يعترض أحد حين أعلنت رغبتها في الزواج منه.. هو فقط مهووس بعمله، مسكون بالرغبة في النجاح والتفوق..

ابتسمت نهال وهي تنظر إلى مرآة غرفتها في بيت أخيها في مانهاتن، أنيقة.. جميلة كما أرادت أن تبدو وأكثر.. انحنت تحمل حقيبة يدها ومعها كيس ورقي صغير عليه حروف "شانيل" ومضت إلى حيث موعدها مع جودي، اشترت لها بالأمس محفظة من شانيل ثمنها يتجاوز الألف دولار..

من المقبول رغبتها في أن تبدو في عيني جودي جميلة وأنيقة وثرية لكن هي نفسها لا تفهم لم تحمل لها هدية غالية كهذه..

أشاحت بوجهها وأكملت طريقها إلى حيث مكان اللقاء، الفندق الذي اختارته جودي قريب من منزل شقيقها مما يعني أنها جارته ومن يعلم؟ قد تكون أحد سكان العمارة الأنيقة التي يسكنها..

حين وصلت إلى مقهى الفندق وجلست اختارت أن تضع ساقًا على الأخرى، وضعت حقيبتها وبجوارها الهدية ونظرت حيث باب المقهى في هدوء..

هل تتأخر؟! لا تظنها تفعل، أخبرتها أنها لا تملك من الوقت أكثر من عشرين دقيقة..

شهقت نهال حين رأتها تدخل، للحظة تمنت لو تعود إلى المنزل وتبدل ما ارتدته.. جودي كانت ترتدي بنطلونا من "الجينز" الأزرق الفاتح وقميصا "بيربيري" بسيطا، لا

مساحيق على وجهها، شعرها مجموع تتساقط منه خصلات لم تحاول حتى أن تجمعها إليه.. كانت بسيطة رغم جمالها..

أشارت لها بكفها وتقدمت نحوها في ابتسامة كبيرة، وقفت تمد يدها لتصافحها واقتربت جودي تقبلها في ود..

من على كتفيها رأت شابًا وسيمًا أنيقًا يبدو أنه معها..

ابتعدت جودي ومدت يدها نحوه تقول باسمة:

لم أستطع الحضور وحدي.. يوسف..

انتظرت نهال أن تكمل وتقول زوجي أو خطيبي أو حتى صديق لكنها لم تفعل.. واضح أنها لا تريد تعدي الحواجز..

هزت رأسها له في ابتسامة ليجلسوا معًا، دون تفكير رفعت جودي يدها لساقي المكان لتطلب لها وليوسفها قهوة ثم استدارت تسألها عما تريد.. رغم بساطتها هي قوية كأنها زعيم..

تبادلوا حديثًا سريعًا عن مصر.. عن المرأة، عن كل ما تحاول أن تفعله وتقدمه للنساء وخاصة في المجتمعات العربية ورفعت جودي رأسها قائلة:

إن كان لك علاقة بالجالية العربية في مونتريال وصادفتك أي قصة تستحق التدخل أو المساعدة لا ترددي..

أكملت وهي تنظر إلى عينيها:

هل تريدين العمل معنا؟!

تتوالى مفاجآت جودي لها في هذه الدقائق القصيرة، واضحة مباشرة، متحفظة وبسيطة وأيضًا جميلة هي ورفيقها.. أخبرتها أنها لا تفكر في العمل، تكره الالتزام، تريد الاستمتاع بكل لحظة مع زوجها..

ابتسمت جودي تخبرها أن العمل لا يقف أبدًا في وجه استمتاع شخص بآخر..

بعد ارتباكة صغيرة ورشفة من فنجان قهوتها مدت يدها بالهدية وفي دهشة قبلتها جودي دون انبهار وقالت الزائرة:

إن جئتِ يومًا إلى مونتريال أنا وعامر يسعدنا استضافتك
لا تعلمين كم أحدثه عنك..

شعرت برجفة عابرة في عيني يوسفها إلا أن جودي ابتسمت في هدوء تهز رأسها بالإيجاب.. ما كان من

الممكن أبدًا أن تكتفي بذكر الاسم.. هناك آلاف العوامر وقالت ناظرة في عينيها:

هو أيضًا خريج الجامعة الأمريكية.. عامر الإبياري.. أخبرني أنه كان متفوقًا ومن أوائل دفعته..

ريح باردة رأتها نهال تمر بوجه جودي وريح ساخنة رأتها تلون وجه رفيقها وقالت:

أتعرفينه؟!

رفعت حاجبيها في هدوء وبابتسامة صغيرة أجابت:

لا أذكر هذا الاسم.. مضت أعوام طويلة على تخرجي..

ليست سهلة أبدًا لكنها لن تعود صفر اليدين فقالت وقد بدأت ألسنة الخيبة تطل من بين حروفها:

أخبرني أنه يعرفك..

بيدها أشارت إلى الساقي ليحضر فاتورتهم واستدارت تقول:

هل قطعتِ هذه المسافة من أجل هذا السؤال؟

حين عاد الساقي حاولت نهال أن تدفع لكن في هدوء نظرت جودي إليها قائلة:

أصبحنا من أهل البلدة.. أنتِ غريبة وضيفة..

رأتها تضع ورقة مالية كبيرة وأمسكت بكف صديقها ونهضت قائلة:

وقتي ضيق، سعدت بلقائك..

لم تمنحها فرصة لكلمة أو عناق..

مضت دون حتى أن تأخذ هديتها، حاولت أن تلحق بها لكنها كانت تثق أنها لن تأخذها.. رأت رفيقها يضع ذراعه حول كتفها في حنان ورأتها تميل برأسها عليه.. هناك أمر ما.. أمر كبير..

إما أنها أفسدت اللقاء بإلحاحها أو أشعلت ذكرى كانت بداخل زوجها وبداخل جودي ميتة!

لم يعد أحدهما يعنيها.. ما يعنيها أنها تريد أن تعرف أين الحقيقة!

***

ضغط يوسف على يدها الباردة بين يديه في قوة كأنه يمنحها من قوته.. أخبرته أنهما في طريقهما إلى لقاء سيدة مصرية تراسلها منذ شهور وأخبرتها أنها تتمنى رؤيتها.. أحسن صنعًا بمصاحبتها، فخور هو بها وبقوتها أو ربما بتظاهرها بالقوة.. يشعر أنه كان أكثر تأثرًا باسم عامر الإبياري منها.. لكن منذ غادرا باب الفندق وهي صامتة، كفها باردة ترتعش بين يده..

لا يعلم هل الصمت أفضل أم الحديث؟!

انحرفت به بعيدًا عن طريق مكتبها وسارت إلى الحديقة الكبيرة أمام الفندق..

على الدرجات الرخامية الواسعة وحيث يجلس المئات كل يوم تركت يده وألقت بنفسها على أحد السلالم.. جلس إلى جوارها في صمت ورفعت أخته عينيها تنظر إلى من يتجولون هنا وهناك.. كل شيء جميل وكل إنسان صغيرًا كان أو كبيرًا مشغول بما يفعله..

علمتها الحياة وحدها أن تبتلع مشاعرها في جوفها، علمتها القضايا التي تتابعها ألا تقف أمام الألم طويلًا وإلا كسب الجولة وابتلعها ومن معها..

عامر الإبياري شبح من ماضٍ بعيد وزوجته بلهاء تريد العبث مع الأشباح.. أخطأت حين صدقت أن هناك امرأة لا تحتاج منها سوى رؤيتها وصداقتها! وضعت كفيها على ركبتيها وهمت بالنهوض قائلة:

لن تفسد إجازتك بتوافه الناس والأمور.. فلنجد شيئًا نفعله.. لن أعود إلى المكتب..

قالتها ونهضت تبتسم في وجه أخيها ونهض ينظر إليها قائلًا:

كنت دومًا أتحاشى الصدام بك لكن لا أظن ما كنت أفعله صوابًا..

التقت عيونهما.. في عينيها ألم دفين وفي عينيه صدق واهتمام..

في حنان قال يوسف:

إخفاء الألم ليس قوة.. مواجهته هي القوة.. ما زلتِ تحبينه؟!

طفت ابتسامة مريرة على وجهها وأمسكت بوجهه بكلتا كفيها وضمته إلى صدرها تقول:

كبرت يا حبيبي..

همس لها أنه يحبها وصاحت بصوتها أنها تحبه..

في الطريق وكلاهما يمسك بيد الآخر أخبرته أنها ليست نادمة على قرار يوم اتخذته.. أخبرته أنها ما زالت تحمل لعامر مشاعر مختلطة لكن أرسل الله زوجته لتعيد ترتيبها بداخلها..

لكل إنسان أولويات.. كل النساء إما عاشقات وإما باحثات عن العشق.. قلائل من يتحملن نتائج هذا القرار الكبير..

هي واحدة منهن..

جودي ناجي كما أصبح اسمها تلملم رفات نساء أضاعها العشق لتفيق على فقر واضطهاد وظلم.. حتى نهال التي جاءتها اليوم تراها بحاجة إلى درس كبير..

سيبقى عامر في ركن صغير داخل قلبها.. ركن تركن إليه في آخر يومها بعد الاجتماعات والخطب والتقارير.. ركن تغيرت ملامحه اليوم حيث سقط منه الأمل لكن ليست نادمة أبدًا..

حين وصلا إلى وجهتهما ضمها شقيقها إلى صدره وقال:

لا يكفي ألا تندمي.. أريدك سعيدة..

أمسكت بكف شقيقها وابتسمت في ثبات تقول:

بك سعيدة.. بأمي يوم رأيتها وقت الحادثة.. ببابا الذي أصبح كبيرًا دون تنازلات..

همَّ يوسف أن يقول شيئًا لكنها أكملت:

أما ترى ما صنعه الحب بزوجة عامر؟

الحب يُشقي ولا يُسعد إلا في أول أيامه!

***

ما أن دخلا غرفتهما بعد دخول الأم للنوم حتى استدارت نهال نحو الحقيبة الموضوعة على فراشهما

وفتحتها تخرج منها جميع ما اشترته لزوجها.. كان يبتسم في حنان وهي تخبره لماذا اختارت له كل قطعة وكل لون..

في هدوء وصدق قال وهو يتجه نحوها:

أحتاجك كثيرًا..

ضمها إلى صدره في حنان وبعد لحظات وقبلات سريعة انحنى يحمل الأشياء بعيدًا عن السرير وسمعها تقول:

هل أخبرتك أني التقيت جودي؟!

تسمرت قدماه لحظة ونظر إليها في ألم واضح، رآها تحدق في وجهه كأنها تبحث عن شيء، استدار بظهره إليها يضع ما أحضرته في خزانة الملابس ونادته ليستدير وفي هدوء قالت:

ألا تريد أن تعرف كيف كان اللقاء؟!

أغمض عينيه في ألم وحاول أن يضحك قائلًا:

ليس الآن.. الآن أنا أشتاقك وأحتاجك..

عادت تسأله عنها وقال في يأس:

أخبرتك أني لا أذكر شيئًا..

أخرجت قميص نوم ووقفت تخلع ثيابها وترتديه ثم قالت:

هي أيضًا قالت إنها لا تذكرك..

اتسعت عيناه في ذهول، أما طلب منها عدم الإتيان باسمه..

اقتربت منه وضمته إلى صدرها تقول:

حتى رفيقها بدا كأنه يعرفك!

شعرت برجفته بين ذراعيها إلا أنه في هدوء خطى بها نحو الفراش واستدار يقول:

فلننم!

أغمضت عينيها في حيرة.. لا تعلم كيف تتوقف عن سؤاله عنها، لا تعلم كيف يسكنها هذا الشك الكبير.. ما تعلمه أن ما تفعله وتقوله يُحزنه، لا تريده أبدًا حزينًا.. وضعت يدها على كتفه لكنه تظاهر بالنوم..

شعور كبير بالألم يعتريه، لماذا تفتح له باب الذكريات؟ لماذا يحاول أن ينسى وتُذكّره؟ لماذا دون نساء الأرض استوقفتها جودي؟

لو كانت نهال أكثر رصانة، لو كان الوضع معكوسًا وكانت جودي زوجته لاستدار نحوها واعترف بقصة الماضي

طالبًا منها الرحمة لكن نهال تخلط الأوراق وتحيل الأمر مأساة ومحاكمة..

يتمنى لو يصرخ ويخبرها أنه بالكاد يدفعها بعيدًا عن رأسه وعروقه لكنها في كل مرة تتحدث عنها يبحث بعدها عن صورها وأخبارها..

البصيرة في الحب أكبر وأهم حتى من الوفاء له!

رغمًا عنه خرجت منه آهة أعلمتها أنه ليس بنائم..

أغمض عينيه من جديد حين نادته.. تحت جفنيه رآها، لم يستطع أن ينظر طويلًا.. رآها كما وصفتها نهال..

جودي معها رفيق آخر!

هل يغار؟ وهل يفعل على امرأة هجرته منذ أعوام؟

لو أنها فقط تساعده على إطفاء نار أشعلتها دون حاجة لكن نهال بلا بصيرة!

في مرارة ابتسم محاولًا النوم.. أما قال البصيرة في الحب أهم ما فيه!

***

أحضرت له كوب شاي ووضعته أمامه في هدوء ثم جلست على مقعدها ترقبه، أسبوع بأكمله لم يدخل فيه

علوي البيت، كان عمله في الشرطة أهون..

عاد بظهره على المقعد وأغمض عينيه قائلًا:

أكان يجب أن تذهب إلى رحلة؟ جئت لأراها..

يعلم الحرائق التي خلف صوت أمه حين أجابت:

علية بلا أم وحين يغيب أبوها عن البيت أسبوعا لا يصح أبدًا أن أكسر لها خاطرا حين تود مصاحبة المدرسة في رحلة الجمعة..

نهض عن مقعده يحمل كوب الشاي في يده، انحنى يضع على رأسها قُبلة وقبل أن يتجه إلى غرفته قالت الأم في رنة غضب:

أنت حارس للممثلة، لست ممرضا أو خادمة..

لم تبق أسبوعا إلى جوار وزير في المستشفى!

أمه كزوجته.. لا فائدة! ابتسم في ألم ومضى نحو غرفته قائلًا:

حين تعود أيقظيني دون أن تخبريها أني هنا..

حين دخل غرفته خلع حذاءه وركض كأنه يزحف إلى فراشه بكامل ملابسه.. ارتمى عليه شاخصًا عينيه إلى سقف الغرفة..

كان أسبوعا مؤلمًا.. عاد بها من دبي إلى المستشفى، تواتيها نوبات بكاء عنيف ونوبات سكون وذهول.. كان يجب أن يبقى معها، يمنع تصويرها سواء من زائر أو من ممرضة خرقاء تضع صورتها وهي تبكي أو تهذي على وسائل الميديا..

كان يجب أن ينام في غرفتها مفتوح العينين ليأخذها بين ذراعيه حين تبكي ويستجديها أن تأكل حين تفيق، وأن تجيبه ولو بكلمة حين تغرق في الصمت والسكون!

أمه على حق!

لو بقي في الشرطة وأصبح حارسًا حتى لرئيس وزراء البلاد ما فعل كل هذا وما مضى عليه أسبوع بأكمله دون أن يرى ابنته.. لا يعلم لماذا تركوها تغادر المستشفى بل لا يعلم لماذا أدخلها بيتها وتركها ليحضر هنا، كانت ترتجف بين يديه.. رجته أن يبقى لكنه رجاها أن تنام واعدًا إياها بالعودة، فقط يريد أن يرى علية..

لم يقل أنه يريد رؤية أمه التي أضنت عمرها عليه..

يريد رؤية ابنته! كيف نحب أبناءنا أكثر من أمهاتنا وآبائنا حتى بعد أن أصبحنا آباء وأمهات!

لو أنه وجد علية في البيت ما شعر بوخز دبابيس الإرهاق والتعب الذي يشعر به.. لو كانت هنا لضمها ودار بها عشر دورات حتى تصيح "كفى يا بابا".. ما كان

ليعود إلى عمله إلا بعد أن تضحك وتلعب ويحكي لها عن بقائه مع بيبا لاحتياجها له..

يثق أنها ستعذره، هي أيضًا تحبها! لو وجد صغيرته في البيت ما سقط على فراشه بملابسه ولا سقطت على حافتي عينيه هذه الدموع..

لم تبكي يا علوي؟

أتبكي خجلًا من بيبا لأنك تركتها؟ أم تراك تبكي حسرة على كل هذه اللحظات وعليتك بعيدة وبيبا ترتجف وحدها؟!

ليت هذه الدموع خجلًا من أمك التي اكتفيت بوضع قبلة على جبهتها دون حتى أن تجيب على تساؤلاتها وهي أحق بالحب والقُبل منهم جميعًا.. رفع ساقه في تثاقل، فليخرج إليها وليعتذر.. ليُقبل ويعتذر ويحكي ويحتمل اللوم.. هي أمه.. هي من آوته في منزلها حين باعته زوجته، هي التي تحتضن حبة قلبه، تطعمها وتراعيها وتربيها.. تستحق ألا ينام..

أمه تستحق أكثر من هذا..

حاول أن يرفع ساقه لكن خانه جفناه وسقطا ليسقط في نوم عميق وكل ما برأسه جملة واحدة يتمنى لو أنه يثبت لنفسه عكسها..

"نحب أبناءنا أكثر من آبائنا وإن هجرونا أو حتى خجلوا منا وزهدونا"!

كان كالمستيقظ في نوم أو كالنائم في يقظة..

جزء منه يطلب بيبا على هاتفها الخاص ليطمئن، وجزء آخر نهض إلى أمه وقَبَّل يدها ثم وضع رأسه على فخذيها منخرطًا في بكاء عنيف يحكي لها عن كل ما يعتريه من ألم وحسرة على أعوام قضاها في عمله ليبيعه العمل في لحظة، عن نجوى التي ظنها عكازًا يستند عليه ليجدها عكازًا على رأسه هوى ليسقط وتعبر بحذائها فوق جثته وتمضي..

أجزاء منه يراها برأسه في كل مكان رغم أن جسده لم يبرح الفراش..

انتفض فجأة وهو يسمع صوتها الرقيق، تململ يفيق ليجدها تجلس فوق صدره وتضع على وجهه قبلات كثيرة وتردد "بابا.. بابا"..

ما عاد هائمًا بين النوم واليقظة.. ما عاد تائهًا بين الخذلان والخيبة.. فتح عينيه كأنه نام دهرًا.. التقطها بين ذراعيه وضفائرها البندقية تتأرجح على أنفه وشفتيه..

نامت على صدره، أحكم ذراعيه حولها في قوة، صاح يقول:

عندي ساعتان، فقط أغمضي عينيك وأصدري أوامرك وأنفذ لكِ ما شئتِ..

لا إبر توخز جسده، لا خوف حتى على بيبا.. لا شيء سوى حب وقوة جبارة يجوب بها العالم إن شاءت.. حملها على كتفيه وكفيه السمراوين ممسكتين بساقيها وكفيها تدق على رأسه في صخب ليعبرا باب الغرفة..

في صالة البيت رأى أمه تنظر له في خجل تعتذر تخبره أن علية ركضت إلى غرفته ولم تستطع إخفاء الأمر عنها..

نسيت أمه بروده وصمته وتجاهله لأسئلتها..

لا يهمها سوى ألا يظنها لم تنفذ رغبته! هي حقيقة من حقائق كثيرة ننكرها..

نحب أبناءنا أكثر من آبائنا وإن كانوا لا يستحقون!

***

دونما اكتراث نظرت إلى علبة الخاتم وأغلقتها في ابتسامة ساخرة، تعلم أن ثمنه كبير لكن تعلم ما هو أكثر..

رفعت نسمة عينيها إلى السمنهوري قائلة:

اعتذار أم رشوة؟

نظر إليها مراد في سكون وفي قوة أكبر قالت:

ندم أم خوف؟!

أفرغ لنفسه كأسًا واستدار يمنحها الأخرى ليرى في عينيها ظل دمعة أخافه تكوّنها.. التقطت من يده الكأس ترج قطع الثلج الغافية في قاعها كأنها ترى بيبا..

من القاع جاءت وأصبحت على القمة.. الكبير صنعها، ناير دمرها والسمنهوري يرممها..

أطلقت ضحكة صغيرة ساخرة، وأيُّهن من القاع لم تأت؟ أي امرأة تدمرت ولم يكن خلف دمارها رجل أحبته وترممت بيد سوى يد أحمق أحبها!

تفوقت بيبا عليها؟ أصبح سعرها أعلى؟ جمهورها أكبر؟!

مالت بيدها بكأس الخمر لتسقط قطراته وقطع الثلج منها.. يومًا تسقط بيبا هكذا..

أعاهدك على عمل رائع أخرجه لكِ.. بيبا ليست أفضل، المنافسة تمنح أكثر مما تقتطع..

ضحكت نسمة وهي تعيد الكأس الفارغة إلى يده وقالت:

لم تجب.. هل تخشى أن أخبرها أنك من أحضرت أمها يوم الافتتاح؟! أم...

قاطعها في حزم:

لم تكن فكرتي، شاركتك فيها لأني أحبك.. هل تعاقبينني على الحب؟!

رفعت سبابتها تلف بها دوائر في الهواء كأنها تخبره أنها ما عادت من هرائه هذا تكتال..

ماذا جئت تريد؟ ماذا عندك؟!

أطرق السمنهوري برأسه لحظات وقال في هدوء:

بيبا طلبت مني الزواج!

***

كانت تجلس على أرض غرفتها تنظر حولها في ألم.. كل من يعرفها واقترب منها لا يحبها.. أمها.. وداد..ناير.. إيمان والكبير.. لا أحد سوى الغرباء يحبها!

مالت برأسها على ركبتيها المضمومتين إلى صدرها.. كان قاسيًا أكثر مما يجب.. هل حقًا ظن أنها قطعت كل هذه الأميال لتفسد عليه حفل جوائزه؟! سقطت من عينيها دمعة وهي تهز رأسها بالنفي..

حين نكره نرى الحسنات سيئات وخطايا!

خلقت زينب للغرباء.. فلتحيا لهم ولتعمل من أجلهم فوحدهم من يصفقون لها ويتمنون الوقوف بل المرور من جوارها ولو صدفة!

رفعت كفيها وسدت بهما أذنيها.. ما زالت كلمات ناير تدق في أذنيها من وقت لآخر كطبول الحروب..

"أنتِ صغيرة"!

انخرطت في البكاء من جديد.. ما أرادت "الصغيرة" سوى أن تكون معه في تلك اللحظات، ما أرادت سوى أن تتلو حوله الصلوات والتمائم في لحظة قد لا تتكرر في حياته..

اعتدلت من جديد وما زالت على أرض صالة بيتها تجلس وتنظر من خلف زجاج شرفة بيتها إلى حيث وقفت سيارته يوم أحضرها.. رجته كثيرًا في تلك الليلة لو يدخل معها.. رفضه كان يكفي لأن تنفض يد قلبها منه ومن قصته لكن هل نختار للقلب أم وحده من لنا يختار؟!

حادثت السمنهوري منذ ساعات وأخبرته إن كان عرض زواجها القديم قائما؟! السمنهوري يحبها..

ابتسمت في سخرية ثم ألقت رأسها بين كفيها وعادت للبكاء..

سمعت صوت جرس بابها لكن لم تحرك ساكنًا، لا أحد ممن تحبهم يزورها.. سمعت صوت المفتاح وتنهدت في ارتياح، هو علوي لكن لا قدرة لها حتى لرفع رأسها..

شعرت به يجلس إلى جوارها على الأرض، في حنان مسح على رأسها الملقى على ركبتيها وقال:

عَليَّة تهديك السلام..

في هدوء أكمل:

هناك عالم بأكمله في الخارج ينتظرك.. عالم فيه من الدناءة والحسد ما يكفي لقتلك وسحق اسمك وضلوعك..

رفعت رأسها تنظر إليه، في عينيه حنان وصدق، مد أصابعه السمراء ومسح دمعاتها وأكمل:

هناك أيضًا عالم آخر فيه شركات إنتاج ومخرجون وعدد كبير ينتظر أن يراك، بعضهم من فنك يتعلم وبعضهم من حزنه يخرج إليك أو من ضعفه يَقْوى بك..

كانت تنظر إليه في ذهول لا تفهم، وضع يده على ركبتيها المنتصبتين وأكمل:

اختاري إلى أيهما تنظرين..

اختاري يا بيبا لن يمضي العمر وأنت تجلسين غارقة في قطرات دموعك من أجل رجل..

سكت ولم يكمل حين رأى رعشة عينيها لكنه أكمل:

أنا أخرج معكِ.. أريدك أن تقاومي كما فعلت.. لم أترك زوجتي تقتلني ولا تخليهم عني في العمل يدمرني..

تمنت لو تخبره أنه لم يسقط لكن تراه يحيا بنصف قلب ونصف روح..

علوي يحارب من أجل ابنته..

بعينيها استدارت إلى النافذة، هي أيضًا يجب أن تحارب إن لم يكن من أجل عملها فليكن من أجل كبريائها.. لن تسعدهم أبدًا بسقوطها..

في سكون نظرت إلى علوي وقالت:

أتزوج السمنهوري الأسبوع القادم!

***

كان ينوي البقاء معها كما أخبر أمه وابنته، بقي يحاورها ويحاول أن يثنيها عن قرارها.. لم تبق جملة ما قالها حتى أنه أعاد عليها ما سمعته وما سمعه وسمع الجميع عن مراد السمنهوري وعلاقاته الشاذة.. نظرت إليه وضحكت تخبره أن الشواذ لا يتزوجون النساء!

"صغيرة" بيبا.. أخبرها بأسماء مشاهير لهم زوجات وأبناء ورغم هذا لهم رفقاء من الرجال.. لم تصدقه حين قال ذلك، لم تصدقه حين أخبرها أن زواجها خطأ..

لا نهرب من حب إلى حب ولكن نحزن ونبكي حتى نفيق ونحب من جديد!

هو معها.. إلى جوارها؟! ألا تمنح الحزن فرصته؟! أخبرته المجنونة أنها لا تريد أن تنسى ناير.. أخبرته أنه أجمل ما في حياتها وأيامها.. بكت وهي تنظر إليه تقول:

أريد فقط أن أقتل الأمل.. أريد لعيني أن تبتعد عن النافذة علَّه يمر.. أريد لأذني أن تكف عن الإصغاء دومًا لجرس الباب علَّه يدقه.. إن أنا تزوجت يا علوي أغلق باب الأمل في وجهي ووجهه..

هذا الباب المفتوح يقتلني..

أخبرها أن في هذا ظلم حتى للسمنهوري.. ضحكت تقول إن الظلم فقط لمن يحملون بين أضلعهم قلوبًا!

السمنهوري لا يحبها.. يريد أن يتملكها لينجح معها وبها!

"هي صفقة يا علوي وأنا أعيها وأريد إتمامها.. ناير لن يطرق بابي وأنا زوجة وكل هؤلاء الأثرياء أيضًا لن

يفعلوا.. أضمن أفضل الأعمال مع أكبر مخرج ويضمن التعاقد معه لأن زوجته أفضل نجمة"..

سكتت لحظات عندها وصاحت تقول في يأس:

أنام.. أنام يا علوي وأنا أعلم أن ناير لن يأتي أبدًا..

أشتري اليأس وأعلم أن ثمنه كبير..

وقف علوي ينظر حوله وسحب نفسًا عميقًا من هواء سماء ديسمبر إلى صدره..

لا فائدة.. اثنان لا يمكن إقناعهما عاشق ومكسور! العاشق يظنه أقوى من الأقدار، والمكسور لا يرى فيها أملًا ولا منها رجاء! بيبا كلاهما!

ما عليه منها.. سيبقى يعمل معها أو عندها بل ربما تحتاجه أكثر بعد زواجها.. يؤلمه أن ليس العمل وحده ما يقلقه.. أصبح بداخله شيء لا يفهمه.. شيء دواؤه اليأس وزواجها..

ما كان ليخرج ويتركها إلا بعد أن طرق السمنهوري الباب..

حين فتح له.. حين دخل يحمل باقة الزهر العملاقة تلك تمنى لو أنه كان في الشرطة وسلاحه خلف ظهره.. يكاد يرى نفسه يخرج سلاحه "الميري" ويرديه قتيلًا مدعيًا أنه تهجم عليه وعليها لكنه ابتسم وأفسح له الطريق..

نهضت بيبا عن الأرض وتقدم إليها ليضمها.. رآها تبتسم وتهز رأسها بالموافقة حين طلب منها تغيير ملابسها للخروج..

حين دعاه لحفل الزفاف، حين تمتم هو بكلمات التهنئة، حين أطلت بيبا بابتسامة واسعة ووجه مصبوغ بألوان زاهية علم أنها شفيت..

لم تشف بالحب ولا بالقرار..

شفيت بيبا لأنها تدخل فيلما جديدا.. فيلما كبيرا عدا أنه بلا تصوير أو إنتاج.. مخرج رائع وممثلة قديرة.. ومتفرج وحيد..

فيلم رائع، لكنه بائس جدًا!

***

أحيانًا نحبهم حين لا يكون أمامنا سواهم! أحيانًا نحبهم لأنهم وحدهم من ارتضوا صحبتنا حين أضاعنا الرفقة ولفظنا الطريق!

كان عطية أمامها أعوام عمرها، كانت تسمع رجال ونساء الفيوم يتحدثون عن هذا الغريب الذي جاء مع مشروع كبير كأنه قطعة من أسمنتهم أو حديدهم..

أعوام في عشته، ربما لم يستحم فيها مرة كما لم يحادث أحدا سوى كلبه.. اشترته هو وكلبه حين باعتها

ابنتها.. ألح عليها كثيرًا في ترك السوق لكنه لم يفرض عليها رأيًا.. أصبحت تصطحب قفصًا أصغر وعددًا من الدجاجات أقل..

عادت إلى ركنها البعيد، اعتادت نظراتهم إلى أم النجمة الكبيرة واعتادوا رفضها الحديث عنها.. كل شيء يعود كيف كان ربما لهذا تسمعهم يقولون أن الأرض تدور..

أتراها تدور بزينب وتعود؟ وإن عادت هل تجدها وإن وجدتها كيف يكون اللقاء!

تنهيدة حارقة لا تخرج من صدرها إلا كلما مرت زينب برأسها.. تنهيدة كخنجر في الصدر، رفعت رأسها تبحث للصدر المطعون عن بعض من هواء وحين فعلت كان أمامها رجل انحنى ليمسك بإحدى دجاجاتها في قسوة، يقلب في ريشاتها ويسحق حوصلتها بين أصابعه وقال متهكمًا:

أما حشوتِ جوفها ماءً وعلفًا ليزيد وزنها؟!

كان من المفترض أن تحبه لأنه أخرجها من دائرة زينب لكنها كرهته لما يصنعه بدجاجاتها.. دون كلمة نهضت عن الأرض مستندة على كفيها وأمسكت الدجاجات وقالت في حزم:

"جبرنا"..

نظر إليها في ذهول لكنها استدارت تضع عمامة القماش السميكة على رأسها ثم رفعت الصندوق الصغير عليه بعد أن وضعت بداخله الدجاجات ومضت خارج السوق، لم تنس أبدًا أن تنظر إليه في ازدراء قائلة:

هل يجب أن تؤلمها وهي في طريقها إلى الذبح؟!

قالتها ومضت.. لا هو يفهم ولا هي تستطيع الشرح.. فقط أولئك الذين جربوا الذبح يعلمون قسوة ما قبله!

مضت في خطواتها التي أصبحت أكثر تأرجحًا وأقل قوة وثباتًا وصاحت إحدى البائعات تقول:

تغادرين مبكرا.. هل دعتك ابنتك إلى زفافها؟!

استدارت تنظر إلى رفيقة السوق في ألم شديد وماتت على شفتيها الكلمات.. في هدوء جرجرت قدميها حتى وصلت إلى عشة زوجها.. صاحت تناديه وما أجابها سوى كلبه.. كان يتراقص حولها ويهز ذيله ومن بعيد، من داخل الموقع رأت عطية يهرول نحوها.. نعم تحبه لأنها ما عاد لها سواه..

حين اقترب يرفع عنها قفصها ويضعه على رأسه، سألها في لهفة عن سر عودتها مبكرًا ولما عرجت عليه..

اتكأت على يده الطليقة ليمضيا نحو البيت قائلة:

زينب تتزوج وأنا أريد العودة مع زوجي إلى البيت!

أحيانًا نقبل بهم ونتكئ عليهم حين لا يصبح أمامنا سواهم!

***

بعينيها الواسعتين استدارت تنظر في أكبر قاعات "ميراج ماريوت".. من دعا كل هؤلاء؟! من اتفق مع "عمرو دياب" و"إليسا" على الحضور والغناء؟! من اتفق مع "دينا" و"لوسي" على الرقص والاحتفاء؟! هل كان قرارا فرديا للسمنهوري أم أنها كانت تتحرك دون وعي حتى أفاقت الآن محاطة بكل هذا الزهر وكل هذه الوجوه..

السمنهوري في حلته الرائعة يكاد ضوء ابتسامته أن يبتلع كل الأضواء التي حولهما.. ترى هل لابتسامتها الكبيرة هذا النور والبريق؟!

ثوبها الأبيض وتطريزاته اليدوية الجميلة، طرحتها المُحاكة بكل قطع الدانتيل المفرغة بداخلها، من انتقاها ومتى وكيف تم تنفيذها وكيف.. وكيف حقًا لا تذكر شيئًا من هذا؟!

نهض السمنهوري من جوارها ومد ذراعه إليها ليرقصا على أنغام موسيقى هادئة.. تركت باقة الزهر على أريكة الكوشة ورقصت.. رقصت بمهارة.. بابتسامة.. بفرحة كبيرة كما فعلت يوم كانت ماريا.. خفتت الأضواء

وضمها السمنهوري إلى صدره وكفيه على ظهرها العاجي العاري وأغمضت عينيها.. تحتاج صدره.. تحتاج كتفيه.. ما بها لا دواء له سوى صدر وكتفين!

كانت إيمان تنظر إليها وتبتسم، لا تعلم هل تشفق عليها أم تسعد لها..

هل يتغير السمنهوري؟ هل حقًا يعلم معنى أن يتزوج شابة صغيرة كهذه ونجمة ما عاد يقترب من مكانتها أحد! لم تكن تصدق أن ترى السمنهوري يتزوج يومًا..

هل كانت تصدق أن ترحل جودي يومًا عنهم؟ هل تصدق أن ينهي يوسف جامعته ويلتحق للعمل مع أبيه؟ بل هل تصدق أنها تجلس في حضرة تلك الفيومية المذعورة وتتمنى هي وزوجها أن تقبل عروض شركته؟!

مالت إيمان برأسها على كتفي زوجها.. يكفيها أنها تزوجت رجلًا تحبه وعلى حبه لها هو باق..

ضمها الكبير في حب، ليس سعيدًا ولا يريد أن يرسم السعادة على ملامحه.. دومًا يرى بيبا تلك الجالسة على أرض السوق تمسك في يدها كتابًا مقلوبًا، تنحر دجاجات وهي تغمض عينيها خوفًا من دمائها.. يراها موهبة استثنائية ما خلقت إلا للفن والعطاء.. يرى فيها جودي الغائبة ويوسف الذي ما زال بحاجة إلى الحماية.. سيرعاها ويهتم بأمرها وإن كرهت معاشرة

السمنهوري يخلصها منه.. هي أيضًا نجمته التي يكسب بها أموالًا وجوائز..

ضم يدها تحت يده وهما يقطعان كعكة الزفاف العالية، رفعت بيبا عينيها.. رغم الشوق والألم، رغم الخوف والحرمان ما زال بداخلها طفلة تهوى كعكات الزفاف..

مالت برأسها على زوجها تسأله عن حشوتها وكيف لم يأخذ رأيها، ابتسم السمنهوري يخبرها أن كل شيء من إعداد أفضل
Wedding- planner في البلاد..

حين وضع في فمها قطعة من الكعكة مضغتها في سكون، ليس زفافها هذا أبدًا..

هي مدعوة بدرجة امتياز!

موسيقى هادئة بينما يملأ المدعوون صحونهم من "البوفيه" الذي تفحصته ومرت عليه منذ دقائق.. بل هي مدعوة بدرجة مقبول!

ليس حتى مسموحًا لها باختيار ما تأكله أو ملء صحنها بما تشاء!

أرخت عينيها في سكون، ما زال البعض يلتقط لها الصور بهواتفهم، تعلم أن صورها الآن على الميديا.. شدت صدرها ونصبت ظهرها..

ناير سيراها، أبلة مها ستراها، أمها التي رفضتها ستراها.. يجب أن يروها جميعًا سعيدة قوية تبتسم.. اثنان فقط مثلها لا يأكلان سوى من وجهها بعيونهما..

اثنان تعلم زينب علم اليقين أن أحدهما يتمنى موتها والآخر يرجو حياتها..

نسمة ترقبها من بعيد وعيناها ترقص بين وجه السمنهوري ووجهها.. ما زالت تحمل له ولها في جيبها رصاصات تطلقها في أوانها!

هي ممثلة بارعة لكنها لن تهزم بيبا أبدًا..

منحتها زينب من مكانها ابتسامة كبيرة وهي تكاد ترى خناجر غيرتها وكراهيتها..

وحده ينظر إليها في إشفاق، وحده تعلم أنه يشعر بها لأنه مثلها.. شهيد حتمية القرار! شهيد الأدوار الباقية والرايات الكاذبة!

مثلها مدعو إلى حفل زفاف ما كان يريد حضوره.. مدعو بدرجة امتياز.. حاضر بدرجة بائس.. ماض في طريقه بدرجة لا طريق آخر!

وحده علوي شاكر بقي لها!

تأمن أجيرها أكثر ما تأمن أصدقاءها وزوجها..

نأمن من شربوا من كأس مُرَّ نشربها ولا نأمن من يشاركوننا شرب الكؤوس وإن كانت مُسكرة!

***

ليس محمومًا بها، هو فقط منتشٍ بوصوله إلى ما يريد.. ليس مبهورًا بجسدها فكل أجسادهن سواء..

يعلم ماذا يفعلن بها لتبدو أمام الكاميرات بهية لا خط فيها ولا انحناءة.. يريد الآن أن يستعرض قواه أمامها.. قوة رجل في الخمسين.. فحولة ذكر يعلم أنها تشك في فحولته مع النساء..

يشتهيها كما يشتهي إيمان وكما يتمنى لو يصل إلى جسد ناير وهذا العلوي الأحمق الذي لا تغفل عيناه لحظة حتى يكاد يشعر به نائمًا تحت فراش ليلة عرسهما..

تقدمت بيبا نحوه في قميص حريري مكشوف رأى مثله في أحد أفلامها..

احتسى من شرابه ومد إليها كأسًا قائلًا:

لا تترك عروس رجلها يشرب وحده..

أخبرته أنها لا تحب الخمر، تمنت لو تعلن أن شيئًا بداخلها

ما زال يخشى حرمانيتها لكن تثق أنه سيهزأ منها.. نظر إليها وقال في رنة صدق:

ستساعدك كثيرًا..

يعلم أن حدود موهبتها وفنها تقف عند هذه اللحظة، الجنس دور جديد وصعب خاصة مع رجل في عمر أبيها وإن كان من اختيارها.. الجنس صعب إن كانت المرأة مسكونة بعشق قديم وإن كان هو من لفظها..

ربما كان السمنهوري على حق!

تحتاج كأس خمر.. إن غفر الله لها كل الذنوب التي ارتكبتها في حق أمها وجسدها.. في حق قلبها وكرامتها يوم أسلمتهما إلى ناير.. إن غفر لها كل هذا عساه يغفر لها شرب كأسين من الخمر..

مال رأسها من الكأس الثالثة، أطلقت ضحكات عالية صاخبة، نسمعها ولا نعلم سببها لكنها تؤمن أن الحزن إن اشتد بنا نضحك..

اقترب منها ونامت على صدره تكتم ضحكاتها هامسة:

أنت على حق، الخمر رائعة..

في زهو مخرج كبير، في نشوة رجل امتلك "بيبا" التقط أذنيها بين شفتيه ليطلق أنفاسه خلفهما قائلًا:

مراد السمنهوري دومًا على حق!

***

أشاحت حميدة بوجهها بعيدًا وبكفها دفعت هاتفه بعيدًا تقول:

لا أريد أن أرى صورها.. لا يهمني إن تزوجت أو أنجبت.. أنا نسيتها..

يشفق عطية عليها كثيرًا.. يعلم أنها تريد وتريد وتريد وأنها لا نسيت ولا غابت زينب عنها لحظة.. يراها تخبئ ثيابها القديمة في سلة الخوص الملقاة على سطح البيت.. ضبط كفها يتحسس مكان نومها مع دمعة عابرة في عينيها..

يفهم جيدًا أن تقول ما قالته لنساء السوق أو للجيران أو حتى إن قالته لأبلة مها.. لكن معه؟! تقتسم معه بيتها وطعامها وجسدها ولا تقتسم مشاعرها؟!

في عصبية أخبرته أنها ستنام، استدارت على فرشتها تمنحه ظهرها متظاهرة بالنوم، هي الليلة التي يأخذها فيها.. لماذا حتى في هذه تتظاهر بأنها لا تريده وهي تنتظر أن يلتهمها..

تموت شوقًا لأن ترى صور زفاف ابنتها.. تتمنى لو تضم الهاتف إلى صدرها وتتأمل وجهها وثوبها حتى إن بصقت في وجه العجوز الذي إلى جوارها، لكنها تتظاهر بأنها لا تريد تمامًا كما تتمنى لو يديرها عطية إليه عنوة ويلتهمها..

لماذا تتظاهر دومًا بعكس ما تتمنى وتشتهي؟!

رفعت حميدة حاجبها وما زالت تتظاهر بالنوم، هي ممثلة.. ممثلة كابنتها.. منها أخذت الموهبة.. فرق واحد بينهما.. زينب من موهبتها تكسب مالًا وشهرة ورجالًا..

وحدها حميدة كعادتها بموهبتها تحرم نفسها ما تريد حتى الدقائق التي تشعر فيها بآدميتها بين ذراعي زوجها..

شعرت بكفه تمسح على ظهرها في حنان وهزت رأسها في عنف.. لا تريد حنانا.. الحنان يُسقط الأقنعة ويهزم الزيف..

إن رفعت كفها وأزاحت كفه يعلم أنها ليست نائمة وإن بقي يمسح على رأسها قد تنهار..

حاولت أن تنام، حاولت أن تتجاهله لكن بعد لحظات من وقع كفيه انفجرت باكية واستدارت نحوه تصيح:

أريد أن أرى صورها.. أريد يا عطية أن أسمع صوتها.. ما زلت أحبها..

ضمها إلى صدره يقول:

أعلم.. أعلم.. كان لي أم يومًا وأعلم كيف هي قلوب الأمهات!

***

كان عامر ينظر إلى زوجته في هدوء وهي تغلق حقائبها حقيبة تلو الأخرى.. بين كل لحظة وأخرى تلتقي عيناهما، هو على مقعد غرفة النوم يجلس يراقبها وهي

واقفة تطوي ملابسها وتضعها في حقائبها.. لا يريدها أن ترحل، رحيلها فيه تعقيد لما هم فيه..

حين أغلقت الحقيبة الثانية نظرت إليه في غضب، هي أيضًا تتمنى لو يستبقيها لكن كيف تبقى إن بقي على رأيه!

نهض قبل أن تغادر الغرفة واقترب منها قائلًا:

أما من أمل؟!

تحبه.. تذوب أمام هذه النظرة لكنها تشعر أنها أهينت إهانة بالغة..

رمت رأسها على صدره قائلة:

أنسى كل ما حدث فقط..

أبعدها عن صدره مقاطعًا:

لم يحدث شيء تنسينه، أنا أريدك أن تتذكري لا أن تنسي..

كانت تنظر إليه في ذهول وأمسك بوجهها بين كفيه قائلًا:

نهال.. يوم تزوجنا كان بيننا اتفاق.. ليس خطأ أن أطلب منك الحفاظ عليه..

انطلقت كالمجنونة تبكي وتصرخ قائلة:

أريد أن أكون أمًا.. أليس من حقي؟!

كانت تشير إلى بطنها وتكمل باكية:

أريد أن أحمل هنا جزءا منك.. جزءا يحبني وحدي.. جزءا ليس منه أجزاء تحيا في ماضٍ غير مسموح لي حتى بالاقتراب منه والسؤال عنه.. أريد طفلًا.. أريد ما خلقني الله له يا عامر..

لا فائدة.. نهال لن تفهم لكنه أكمل في هدوء:

الأمومة ليست قرارًا فرديًا..

صاحت وهي تُخرج هاتفها لتحادث سيارة تقلها إلى المطار:

لا تريد مني طفلًا.. اعترف لو كان هذا الطفل في أحشاء...

أغمض عينيه في ألم وأمسك بذراعها يمنعها عن نطق اسم جودي من جديد قائلًا:

لا أريد أطفالًا.. لا أريد طفلًا يأتي ليتعذب، إن عاش هنا كان غريبًا وإن عاش هناك كان سجينًا.. لا أريد طفلًا يأتي ليموت..

كعادتها انطلقت تهذي وتصرخ..

ليسوا فقراء.. هي ثرية وثروتها تكفي عشرة أبناء إن لم يكن يريد إنفاق ثروته رغم أنه وحيد وثري.. أمها تهتم به إن كان يخشى صراخه وبكاءه.. أعادت ما سمعه طوال شهر منذ أخبرته أنها حامل ومنذ أعلن لها أنه لا يريد الجنين.. كل الصراخ مكرر وكل الجمل معادة وكل الأسباب المعلنة خلفها أسباب أخرى..

تريد الإنجاب الآن لتثبت له ولجودي أنها أصبحت أم طفله..
ما زال بداخلها شرقية حمقاء ترى الأطفال وثاقًا ورباطًا.. لا يريد أطفالًا لكنه الآن لا يريدهم أكثر لأنه يعلم أنها سترسل إلى حبيبته تخبرها.. بداخله عاشق جريح لا يريد لامرأة من الماضي أن تعلم أن زوجته تحمل منه بذرة!

أشاح بوجهه عنها واتجه إلى الشرفة كعادته يرقب أشجار الشارع ووجه الماضي المحفور عليها.. يقف ويعبث بهديتها التي عليها صوره والتي أخبر زوجته أنها هدية أمه..

دقائق بعدها سمعها تجرجر حقائبها.. سمعها تبتعد وسمع باب بيته يغلق عليه وحده..

فلتذهب..

نهال أصبحت ضجيجًا لا يطاق!

ليس لها الحق أبدًا أن تأخذ قرارًا كهذا بمفردها!

رأى السائق يفتح لها باب سيارته ورآها تدخل بعد أن نظرت نحو وجهه الغارق في الدموع.. لم يكن يبكي لأنها تذهب.. لم يكن يبكي لأن أمها ستقيم الدنيا في نيويورك ولن تقعدها.. لم يكن يبكي لأن أمه ستبكي هي الأخرى حين يخبرونها أن وحيدها لا يريد أبناء..

عامر يبكي لأنه في لحظة أدرك أن جودي كانت على حق يوم ثارت على اتخاذه قرارا فرديا بالزواج منها.. شعر بها إهانة ذاك اليوم، شعر به جنونًا وصلفًا منها.. هكذا أشعرته زوجته اليوم وهكذا علم أنها كانت على حق!

حتى من نحبهم ليس لهم الحق أبدًا في إلغائنا وتهميشنا..

عَلِم أنها على حق ويومًا تعلم نهال أنه على حق..

أيام ندرك فيها الحقائق تأتي دون شك لكنها دومًا تأتي بعد فوات الأوان!

***

خبيث هو مرور الأعوام وانزلاقها من بين أصابعنا.. خبيثة هي كل التغيرات التي تطرأ على ملامحنا

وأرواحنا.. رغم عظم شأنها لا أحد منا أبدًا يستنكرها أو يصرخ أمام مرآته رغم أنه إن دقق فيها لوجد وجهًا غير الوجه وملامح غير الملامح!

خمسة أعوام منذ ليلة "دبي" تلك..

خمسة أعوام كتب فيها "ناير البدر" خمس روايات ومئات المقالات في المجلات والجرائد الأجنبية..

محاضرات وندوات في بلاد عدة، جوائز ما عاد يذكر أيها جاء ومن أين أو متى!

عشرات الشعيرات البيضاء غزت رأسه، وداد تضعف وتكبر.. تغيرات نقبلها لأنها تحدث في هدوء.. كل شيء فيه بدأ يشيخ حتى كلمات مقالاته ورواياته..

اثنان فقط ما زالا في شرخ الصبا "جيتاره وذكراها!"

ما زال ناير يؤمن أن بقاء القصص مرهون بعدم اكتمالها.. لو أنه مارس الموسيقى لاطمأن واكتفى وما بقي لقاؤه بجيتاره حتى الآن يشعل فيه هذا الحب واللهفة..

لو أن قصته مع زينب لم تُبتر بتلك القسوة لما كان لها هذا التأجج.. يتابع أخبارها من صفحتها وصفحات كل من هم معه..

هي أيضًا رغم تلون ملامحها بريشة الأيام فإنها ما زالت تتربع على قمة عرش النجاح.. ما عادت تظهر مع زوجها إلا نادرًا، لم تلق أمها لقاء واحدا، وحده يحادث الأم وزوجها من آن إلى آخر..

أصبح يراها ويتحسس صورتها دون ذاك الوجع الكبير، مجرد وخزة صغيرة في القلب ولا يعلم هل اعتاد الغياب أم أن القلب اعتاد الألم وأصبح له صديقا وصحبة!

خلع الجاكيت الذي يرتديه والتقت عيناه بساكن مرآته.. رغم الشيب وسقوط الابتسامة وتبدل الملامح ما زال وسيمًا تطارده أحلام النساء بالحب والزواج..

دخلت وداد عليه وقد بدلت ملابسها، دخلت بأحد قمصان الكستور التي تحب ارتداءها في الشتاء.. وقفت تنظر إليه في حب كبير، عادا لتوهما من استلامه جائزة الدولة التقديرية في الأدب.. كانت سعيدة به وهي إلى جواره وكان كعادته في كل مرة يهديها حصاده ويُقبل يدها كطفل صغير.. تقدمت نحوه وفتحت ذراعيها تضمه..

هدأ على صدرها لحظات وقال:

كنت دومًا تدعين لي بالنجاح، ليتك دعوتِ لي بالفرح يا أمي..

أبعدته عن صدرها في لهفة ومن خلف دمعات ترقرقت في عينيها أخبرته أنها دومًا تدعو له بالخير والنجاح وحب الناس.. ألا يكفي هذا لأن يكون سعيدًا..

كان يبتسم في مرارة، أمسكت بذراعه حين حاول المضي بعيدًا وقالت:

نايـر.. والله لو تقدمت لانتخابات الرئاسة لقبلوك، الجميع يحبك.. هذا الحب هبة ورحمة من الله..

قَبل كلتا كفيها وأجلسها على حافة فراشه وجلس أمامها يقول:

يا حبيبتي.. أعلم كم يحبني الجميع.. أعلم أنها من رحمة الله، لكن هل تعلمين أنتِ أنه حب مؤقت.. حب ينتهي بتوقفي عن الكتابة، حب يغيب بظهور نايـر جديد وهو أمر آتٍ لا محالة!

كانت تنظر إليه في ذهول ترى في عينيه دمعة ترقص وأكمل:

أريد من يحبني في عجزي وضعفي وغياب كلماتي..

قالت كأنها تستجديه وترمي له طوق نجاة:

تزوج.. ألف امرأة تتمناك..

في حسرة وألم قال مبتسمًا:

سواكِ لا توجد امرأة تريد البدر دون نجاحه، دون قلمه، دون جوائزه..

التقت عيناهما لحظة وأرخت عينيها تقول:

زينب كانت تفعل..

ضحك ناير ونهض يضع على رأسها قبلة قائلًا:

حتى هذه ما عادت موجودة.. من أصبحت هنا أخرى اسمها بيبا!

التقط المعطف الذي خلفه وصاحت تسأله إلى أين، عاد إليها يضع على رأسها قبلة ونهض بها ليدخلها إلى فراشها وقال:

أبحث عن امرأة مثلك تحبني دون توقعات كبرى!

***

كان يعلم أنه ككل مرة سيمشي حتى يصل إلى بيتها، يعلم ناير أنه سيقف حيث وقفت ترجوه الدخول يوم جاء بها منذ أعوام طويلة.. يعلم أنه وبحماقته التي يعرفها سيصل إلى البيت ويرفع رأسه في دهشة كأنه لم يكن يعرف أنها دومًا وجهته..

لماذا يطارد خيالها؟ لماذا يبحث عن أخبارها؟ ولماذا تراها لم تترك هذه الشقة الصغيرة حتى الآن رغم

انتقالها للحياة مع السمنهوري في قصره الكبير بل ورغم اكتمال بيتها الذي اشترته..

وقف ينظر إلى نافذتها ويلف ذراعيه حول جسده، ماذا لو حضرت؟ ماذا لو كانت تأتي إلى المعادي من وقت إلى آخر لتبحث عنه وتتنسم وقع خطاه هي الأخرى؟!

إن جاءت لن يعاتبها، لن يسألها إن كانت ما زالت غاضبة مما فعله بها ومن ذاك الحوار الأليم.. إن حضرت حضورها فيه صك غفران لا يقبل أسئلة أو اعتذارات.. إن استدار الآن ووجدها تغادر سيارتها يركض بها ركضًا إلى كورنيش المعادي.. يعبر بها السيارات المجنونة دون خوف رغم أنه أصبح أقل قوة لكنه أكثر شوقًا.. يحملها بكفيه ويجلسها على السور العتيق ويقتسم معها كوب آيس كريم..

زينب لن تأتي..

عشرات المرات جاء كقاتل يحوم حول مكان جريمته يبحث عنها.. زينب ما عادت هنا.. قتل منها جزءا ويثق أن السمنهوري قتل ما بقي فيها..

زينبه ستبقى ذنبًا يحمله بداخله ما بقي من العمر..

يحتاج شيئًا منها.. يحتاج ريحًا من رائحتها.. يحتاج ولو حفنة تراب خطت عليها.. فتح شفتيه يأخذ بها نسمة من نسمات الشتاء الباردة..

كانت كفاه داخل معطفه، تحسس هاتفه وأخرجه، يريد حتى أن يقول اسمها.. قرر أن يحادث أمها، يعلم أنها مثله تريدها وتحرّمها على نفسها.. يكفيه أن يسمع صوت من حملتها في أحشائها، يكفيه أن يسمع صوتًا يرن في أصدائه ألم كألم فراقه لها.. يطلب من عطية أن يحادثها، يفعل من آن إلى آخر.. عَلَّ حميدة كانت أشجع منه، علها تخبره عنها شيئًا.. بعد دقات طويلة أجابته..

ابتسم.. اختصر عطية المسافات، يعلم أنه يريد حميدة..

لم تتعرف عليه إلا بعد أن أخبرها باسمه، سمعها تسأله قائلة:

من أخبرك بما حدث؟!

رفع رأسه إلى شرفة زينب وشعر أن قلبه ينتفض في لوعة، هل حدث ما لا يعرفه؟! أخبرها أنه لا يعرف شيئًا، كان في صوته رعشة ورجاء ألا تخبره بشيء عنها يسوؤه إلا أن حميدة بكت قائلة:

مات عطية منذ أيام!

***

كانت تطعم دجاجاتها ذاك اليوم، وكن يعصينها ويرفضن الطعام.. كل ديك في منزلها كان يصبح صيحات لا

تفهمها أو ربما لم تشأ أن تفهمها.. رفعت صحن العلف عاليًا ليقع كل ما فيه على الأرض، ما عادت تحتمل.. إن جاعوا يأكلوا أو فليموتوا جوعًا..

لطيفة ماتت وكل من كانت تحبهم دفنتهم حميدة بيدها.. لا يربطها بهذه الدجاجات سوى البيع والشراء..

حين أنهت صينية "المسقعة" التي يشتهيها عطية وتأخرت في إعدادها أكثر من أسبوع تنهدت تطفئ عين الموقد الصغير متجهة إلى حمامها..

كانت تحمل جلبابا نظيفا على كتفها وفي الطريق إلى الحمام سمعت طرقات على الباب..

حين فتحت وجدت مجموعة من الرجال.. رجالا لا تعرفهم.. رجالا يرتدون ملابس تختلف عن كل من تعرفهم.. أكلها الذعر.. هل جاءها البوليس من جديد؟!

أخبرها كبيرهم أنه مهندس الموقع الذي يعمل عطية غفيرًا فيه.. كان يركض خلف كلبه في اللحظة التي دخلت فيها سيارة نقل كبيرة بحمولة للمشروع..

مات هو وكلبه الذي كان إلى جواره!

بعينيها استدارت إلى صينية المسقعة، لو أنه فقط علم أنها أعدتها له.. انهارت ساعات لكنها أفاقت وخرجت معهم..

سألوها حين ذهبت لتراه أين يُدفن عطية؟! أخبرتهم أنها لا تعرف ولا يعرف أحد عنه شيئا.. أليسوا هم من استأجروه؟ حضر مع بداية حضورهم!

"لا نعلم عنه شيئا.. تقدم للعمل وقبلناه، كان أمينًا طيبًا وجميعنا أحببناه"!

من خلف دموعها وقفت تنظر إلى جثمانه وحين قال أحدهم إن بإمكانهم دفنه في مدافن الصدقة انتفضت تعلن أنه زوجها، تدفنه في مدفنهم..

ضحكت حميدة ودموعها تسقط.. دفنت زوجا في مدفن زوج آخر.. حين تموت وتُدفن معهم أيهم يرحب بها وأيهم يبصق على جثمانها؟!

ناير سيحضر بعد ساعات، يجب أن تفعل ما تريد أن تفعله قبل حضوره..

كانت تنوي أن تأتمن "أبلة مها" على سرها لكن حين حادثها ناير علمت أن الله أرسله..

تحاملت على نفسها وربطت رأسها بعصابة سوداء ثم وضعت طرحتها لتصعد إلى سطح البيت.. في ذات سلة الخوص مدت يدها، ذات السلة التي ما زالت تحتفظ فيها ببقايا زينب..

أخرجت كيسًا أسود وفتحته للمرة الألف، الألف وما زالت لا تصدق..

بعد دفن عطية بليلتين طرق المهندس بابها يحمل هذا الكيس.. بعد كوب قهوة ودمعات أخبرها أنهم وجدوا هذا الكيس في عشة عطية..

عطية يخبئ في عشته مائة ألف جنيه!

أعادها الرجل عليها مرات عديدة وهي تهز رأسها لا تصدق..رفعت عينيها تنظر في ابتسامة مريرة ساخرة..

ابنتها حرمتها والغريب عابر السبيل يُورثها..

حقًا كل من يكنز مالًا لا يستمتع به إلا سواه وكل من يفني عمرًا وحبًا في تربية ابن يأتي عابرًا ليصطحبه ويمضي معه بحقيبته بعد أن يملأها من ماله وعمره وعرقه!

ما عاد يعنيها كل هذا في شيء.. المهندس أخبرها أن كل ما في العشة ملكها.. هم لا يعرفون له أهلا سواها.. تعلم ما تريد صنعه بالمبلغ لكن كانت تخشى أبلة مها.. ناير أفضل..

نفضت ذكرياتها ووضعت الكيس في يدها وخرجت.. كل المعلومات جمعتها.. في شارع الحسين يوجد فرع للبنك الأهلي..في صدرها تحمل ما يحتاجون..

دخلت حميدة ولم تجد في صالة البنك سواها، تقدمت إلى موظف الشباك تخبره أنها تريد شراء شهادات استثمار بكامل المبلغ الذي في يدها..

لا تلومه أبدًا على نظرته، تلومه إن صدق أن من مثلها يحمل مبلغًا كهذا..

حين أنهى الأوراق وعد النقود طلب بطاقتها لكنها قالت في هدوء:

أريدها باسم ابنتي زينب محمد الفيومي!

***

حين دخل ناير البيت نظرت إليه حميدة في سكون.. بقي يرقبها طويلًا.. شاخت المرأة كثيرًا حتى يكاد يظنها في أيامها الأخيرة.. ليست عقودًا التي مرت بل هي حفنة أعوام لا يظنها أبدًا من فعلت بها كل هذا..

حين جلس وانحنت تجلس تأوهت من الألم كأنها في التسعين، ابتسم ناير ابتسامة صغيرة مريرة متمتمًا ببعض كلمات العزاء..

أم زينب تموت وما يقتلها وأشابها ليس الأعوام بل الصمت..

ليس الألم ما يقتل.. ما يقتل حقًا هو ابتلاعه وإنكاره!

بعد سكون طويل رفع رأسه يسألها عن أي شيء بإمكانه أن يقدمه لها.. لم تجب، سحب من صدره نفسًا عميقًا وأخبرها بما يظنه في نفسه من حكمة وقدرة على قراءة النفوس..

سألها هل تريد ابنتها؟ أخبرها أنه لا يحادثها لكن من أجلها يطلب من أمه الذهاب إليها..

بقي رأسها منكسا في صمت وحين طال صمتها قال ناير:

بإمكاني أن أعطيك رقم هاتفها إن كان كما هو.. عنوانها..

قاطعته في صوت مرتعش تقول:

حين تزوجت أباها كنت صغيرة..

رفع ناير عينيه ليجدها لا تنظر إليه كأنه ما حضر بعد، هي لحظات بوح يعرفها ويعرف أنها لا تتكرر كثيرًا، سكت وأنصت منتظرًا أن تكمل وهو يعلم أي صراع بين الصمت والبوح بداخلها يدور وأكملت حميدة تقول:

تزوجته وأنا أحب رجلًا آخر..

ابتسمت ابتسامة مريرة وأكملت في هدوء:

رجل لا أعرفه.. اشتريت صورته بقروش ادخرتها أو.. أو سرقتها من جلباب أبي على مدى شهر..

في ذات سكونها وجمود ملامحها أكملت:

تزوجت الصورة وأصبحت رفيق فراشي.. كنت أحادثه وأقبله وحين يحدث ويتمكن أبي من شراء جلباب العيد كان هو في صورته أول من يرى جلبابي ويراني..

أصبحت أعمل ككل بنات الفيوم في ذاك الزمن في جمع المحاصيل، اقتطعت من نقودي قروشًا جمعتها لأذهب إلى المحروسة وأراه..

نظرت إليه كأنها تبحث عن احتقار أو اشمئزاز لكنها هدأت حين رأت صبرًا وإصغاء وأكملت:

كان الذهاب إلى القاهرة حينها سفرًا شاقًا لكني كنت أخطط وأتحين الفرص.. كل ما أردته أن أراه.. أخبره أني أحبه..

عادت تنظر إلى ناير لحظة ثم أرخت رأسها في خجل تكمل:

وجدت أمي الصورة في وسادتي، حين منحتها لأبي أوسعني ضربًا وتعذيبًا.. أقسمت له أنني لم ألتقه.. أخبرته أنه لا يعرفني وأن عشرات البنات مثلي يحملن

صورته لكنه لم يفهم.. استشهدت بأكثر من صديقة تخبره أن كل بنات الفيوم يعشقن هذا الرجل..

سكتت لحظة ثم قالت في خجل:

كان اسمه علي.. علي سرحان..

اتسعت عينا ناير حين قالت الاسم وهزت رأسها بالإيجاب وأكملت:

نعم.. أحببت ممثلا، تزوجت صورته.. لكن لم يصدقني أحد وفي الليلة التالية عُقد قراني على محمد الفيومي.. بعد شهور اشتريت صورة أخرى وضعتها أيضًا في وسادتي وأيضًا وجدتها أم زوجي..

استدارت هذه المرة إلى النافذة تنظر وتكمل في ألم:

كان الضرب أشد فليس فيه شفقة الأب، قالوا إن بي مسا من شيطان، أصبحت حبيسة الدار حتى زينب حَرَّمت أمه عليّ الانفراد بها.. كرهوني وكرهتهم.. كرهت كل ممثلي الأرض.. أحدهم بصورته لا تركني أحيا ولا علم يومًا عن موتي من أجله شيئا!

الدائرة تدور.. رجل ميت لا يعرفني وأموت وبيبا لم تعرفني يومًا!

نهضت لحظات وعادت تحمل كيسها الأسود أمامه قائلة:

حاولت أن أضع هذه النقود في شهادات باسمها لكن رفض البنك..

لا يعلم من أين جاءت بمبلغ كهذا لكن حين أخبرها أنها قروش بالنسبة إلى ابنتها نظرت إليه في مرارة وقالت:

جميع من يعملون في مهنتكم يموتون فقراء منبوذين..

حين تصبح زينب منهم لن ينظر في وجهها أحد ولن تجد وجهة تذهب إليها..

نظرت حولها لحظات وأكملت:

ستأتي هنا.. امنحها النقود حينها لتحيا منها..أخبرها أني ما أهنت أباها ولا قتلته.. قتلني هو وأمه من أجل ورقة عليها صورة لرجل وسيم!

نظر إليها تاير وسألها لم لا تصارح ابنتها وتحررها من عقدة جدتها وأبيها، رفعت حميدة رأسها تذكره بعهد قطعه على نفسه منذ لحظات، تُذكِّره بمصحف جعلته يضع كفه عليه..

أخبرته أن ما بينها وبين ابنتها ما عاد يجلي السواد عنه شيء سوى الموت..

كأنها تخبره بانتهاء اللقاء، نهضت تقول:

دعها تحيا ودعني أموت في سلام!

تأخر أوان الحديث وموسم الكلمات!

***

انتهى مهرجان العام، أطفأوا الكاميرات وأغلقوا الميكروفونات..

يظنون أن الجزء الصعب انتهى وترى بيبا أن الجزء الأصعب هو الباقي.. الجزء الأصعب والأكبر أن تعبر الجماهير إلى سيارتها.. أن تبتسم وتلوح وتقف من أجل صورة أو سؤال أو حتى مجرد لمسة عابرة على ذراعها أو يدها.. لا تهدأ إلا حين تصل السيارة ليلقفها علوي بين ذراعيه ويغلق عليها الباب..

السمنهوري ليس إلى جوارها، هو شريكها الذي يحرص على مزيد من الضجيج ومزيد من الأضواء والصور.. فقط حين يغلق علوي باب السيارة ويدخل، حين يبتعدون ويغيب فحيح الأصوات تهدأ هي..

هذه الليلة غير كل الليالي السابقة..

خمسة أعوام زوجة لمخرج لا يرخي ذراعيه عن كتفيها إلا عند اختلائهما.. خمسة أعوام قدمت فيها مسلسلات وأفلام حصدت نجاحا ربما ما حصدته سيدة الشاشة العربية.. خمسة أعوام نسوا فيها قصتها وسجن أمها.. خمسة أعوام ظنت فيها أن السمنهوري حقًا من تهمة الشذوذ بريء..

بالأمس علمت السر الكبير.. علمت لماذا أصبح زوجها يُصرّ على الاجتماع بسكرتيره في نهاية الأسبوع ولماذا يفعل قبل أن يضاجعها! علمها أن لكل شيء نظاما حتى الجنس.. بعد شهور من زواجهما أصبحت كمعظم نساء البلاد.. الخميس للمعاشرة وباقي أيام الأسبوع للضجر والعمل.. حاولت كثيرًا أن تستميله في أيام الأسبوع، همست في أذنيه أن الرغبة لا جدول لها، لكنه علمها أن كل مجدول أجمل..

السمنهوري يجتمع بسكرتيره في الدور السفلي لبيتهما كل خميس قبل أن يلتهمها ربما لأن هذا وحده ما يجعله الآن قادرا على معاشرة النساء!

لا تنكر أنها تحب لمساته، زوجها عبقري حتى في الجنس.. علمت الحقيقة بالأمس لكنها عادت إلى فراشها

وأطفأت مصباح فراشها الصغير وضمت جسدها بين ذراعيها، أغمضت عينيها ونامت ورفضت الاستسلام له..

تزينت هذا المساء ووضعت العطر وتعلقت بذراعه وجاءا معًا إلى المهرجان..

ذات العناق وذات الذراع الناعمة على كتفيها وأيضًا كالعادة ربما في طريقه إلى ذراعي امرأة يسبقها رجل ثم يعود إليها لينام إلى جوارها..

شهرتها وثروتها أكبر من الحزن والمغامرة.. شيء كبير يعتصر روحها هذه الليلة.. كيف تمنحه جسدها في الخميس القادم وهي تعلم ما يفعله قبلها في جناحه السفلي؟!

كيف تستقبل هيثم سكرتيره حين تلقاه وهي ترى أنفاس ولمسات زوجها حول جسده!

انتفضت من أفكارها وزوجها يضع خلف أذنيها قبلة ويصيح:

علوي ينتظرك في الخارج.. أراكِ في الصباح يا حلوة!

نهضت عن مقعدها ثم فتحت باب القاعة وخاضت الرحلة حتى تصل إلى السيارة.. عشرات يعرفون الممر الخلفي لقاعة الاحتفالات، العشرات ينتظرون ظهورها،

ابتسمت وعبرت.. بين الضجيج والأذرع واللمسات عبرت حتى تلقفها علوي..

حين أغلق باب السيارة وجلس بجوار السائق عاد بعنقه ينظر إليها وابتسمت.. وحده يفهمها.. وحده يعلم أنها الليلة تختلف..

قبل أن يوجه أمره إلى السائق قالت في سكون:

خذني إلى المعادي!

***

إنها الواحدة صباحًا وغالبًا لا تدخل شقة المعادي إلا مع ساعات الفجر الأولى، تكفيها ابتسامات وتحيات وصور.. حين تأتي إلى هذا المكان تتحرر من كل ما تحبس روحها داخله..

هبط السائق مسرعًا يفتح لها الباب، أخرجت مفتاح البيت من مفاتيحها وأطبقت كفها عليه قائلة:

انصرف بأي وسيلة مواصلات، ينتظرني سعادة العميد ويعود بي إلى البيت..

قالتها دون أن تنظر إليه ورغم هذا دون غرور، هي فقط ما عادت ترى الوجوه من كثرة الرؤوس التي تقف أمامها.. بذات الخطى الهادئة الواثقة وفوق كعب حذائها "اللوبتون" دخلت مدخل العمارة..

ما زال هناك احتمال أن يلقاها موظف الأمن أو أحد الجيران، يجب أن يبقى كل شيء في مكانه حتى تصل.. حين أصبحت في مدخل البناية الصغيرة استدارت ككل مرة تنظر إلى حيث وقف ناير يرفض الدخول معها، أرخت رأسها وأسرعت بخطاها إلى الباب..

حين دخلت وأغلقته خلفها مستندة بظهرها عليه بدأت قطع صغيرة منها تسقط، قطعة تلو الأخرى.. حاجباها المرتفعان، جبهتها العالية، أنفها المنتصب وشفتاها المرسومتان..

بقدم خلعت عن الأخرى حذاءها وحين أصبحت أقصر كان كل شيء ملقى إلى جوار حذائها.. الابتسامة والغرور.. الثقة والكبرياء..

مضت في خطى كسيرة مترنحة بقدميها العاريتين حتى وصلت غرفتها القديمة..

أشعلت مصباح الضوء ووقفت أمام مرآتها.. وجهها ملطخ بخطوط سوداء عريضة..

جميعهم كاذبون! يدّعون أن "ديور" و"شانيل" و"ماك" أقلام كحلهم لا تُسقطها الدموع..

لا شيء أيًا كان يصمد أمام الألم!

لون أحمرها أصبح باهتًا في بقع حول شفتيها من كثرة ما عضت عليهما ظنًا منها أنها بذلك تمنع بكاءها وصراخها.. حتى خصلات شعرها تبعثرت من ضغطها برأسها على باب البيت خشية السقوط خلفه وأن يسمع جيرانها نحيب "بيبا"!

لماذا لا تريد أن يرى أحد دمعها؟! لا تريد شفقتهم؟!

تريدها وتحتاجها لكنها لن تنال سوى سخريتهم..

ما الذي يُبكي النجمة الأولى في مصر والوطن العربي؟!

يبكيها النجاح والشهرة وملايينها؟! يبكيها حب زوجها أم خيانته؟!

يبكيها عقمها أم عقره؟ يبكيها شوقها إلى من لفظها لأنها ابنة بائعة الدجاج القاتلة؟! يبكيها البعد عن طريق الحق والصواب؟! سيقولون "حين لم تعان من فقر أو مرض سلط الله عليها اللارضا"!

هذا ما ستجنيه إن سمعوا بكاءها ورأوا خطوط دمعها الأسود! هذا ما ستقرؤه بعينيها على صفحات التواصل الاجتماعي من ذات الأشخاص الذين كانوا منذ ساعات يركضون حولها يتمنون لو تمس أصابعهم قطعة من جسدها كأنها حجر مبارك..

جميعهم ممثلون ووحدها النجمة!

أعادت النظر إلى مرآتها وصاحت تبكي تسألها "من أنا؟!" و"ماذا أريد؟!".

أخبرها طبيبها النفسي أن جميع الفنانين والمبدعين يعانون من مس جنون قتل الكثيرين منهم.. أخبرها أن تتحدث وتصرخ.. هي تصرخ وتتحدث وتبكي لكن لا يوجد من يسمعها دون شهقة تعجب أو رنة لوم..

من أنتِ؟! كررتها مرات وهي تبكي حتى أعياها البكاء لتسقط على فراش غرفتها وتتكور تعوي كذئب جريح..

شعرت به يفتح باب غرفتها كعادته في كل مرة ونظرت إليه في استجداء ككل مرة.. كان يقترب منها وفي عينيه أطياف دمعة..

وحده يراها على هذه الشاكلة في كل مرة تأتي هنا..

أخذها علوي بين ذراعيه وقال في ألم:

إلى متى؟!

بكت ككل المرات وانتفضت، أخبرته بأمر السمنهوري، أخبرته بأنها ممزقة بين اثنتين ما عادت تعرف كيف تحيي إحداهما أو كيف تقتل الأخرى..

في حنان قال:

زينب أبقى، بيبا يومًا تغيب.. تأتي أخرى يحبونها أو...

حين سكت، حين نظرت إليه ولم يكمل، وحدها أكملت في صوت متقطع قائلة:

أو كما قال ناير.. يبصقون في وجهي حين أصبح عجوزا تأكلني التجاعيد..

بضاعته كلما مر عليها الوقت يعلو ثمنها، وحدها تجارتي رخيصة يأكلها العمر وتقتلها الأيام!

***

في طريق العودة كان ينظر إليها في ألم..

لا يؤلمه بكاؤها وتكورها بين ذراعيه بل يرى نوباتها تلك نوبات إفاقة تستعيد بعدها توازنها لفترة ما..

لا يؤلمه حتى بقاءها مع زوجها فهو يعلم أنه أفضل من انفصالها عنه، هو لا يمس نقودها ولا يحاصر حريتها ودومًا يريدها جميلة وناجحة..

ما يقتل علوي إقبالها على شرب الخمر وشراهتها في اجترار ناير وكلماته..

أفاق على صوتها تخبره ككل مرة أنها بخير وأيضًا ككل مرة تعتذر عن كل ما أحدثته من فوضى وسببته له من ألم..

نظر إليها في إشفاق حائر لا يعلم هل يخبرها أم يتريث بضعة أيام أخر..

حين وصلت السيارة بوابة فيلا زوجها وبعد أن هبطت منها في طريقها إلى الباب وقبل أن يدخل علوي إلى سيارته توقف وناداها، حين استدارت إليه قال في تردد:

ربما ليس من الصواب أن أخبرك بما عرفت الآن لكن...

سكت قليلًا وأكمل:

أريدك أن تعرفي مني لتفكري جيدًا قبل أن يخبرك زوجك..

كانت تنظر إليه في بلاهة وأكمل:

السمنهوري وقع عقدًا مع الكبير على إخراج رواية لناير فيلمًا لهذا العام..

نسمة هي البطلة!

***

أصبح عمر ولده يقارب ستة أعوام.. كم مرة رآه عامر في هذه الأعوام الستة؟!

خمس مرات وتحت ضغط شديد من أمه، تحضر من مصر محملة بالهدايا ويذهب إلى نيويورك ليقضيا فيها ليلتين ثم يذهب إلى حفل عيد ميلاه وتعود معه إلى مونتريال لتبقى أسبوعا.. أسبوعا من اللوم والقصص والبكاء..

أصبح وسيمًا ولده، يمد يده ويصافحه في احترام ثم يجلس إلى جوار جدته حتى يأخذ هداياه ثم تتعلل نهال بأي أعذار لتختفي به..

لا يلومها! النقود والفواتير الشهرية التي ترسلها له ويدفعها دون تردد لا تجعله أبا أو تجعل من ذاك الصغير ابنا.. هي من قررت إنجابه، قررت الاحتفاظ به لتلغي بذاك كل حق له في الإنجاب أو الأبوة.. أطلقت عليه اسم أبيها، اختارت أن تحيا به في نيويورك مع شقيقتها..

حاولت أمه كثيرًا أن تصلح بينهما.. في البداية كانت نهال تميل إلى الصلح لكنه كان يراه إذلالًا له وهزيمة..

هل يعود بها تحمل رضيعًا لم يكن له رأي في تكوينه وحين رفض تغيب شهورًا وتعود به بعد أن يعتذر ويعلن أسفه؟!

لم يستطع أبدًا أن يسامحها، ما أدراه أي قرار فردي آخر تأخذه ويفاجأ بتبعاته مفروضة عليه؟!

أمه نائمة في غرفتها بالفندق استعدادًا لحفل عيد الميلاد السادس لحفيدها وهو يختنق..

لا يريد أن يذهب، لا يريد أبدًا أن يرى هذا الصغير يكبر ويزداد أحدهما بُعدًا ونفورًا من الآخر.. أكان عليها أن تنجبه في يناير؟ في الجليد؟! وضع معطفه على جسده وكوفية صوفية حول عنقه وغادر الفندق..

يكره هذه البلدة.. يكره زحامها وتلوث سمائها بالضجيج والأضواء والسيارات.. هل تراه يطأها بقدميه إن توقفت أمه عن الحضور أو لا قدر الله وحدث لها شيء.. دومًا تصيح وتسأله هل حدث كل هذا لمجرد أن زوجته أخفت عليه نبأ حملها؟!

كم مرة شرح لها.. كم مرة حاول أن يسألها هل بإمكانه إن أراد أن ينجب طفلًا أن يفعل ذلك رغمًا عنها؟! لكنها لا تسمع، آلاف النساء تحمل في بطونها أجنة دون أن يعلم أزواجهن شيئا؟!

آه يا أمي وماذا أردانا وجعلنا في الدرك السفلي سوى أننا نبرر أخطاءنا بارتكاب سوانا لمثلها؟!

كان عامر يخطو ويمشي دون أن يدرك أين هو..

الشوارع مكسوة بالجليد وأشجار عيد الميلاد في كل مكان وما زال الزحام في أوجه لموسم التنزيلات،

قليلون من يمشون وحدهم مثله وربما كانوا كثيرين لكن في لحظات تعاستنا لا نرى أبدًا إلا السعداء!

وقف أمام نافذة عرض محلات "ماسييز" في شارع "34"، كلتا يديه في جيبي معطفه يرقب عرائس صغيرة ترقص وتغني أغاني الميلاد المجيد..

شيء ما دق في صدره، شيء يرى صورته منعكسة في زجاج المحل.. تيبست أطرافه وعروقه وهو ينظر إلى الصورة المنعكسة في المرآة..

هو وجهها! وهل ينساه؟!

يخشى أن يستدير فلا يجدها ويخشى أكثر أن يبقى شاخصًا عينيه في الزجاج فتمضي إن كانت حقيقة..

استجمع قواه واستدار خلفه عنوة ليجدها تبتسم ترقب عرض العرائس، ماتت ابتسامتها واتسعت عيناها حتى كادتا تصبحان في حجم London Eye!

وحدها همست في صوت مذبوح "عامر"!

رغم ضجيج الزحام وموسيقى العرض سمعها! التقت عيناهما من خلف دمعة راقصة بين جفني كل منهما..

يعلم أنها أصبحت من أشهر نساء نيويورك وأنها مديرة فرع نيويورك للأمم المتحدة والإغاثة، لكنها ذات جودي بصراخ ندائها وعويل كبريائها.. ترى شعرات بيضاء غزت

رأسه ورغم هذا ما زالت شفتاه تناديها وعروقها تشتهيه..

كأنهما قررا معًا، اقترب أحدهما من الآخر، ضمها في قوة وحنان كما يتمنى لو يفعل مع ولده في مرات بعيدة..

ضمها وسكنت على صدره رغم أنها هي الأخرى طوقت ظهره بذراعيها كأن أعوامًا عجافًا ما مرت..

سمعته يهمس في صدق:

سامحيني..

لا يقتل المشاعر الكبيرة إلا ما نظنه صغائر الأمور!

***

في هدوء ودون أن ينطق أحدهما كلمة واحدة كانت جودي تسير إلى جواره، كفها نائمة بين أصابعه..

لا أحد يعلم إلى أين أو متى يتوقفان عن السير، بعد أكثر من نصف ساعة أصبحا في "سنترال بارك".. دون كلمة جلسا على أحد المقاعد الخشبية أمام الحديقة الكبيرة المكسوة بجليد الشتاء.. جلسا وألقت برأسها على كتفه تنظر إلى شجرة عيد الميلاد المنتصبة أمام محل "آبل" الشهير..

تمشي من هنا كثيرًا وتجلس على ذات المقعد أحيانًا لتشرب كوب قهوة في يدها أو تجري مكالمة سريعة وهي تقضم شطيرة خبز لكنها لا رأت ولا شعرت يومًا بما تراه وتشعر به اليوم..

رأسها على كتفه وكلاهما صامت غارق في ضجيج أفكاره.. كلاهما هاتفه يدق ويشعر برعشته في طيات ما يرتديه.. دون أن ترفع رأسها عن كتفه أخرجت هاتفها من معطفها.. تعلم أن لديها جدولا حافلا ككل يوم لكن هو يوم غير جميع الأيام!

في سكون ودون كلمة أجابت تخاطب سكرتيرها:

لن أعود إلى المكتب.. تصرف في ما تبقى من مواعيد!

هو قرار والقرارات لا تنتظر معها ردودا أو تعقيبات، قالت كلماتها وأغلقت الخط.. أخرج عامر هاتفه من جيبه، هي أمه..

يعلم أنها ارتدت ملابسها وتبحث عنه للذهاب إلى موعد ولده..

مال بشفتيه على شعر جودي يضع قبلة حانية ثم قال:

هي أمي.. هل أخبرها أننا معًا؟!

رفعت رأسها عن كتفه تنظر إليه..

قرار صغير لكنه تَعلّم أن يُشركها فيه لأنها فيه طرف..

أكان يجب أن يتعذبا كل هذا العذاب ليعلم كيف يفعل وتتعلم هي كيف تقبل وتتغاضى إن لم يفعل؟!

فتح الخط وسمع أمه تصيح وهزت جودي رأسها بالموافقة وقال عامر:

لن أذهب.. أكره ما يحدث هناك..

لم ينتظرها أن تكمل صياحها وقَتل كل الكلمات على لسانها حين قال في حنان:

أقضي اليوم مع جودي.. اذهبي وحدك إن شئت..

***

كلاهما يعلم أنهما التقيا ليفترقا!

ربما لهذا أرادا أن يطيلا في عمر لقائهما إلى آخر لحظة ممكنة.. ربما أيضًا لهذا لم يرد أحدهما أن يجرح الآخر بسؤال عن حاضر أو لوم على ماضٍ..

هو لقاء غير مقصود كضحكة عابرة تخرج من قلب صندوق أسود..

لها عمل تراه رسالة ونبوءة، هو عندها أحلى حتى من الحب والعناق وله حياة وشركة كبيرة تعتمد على أفكاره ومهارته لا يفكر أبدًا بالتخلي عنها..

لقاؤهما هدية لطرفين لا يستطيعان أبدًا اقتسامها لذا لا مفر أبدًا من الاستمتاع بها سويًا وتركها خلفهما حين يعود كل إلى طريقه..

على مائدة العشاء في أحلى مطاعم نيويورك وما زال كل منهما بملابس الصباح نظرت جودي إليه قائلة:

لم أكن السبب أبدًا في حرمانك من ولدك وأمه.. أنا لم أخبرها بأي شيء رغم أنها لا تتوقف عن ملاحقتي بالأسئلة.. أخجل من صدها وأحيانًا...

سكتت لحظة وأكملت:

أحيانًا أنتظر رسائلها لأعرف أنباءك..

رفع رأسه ونظر إليها في ألم، ما زالت نهال تراسلها أو ربما تلقاها.. أخبرتها بولدهما وبتفاصيل مأساتهما..

نهال أيضًا طريق مغلق! ستبقى العمر تنكأ فيه وفي ماضيه جراحًا يحاول أن تندمل!

غرز شوكته في قلب قطعة اللحم الصغيرة ووضعها بين شفتيها وقال مبتسمًا:

ليس ولدي، فقط يحمل اسمي وليست نهال شريكة حياة، فقط تزوجتها..

حين أنهيا عشاءهما وأكملا سيرهما على قدميهما حتى وصلا البناية الأنيقة التي تسكنها، وقفت جودي تنظر إليه في هدوء..

مشيا طويلًا وكثيرًا، تتمنى لو تدعوه إلى بيتها ليأخذا حمامًا ساخنًا وتسقط بين ذراعيه وتنام.. لكن هل يحتمل أن تركض من جواره في السادسة صباحًا وتتركه لتعوض غياب اليوم عن مكتبها؟! وإن فعلت..

هل تعود لتجده وإن عادت ما تراهما في الغد يصنعان؟!

أعوام عجاف رسمت لكل منهما حياة إن غادراها يموت الحب القديم..

رمت نفسها على صدره وضمته في قوة وقالت:

أحبك كثيرًا يا عامر، لكن هناك حياة بأكملها لا أعرفها عنك

ولا تعرفها عني.. دخول أحدنا في حياة الآخر يهدمها، لا طاقة بي أو بك لبناء جديد..

استبقاها على صدره حين حاولت الابتعاد، حين طال البقاء نظر إلى عينيها ومال بشفتيه يحاول الوصول إلى شفتيها لكنها ابتعدت تقول في ألم:

لا تفتح أبوابًا إن فُتحت قد لا نعرف أبدًا كيف نغلقها!

خطت بعيدًا عنه وحين وصلت باب البناية، استدارت ترتشف آخر نظرة إلى وجهه وآخر نفحة هواء بها أنفاسه..

كان يبتسم لها في حنان..

هناك قلوب أقدارها أن تحيا خلف أبواب موصدة على حب

لا يعود وذكرى لا تموت!

***

قررت أن تقاطع جميع وسائل الميديا التي أصبح لا حديث لها سوى اقتراب موعد عرض فيلم السمنهوري والكبير.. ما عادت تحتمل أبدًا أن تفتح شاشة

التليفزيون لتجد العاصفة السوداء المدعوة "نسمة" أمامها بصحبةناير أو زوجها..

منذ أعلنت بيبا أنها لن تقدم عملا فنيا هذا العام، ما عاد يهتم لأمرها أحد حتى مراد ما عاد يحرص على الخروج بها أو معها كسابق عهده..

حاولت كثيرًا في كل الأوراق المقدمة لها وكل العروض أن تجد عملًا تنافس به رواية ناير أو مخرجًا في مهارة الكبير أو السمنهوري.

أخبرها علوي أن تبتعد، أخبرها أن نسمة وزوجها يريدان إسقاطها.. السمنهوري يريد أن يكسرها ونسمة تريد أن تنتقم، ذهبت إلى ناجي وأيَّد هو الآخر رأي علوي..

صادق ناجي وطيب لكن عمله ومكاسبه لديه في الدرجة الأولى.. أخبرها أنها عنده أفضل من نسمة لكن كيف له أن يضيع رواية ناير..

يقتلها الغضب كلما رأت زوجها يعمل ويصوِّر ويتحدث عن العمل القادم..

ما زالت الرؤوس تستدير نحوها، ما زال جميع من يراها يسعى للحديث معها والتقاط الصور إلى جوارها لكن ما عادت هي محور الأخبار وسيدة الميديا..

هي والفراغ!

الفراغ يعلمك أشياء ما كنت لتتعلمها ويجعلك تدمن ما ظننت أنك تكرهه.. أصبحت تقرأ كتبًا غير كتب البدر.. أصبحت تغرق في تلال من الطمي والعطور وتسلم جسدها لأيدي رجال ونساء من خبراء المساج والتدليك حتى تكاد تشعر أنها تحولت إلى قطعة "مارشميلو" وردية!

أصبحت تجتر الذكريات وتحادث الجدران.. اعتزلت كل من كانوا يَدَّعون حبها وتتدعي أنها تصدقهم.. كل أحاديثهم فيها قطعة سُمّ مدسوسة عن البدر أو زوجها ونسمته..

حين تتعب من تنفس بخار الساونا والحمامات المغربية، حين تتعب من توهان أصابعها في حرير ملمسها.. حين تتوق إلى بشر على سليقتهم تخرج إلى العشاء مع علوي وابنته وأحيانًا مع "علية" وحدها..

الأطفال بشر بلا دهاء كدجاجات أمها وكلب زوجها الذي كانت تراه على باب عشته..

رفعت كفها تشير إلى "مارينا" التي تجلس تحت قدميها تدلك ساقيها منذ ساعات، ابتسمت الأخيرة وحملت أدواتها وغادرت الغرفة في صمت..

غاصت بيبا في مقعدها المطل على شرفة حديقة السمنهوري الكبيرة..

لا تذكر أنها شعرت يومًا أنه بيتها..

دومًا تقول "منزل السمنهوري" حتى لسائقها أو علوي وابنته..

هي ضيفة بدرجة مقيم، مغترب بدرجة زوجة..

رأته يطل بداخل الغرفة باحثا عنها، لم تتحرك عن مقعدها بل غاصت بداخله أكثر حين انحنى ليضع قبلة على رأسها.. هو دومًا أنيق ورائحة عطره تملأ أي مكان يطأه..

أحضر صحن الفاكهة الموجود في أحد الأركان ووضعه أمامها ومد يده إليها بثمرة خوخ وضعها في فمه حين امتنعت عنها وتنهد قائلًا في هدوء:

هل صعب أن تشاركيني فرحتي؟!

ابتسمت وقالت في هدوء أكبر:

في الزواج يتقاسمون كل المشاعر..

وضع البذرة في منديل ثم ألقى بها إلى صحن فارغ من الكريستال والتقط حبة فراولة وضعها في فمه ضاحكًا:

تأتين إذن إلى العرض الخاص بعد أسبوعين وبعده إلى حفل عشاء تقيمه نسمة..

لا تريد صراخًا أو عراكًا رغم أنها لا تذكر أبدًا أن السمنهوري ارتفع صوته، تريد فقط إيلامًا وقليلًا من الوجع الذي تغوص فيه وحدها منذ تزوجته..

مالت بشفتيها ووضعت بهما قبلة على وجنته وقالت:

طبعًا أشاركك لكن لماذا تصر على حضوري معهم؟!

قطب عينيه قليلًا وأكملت:

هل يذهب هيثم إلى الحفل؟!

هز رأسه كأنه أمام طفلة صغيرة وقال:

أما اكتفيت حديثًا في هذه القصة؟!

تكره أن تثير هذه القصة ففي كل مرة تخرج منها باكية ويخرج هو هادئًا ساكنًا وربما مظلومًا.. في كل مرة يسألها إن هي حقًا سمعت يومها شيئًا يدور.. لمَ لم تفتح عليهما الباب؟! لم تكن واثقة؟ لا حق لها في اتهامه إذن.. واثقة وخافت المواجهة؟ كيف لها أن تظنه يعترف بشيء يُغلق عليه الباب ليمارسه؟!

أغرورقت عيناها بالدموع ككل مرة ونهض عن مقعدها ليضمها إليه قائلًا:

أحبك يا بيبا، لم أعرض الزواج على امرأة سواك.. نستأنف العمل معًا وننسى أيام الفراغ هذه..

ابتعدت عن ذراعيه تخبره أنها ستخرج مع علوي وابنته وضحك قائلًا:

اشتري ثوبًا جديدًا لحفل الافتتاح.. وبإمكانك دعوة الصغيرة أيضًا..

***

اشترت ثوبًا جديدًا باهظ الثمن.. فائق الأناقة.. أعدت حقيبتها الصغيرة وتوجهت في رحلة إلى قلب "سيوة" حيث لا شيء سوى الطبيعة.. خيام صغيرة في أحضان النخيل، لا كهرباء ولا وسائل اتصالات.. هدوء تغتسل فيه من كل ما يشتعل به صدرها.. هدوء تحتاجه لتذهب به إلى عرض فيلم زوجها واحتفال تسمته وربما لقاء ناير..

عشرة أيام قضتها ربما دون عشر كلمات نطقت بها شفتاها، في الصباح الباكر من اليوم الحادي عشر جاءها علوي ليعود بها.. كان صامتًا رغم ضجيج ملامحه بشيء شعرت أنه يتردد في إخبارها به..

هي أيضًا كانت صامتة بعد أيام عُزلتها..

حين اقتربا من القاهرة حادثت زوجها وأخبرته بعودتها، واتفقا على أن يلتقيا في عرض الفيلم مساءً..

على باب بيت السمنهوري نظرت بيبا إلى عيني علوي، فيهما خبر أو شيء لا تفهمه..

حين سألته ابتسم يخبرها أن لهما حديثا بعد انتهاء الليلة..

لم تلح فما عاد هناك ما يعنيها!!

***

رفض علوي أن تذهب ابنته إلى أيّ من العرض الخاص أو الحفل الكبير، شيء بداخل بيبا كان يريدها، أرادت شيئًا نقيًا تمسك بكفه حين تُحاط بكل من تعرف أنهم شياطين.. أرادت مَلَكًا تستغيث به إن جاء البدر..

هل يأتي؟ هو فيلمه وهي قصته لكنه منذ لمع في عالم الأدب ما عاد يكتب أوراق أعماله، ما زال يسكنه ذاك الشعور بتدني عالمها وسمو عالمه!

استشهد بأديب نوبل وأعلن أنه على خطاه.. هو فقط يختار من يبيعهم رواياته وليفعلوا ما يشاءون..

لن يأتي لأن هناك احتمالًا صغيرًا بأنها تصاحب زوجها.. كيف أصبحا أعداء إلى هذا الحد؟!

أخذت نفسًا عميقًا وهي تخطو في الردهات المؤدية إلى قاعة العرض وخلفها علوي بخطوات، تأخرت قليلًا وربما

تعمدت أن تفعل، تريد أن ينتهي الجميع من تصوير فريق الفيلم ليصبحوا حولها وحدها حين تدخل..

كانت ترتدي جاكيت من "شانيل" على "جوب" قصيرة من ذات اللون الفيروزي لها كسرات واسعة تقف أعلى فخذيها الغائبتين في جورب أسود شفاف، اختارت ألا ترتدي ثوب سهرة رغم الحقيبة الصغيرة المحلاة باللؤلؤ في يدها، رغم حذائها "اللوبوتون" الذي تغفو فيه قدماها..

اختارت أن تبدو سيدة أنيقة جدًا في مهمة رسمية جدًا.. شعرها أعادت له تصفيفة "ماريا" التي اختارها لها البدر يومًا.. مكياجها خفيف كأنه أطياف ألوان..

تبدو مزيجا من امرأة شهية في ثوب طفلة بريئة تجلس على رأس طاولة اجتماع ملكي..

حين وصلت الصالة الكبيرة التي فيها القاعة استدار الجميع إليها حتى نسمة بثوبها الأنيق رأت في عينيها هزيمة صغيرة.. كانوا في طريقهم إلى العرض وقبل أن يحتويها السمنهوري بين ذراعيه كعادته عانقت نسمة وفي أذنيها همست كالفحيح:

"مبروك"..

لم تنتظر منها أن تجيبها بل قَبَّلت الكبير وزوجته، ثم استدارت إلى زوجها مستسلمة لعناقه وقبلاته تحت

أضواء التصوير..

جلست إلى جواره كما جلست إيمان إلى جوار الكبير، نسمة معهم في الصف الأول لكنها وحدها تستند على ابتسامتها ورفاق الفيلم..

ربما لهذا يجب أن تبقى زوجة لمخرج هو الأول أو الثاني إن دخل الكبير فقط مضمار التقييم..

علوي يجلس على المقعد الذي وراءها في هدوء وغاصت زينب تنظر إلى الشاشة في الظلام..

كل قطعة فيها قفزت من مكانها إلى شاشة العرض حين رأت اسم البدر منقوشًا عليها..

ليته يأتي!

أو عساه يذهب إلى الحفل!

أمسك السمنهوري بكفها ووضع عليه قُبلة ومال على أذنيها هامسًا:

تذهلينني كل يوم!

رائع هو الفيلم ككل ما أنتجه الكبير وككل ما أخرجه زوجها..

الجديد أن نسمة كانت تذبح نفسها في كل مشهد، لم تَرها يومًا في دور أجمل أو أقوى.. تمنت لو كان بإمكانها الوصول إليها لهمست في أذنيها أن عليها شكرها!

هذا التفاني والإتقان يقف خلفه غيرة وتحدٍ، ليس حبًا في العمل ولا ذوبانًا فيه..

حين انتهى العرض وأضاءوا المصابيح كانت نسمة تنظر إليها وحدها.. وكانت بيبا تصفق كثيرًا وطويلًا استدارت تضم زوجها وهي تردد في صوت عال:

أبدعت.. أبدعت.. خلقت من رائعتنا نسمة عاصفة تفوق وإبداع.. ابتسمت إيمان وهي تسمع كلمات بيبا.. كيف كبرت في أعوام قليلة إلى هذا الحد؟!

ابتسم ناجي.. يحب بيبا كثيرًا..

يحب موهبتها التي تمتزج بأنفاسها حد التوحد، حتى أنه كاد يصدق أنها بنجاحهم حقًا سعيدة!

***

الاحتفال كان في فندق "كمبنيسكي" في أكبر مطاعمه حيث تم إعداد طاولة كبيرة مستديرة تتوسطها باقة من زهور "البيبي أوركيد" وشمعات كثيرة متناثرة في أناقة بين الصحون..

كانوا يناقشون أحداث الفيلم وأحلى لقطاته وكانت كل من نسمة وبيبا تنتظران أن يأتي من يطلب صورة مع إحداهن دون الأخرى، لكن ما حدث هذا أبدًا.. هما أكبر نجمتين في سماء فن العالم العربي بأكمله، ربما تتفوق بيبا في الموهبة، لكن دهاء نسمة وسخاء عرضها لجسدها يجعلها على نفس الصف..

صب لها السمنهوري كأسًا تلته كأس ورقصت نسمة مع الكبير ومن خلف ظهره كانت تنظر إلى وجه بيبا وتتمنى لو تخبرها أنها في يوم نجاحها وتألقها هذا تعد لها هدية كبيرة ما زالت تخبئها في جعبتها منذ أعوام..

تعلم إيمان أن نسمة تستميل الكبير بكل الصور لتعود نجمته لكنها مثل زوجها تؤمن بتفوق بيبا وقربها إلى القلب والروح..

جميعهم يتحاشون ذكر اسم البدر في وجودها لكن تتمنى لو أنهم يفعلون!

أرجحت كأسها بين أصابعها تطلب كأسًا أخرى وأسرع مراد يمنحها ما أرادت في هدوء..

قال شادي نجم الفيلم مستغلًا غياب نسمة أنه يتوق إلى العمل معها من جديد، ابتسمت تخبره أن نجاحه ونجاح زوجها هو ما يهمها أكثر من أي شيء آخر..

جميعهم يتنفسون وهمًا ويزفرون كذبًا..

أسوأ العلاقات على الأرض هي علاقات المال والسلطة..
جميع أدواتها كذب وكل ثمرها فجور!

حين عادت نسمة ومعها الكبير قال شادي ببساطة:

جميعكم مدعوون إلى حفل كبير أقيمه أنا، فقط حين يتعافى البدر ويعاود الخروج..

قالها فقط خوفًا من أن تعيد بيبا ما أخبرها بها أمام نسمة.. يريد أن تشعر كل منهما أنه لا يريد العمل إلا معها وحدها.. لم يكن هناك أبدًا من يتخيل أن بيبا لا تعلم بشأن ناير..

كأنها كانت بحاجة إلى لحظات يعيد فيها رأسها ترتيب ما سمع أو ربما كانت بحاجة إلى لحظات ينثر فيها عقلها آثار ما تلقي به في جوفها من خمر..

ابتسم الكبير ابتسامة صغيرة وحاول أن يتحدث عن حفله الكبير في بداية الشهر القادم إلا أن بيبا بعد دقائق قالت في ذهول:

ماذا حدث؟!

وحدها إيمان سمعتها لتسألها عن أي شيء تسأل، أعادت سؤالها بصوت أعلى ليستدير الجميع نحوها وأعادت السؤال بثبات:

ماذا حدث للبدر؟!

كان الجميع ينظر إلى زوجها كأنهم يستأذنونه الحديث أو يتركون له خيار الإجابة أو الصمت، في هدوء نظر إلى زوجته قائلًا في رنة
لا تخلو من السخرية:

لم يحدث له شيء، ما زال في عزلته منذ وفاة أمه.. لا يسمح لأحد بزيارته ولا يغادر بيته..

سكت لحظة وأكمل كأنه يتعمد إيلامها:

فراق الأم ليس هينًا على بعض الناس وخاصة من يَدَّعون الإحساس ويكتبون عنه!

جحظت عيناها وكستهما دموع ساكنة، ماتت وداد وهي في صحراء سيوة هاربة من ذكراهم، وقالت إيمان كأنها تشعر بقسوة كلمات السمنهوري:

يجتاز الأزمة.. يجتازها إن شاء الله.. جميعنا نحبه..

في تلك اللحظة رفعت زينب عينيها وأطلت على وجهها ابتسامة صغيرة بلهاء.. غابت أصواتهم جميعًا وحضر صوت وداد وحدها، غابت صورهم جميعًا وبقيت صورتها وهي معها في المطبخ، في غرفة النوم، في السوق تشتري لها ثيابًا غير تلك التي جاءت من الفيوم بها..

ماتت وداد!

يؤلمها أن يحدث لكن يذبحها دون رحمة أن يبكي ناير وحده..

ناير وحده؟! وحده مع ثياب أمه وبقايا رائحتها وأصداء رجع صوتها.. كيف يحتمل؟ وكيف تتركه وحده؟!

كانت نسمة ترقبها وتراها تضيع بعيدًا عنهم، سعيدة بكل الألم الذي تراه يشق ملامحها لكنها تريدها في كامل وعيها.. ما زال لها عندها هدية..

عادت بيبا بمقعدها إلى الخلف ثم نهضت عنه كأنها طائرة تأخذ وضع الإقلاع، نهضت دون كلمة، أمسك السمنهوري بكفها يسألها إلى أين؟! نظرت إليهم جميعًا دون أن تراهم وتمتمت بكلمات لم تسمعها ومضت..

لن تتركها أبدًا تفلت من هديتها، التقطت نسمة حقيبة بيبا الصغيرة ولوحت لهم بها وركضت خلفها، حين لحقت بها أمسكت بيدها قائلة:

نسيتِ هذه.. قد تحتاجين هاتفكِ.

استعادت شيئًا من وعيها ونظرت إلى نسمة، لماذا لم تمنح الحقيبة للسمنهوري ولماذا تريدها معها؟

لا شيء الآن يهم.. أمسكت بالحقيبة الصغيرة في كفها ومضت تكمل طريقها..

بطرف عينيه أشار السمنهوري إلى علوي كأنه يخبره أنها تغادر لينهض الأخير بسرعة عن مقعده ويتبعها.. عندها استدار إلى ناجي يقول ضاحكًا:

حارس رائع، أليس عندك آخر مثله لي؟!

***

على باب الفندق وحين أحضروا سيارتها أمسك علوي بذراعها ليدخلها إلى جواره لكنها بدأت تفقد سيطرتها على نفسها، هناك لحظات تسقط عنا أقنعتنا فيها.. لحظات أكبر من مواهبنا..

لحظات اسمها لحظات الفجيعة والألم!

بذراعها دفعته بعيدًا، لا تريد أحدًا معها..

كان كل من أمام مدخل الفندق يرقبها، جميلة في تاييرها الأنيق لكنها أيضًا في أعينهم مخمورة لا تعلم ماذا تفعل.. فتحت باب السيارة الأمامي وأسرع علوي إليها يمسك بها قبل أن تدخل في قوة وعلى وجهه ابتسامة، هو أيضًا تعلم منها مهارات كثيرة..

صرخت في وجهه ألمًا أو غضبًا لا أحد منهما يعلم، لكنه وبذات القوة سار بها بعيدًا نحو الباب المجاور قائلًا في هدوء:

أنتِ لا تجيدين القيادة، ليس لديك رخصة، مخمورة ومن حولكِ أخرجوا هواتفهم ليلتقطوا الصور..

وحدها كلمة الصور أوقفتها، وحدها هذه الكلمات أخافتها..
ما زال حرصها على "ممثلة صعلوكة" بداخلها أكبر وأقوى من حزنها على وداد..

دخلت إلى المقعد المجاور حيث دفع بها برفق، وأسرع يركض إلى عجلة القيادة وعيناه لا تفارقها..

رمى ورقة مالية كبيرة لحساب قبو السيارات ثم انطلق في سرعة مجنونة قبل أن يتمكن أحدهم من التقاط مزيد من الصور.. رأته يأخذ طريق المعادي، يأخذها إلى بيت البكاء والصياح.. في هدوء استدارت تنظر إلى صورتها في زجاج نافذة السيارة.. صور كثيرة متلاطمة في رأسها، صور تغيب وتتضح، صور تتلاحق وتهدأ.. أضواء تبرق وأخرى تخفت..

صوت هاتفها يدق دقات سريعة متتالية، هي رسائل تتلاحق.. مد علوي يده إلى حقيبتها وأخرج هاتفها ليغلق صوته واستدارت تمسك بكفه.. التقطته من يده تتذكر عيني نسمة وكلماتها حين منحتها حقيبتها، في سكون وجدت رسائل من رقم لا تعرفه..

جميعها صور!

هل أرسلت لها الحمقاء صورا للسمنهوري وهو في فراشها؟ أو ربما أرسلت لها صورًا له مع هيثم؟!

كانت دموعها تسقط في سكون ورغم هذا بدأت ابتسامة كبيرة ساخرة تكسو ملامحها..

من هذا؟ رأت هذا الوجه لكنها لا تذكره.. ما زالت الصور تتلاحق..

ظهرت صورة له مع أمها في "جراج" مول ناجي الكبير.. صورة أخرى لحميدة تبكي وعطية إلى جوارها ومعهما ذات الرجل..

اتسعت عينا بيبا أكثر والصور ما زالت تتوالى على هاتفها.. صور لحميدة أمام باب قاعة السينما والرجل ذاته معها.. صور لأمها تُخرج السكين من جلبابها وتغرزها في جسد الكبير.. ماتت كل ملامحها حين رأت زوجها في صورة يمنح نقودًا للرجل الذي كان بصحبة أمها..

أوقف علوي سيارته على كورنيش المعادي وصاح يسألها ما بها.. كانت كقطعة حجر..

رائعة نسمة.. تركتها تتزوج مراد، تركتها تعاشر من زج بأمها في تلك القصة.. احتفظت بالصور كل هذه الأعوام لتختار هذه اللحظة أو ربما حصلت على هذه الصور مؤخرًا..

ما الفارق؟! الأمر لا يزيد أو يُنقص من دناءتها قيد أنملة!

لا يطعنك دنيء إلا في أوج قوته وفي قمة ضعفك!

التقط علوي الهاتف وقَلَّب الصور جميعها.. ألهذا تركتِ الاحتفال؟

كانت تبكي في سكون تعض على شفتيها قائلة:

لماذا لم تخبرني؟

في إشفاق هائل قال:

وهل تظنينني كنت أعلم؟!

مدت ذراعها إلى مفتاح السيارة تعيد تشغيل محركها قائلة:

لماذا لم تخبرني بموت أم البدر؟!

***

من نظنهم يحتضرون يُعمَّرون طويلًا ومن نظنهم باقين في لحظة يغيبون!

كان يظن حميدة تحتضر فإذا بأمه تموت في لحظة!

عشرة أيام منذ رحيلها، لم يغادر باب البيت بعد أن أودعها مقبرتها.. يطلب بعض الأطعمة ويحرق كل يوم

بعض الأرغفة ويتناولها سوداء دون أن يشعر برائحتها أو طعمها.. لا شيء سوى رسائل كثيرة على هاتفه وبريده، رسائل فيها حب وتعاطف، كلمات فيها دعاء..

يتحسس دومًا بأصابعه شاشة جهازه مع كل رسالة تأتيه من امرأة
لا يعرفها أو رجل لم يلتقه..

أدعية وحكَم، صور ودعوات إلى الخروج والحياة..

هل يظنونه يريد الموت مع الذكرى؟ هل يتخيلونه قادرًا على الوقوف تحت الماء الساخن والتخلص من لحيته الكثيفة ولا يفعل انتظارًا لكلماتهم وصورهم!

كلمات.. كلمات! كيف تداوي الكلمات غيابها؟ كيف تحل الكلمات مكان صوتها ورائحة عناقها!

كلمات! وكيف تجعله الكلمات يقوى على الصعود إلى بيتها دون أن تكون خلف الباب؟! كيف تستطيع كلمات الدنيا وسكانها أن تغزل له معطفًا من الحنان الذي كانت تغمره به؟! أحرف هوجاء على سطور عقيمة نَدَّعي أنها تحمل حبًا وصدقًا ومشاعر..

المشاعر أنفاس، نظرات، رائحة لا تتكرر.. إن غابوا ما عساها في غيابهم تصنع الكلمات! يسألونه في رسائلهم إلى متى؟

يخبرونه أن النسيان قادم.. من قال إنه يريد نسيانها..

من قال إن نسيانها وغياب ملامحها ليس جُلَّ ما يخافه!

"آه يا أمي"!

صاح بها كأنه يموت! كيف تقتلين من أحبَكِ وأحببته بهذه القسوة! أتراها تنظر إليه من مكان ما؟! أتراها حقًا حوله؟!

كان يكتب أن الموت قوة تتحرر فيها الروح من سجن الجسد والألم.. فكيف وهي بقوتها لا ترسل له شارة صغيرة وهو على قمة ضعفه يتربع؟!

تلفت حوله كالمجنون يبحث عن صوت أو رائحة أو حتى سقوط قطعة من سقف البيت على رأسه!

يطارد الشارات ولا يحصد سوى الخيبات والكلمات..

أما كانت الكلمات حِرْفته؟! أما رفعت قدره وحفرت صورته في قلوب ورؤوس؟!

أيهجو الكلمات وهي من نصرته؟! بعدها لا نصر ولا هزيمة!

بعدها البدر أظلم..

يقولون إنه الشتاء وشرفة بيته مفتوحة، حتى هواء الشتاء يعبر شرفته ولا يدخلها.. في قسوة أغلق جهازه ومد يده إلى جيتاره..

أرخى رأسه وترك أصابعه تصرخ وتبكي وتئن.. ألحان كثيرة لا يسمعها أحد، ألحان لا يصفق لها أحد..

بعدها ما بقي أحد..

كانت زينب ترقبه من خلف الشرفة المفتوحة ولا تصدق ما تراه عيناها.. تنتظر أن يتوقف عن العزف أو ربما كانت تتمنى ألا يفعل، اشتاقت إلى غناء أنامله..

في بعض بكائهم لنا حياة!

سكت البدر وسكتت أنامله وارتفع نحيبه من جديد كأنه طفل يتيم.. كأنه؟ اليتامى ليسوا الأطفال.. اليتامى من الكبار فجيعتهم أكبر!

نادت اسمه في حنان.. نادت مرة وعشرًا لكنه لم يكن يسمع..

كما فعلها يومًا فعلتها اليوم.. بكلتا ذراعيها استندت على الشرفة وتسللت منها إلى صالة بيته..

تقدمت نحوه ودون كلمة حملت عن صدره جيتاره ثم عادت تضم رأسه إلى صدرها بكل ما استطاعته من قوة..

همس اسمها أكثر من مرة وأخذت تردد:

أنا هنا.. أنا معك.. لستَ وحدك أبدًا..

ترك نفسه لها.. هي الشارة وهي الرسول!

خلعت حذاءها الضيق ونهضت به عن مقعده..

كان يخطو معها كأنها وداد وكانت تخطو به كأنها حميدة..

أغلقت النافذة ودخلت به إلى حمام بيته.. خلعت عنه ملابسه دون أن ترى من جسده سوى عينيه وكفيه..

لم يقاومها ولم تتردد..

تركته تحت الماء الساخن وركضت إلى غرفته تحضر له ملابس جافة.. ما زالت تحفظ مكان كل شيء.. ما زال منقوشًا بداخلها ألوان ثيابه وحجم جواربه.. أحضرت مقعدًا وأجلسته عليه، هو ضعيف وتكره أن تراه ضعيفًا..

كانت تقوم بحلاقة لحيته وتغالب دموعها وكان ينظر إليها في استسلام وسكون..

خرجت به إلى غرفته، حين دخل فراشه وأسدلت عليه الغطاء، أمسك بيدها يرجوها الجلوس.. ابتسمت تخبره أنها جائعة وأنها عائدة إليه بصحني حساء..

أغمض عينيه في راحة لا يفهمها..

الآن فقط وتحت الغطاء الوثير أدرك أن الشتاء موجود.. كل شيء موجود عدا أمه وحدها.. غابت ولن تعود!

على باب غرفته استدارت نحوه وابتسمت.. على ملابسها دوائر واسعة من الماء، في عينيها صلوات عميقة من الحب والحنان..

أسرعت إلى المطبخ تتمنى لو كانت دجاجات أمها حولها، تذبح إحداهن بيدها وتطهوها وتسقيه مرقها لكن أمها بعيدة كأمه وربما أقصى!

حين عادت إليه بصحن كبير من الحساء السريع كان نائمًا..

جلست على حافة الفراش ترقب وجهه في هدوء.. جرحها كثيرًا لكنها تدين له بما هو أكثر..

فتح عينيه على رائحة عطرها أو حسائها..

لا فارق! هي رائحة تخبرك أن حواسك تصحو وأنك إلى الحياة تعود!

كانت تضع ملعقة في فمه والأخرى ترشفها في هدوء..

قال في سكون:

كانت تحبك كثيرًا..

ابتلعت دمعة وأجابت:

أحببتها وولدها أكثر..

مد رأسه نحوها يبحث عن مزيد من الحساء تضعه بين شفتيه.. ليس جائعًا لكنه محروم.. ليس مريضًا لكنه ميت..

يريد دفء يدها إلى جوار شفتيه، يريد لهيب حسائها علّه يذيب صقيع أحشائه..

نظر إليها وهي تضع مزيدا من الحساء في فمه وقال:

كانت تتمنى رؤية ولدي لكنها قتلت ولدها.. لماذا لم تنتظر شهورا أخرى أو حتى أيامًا أخر؟!

كل ما يقوله هو فيه على حق.. كل ما يقوله ناير لا كلمات تجيب عليه..

تساقطت دموعه من جديد ونظر حوله في ألم أكبر وقال:

تمثلين وتقفين أمام الأضواء.. تحتملين اغتيال حريتك واغتصاب خصوصيتك لتثبتي لي وللكبير وحتى لأمك أنكِ على حق..

نظرت إليه في ألم، هل تراه يعيد جلدها من جديد؟!

أكمل ناير يقول:

كانت تحلم برؤيتي محاميا كبيرا مثل والدي، أدافع عن الفقراء وأنتصر للمظاليم والأبرياء.. في كل كلمة

كتبتها.. في كل محاضرة ألقيتها في كل لحن عزفته أو كتبته، مع كل جائزة كسبتها كنت أحاول أن أثبت لها أن النجاح ليس محاماة..

سكت لحظة وأكمل في ألم:

القلم ينير ظُلمات، الموسيقى تشعل نورا..

رفع رأسه ونظر إلى عينيها الدامعتين وقال:

لمن أكتب بعدها؟ لمن أعزف؟ لمن؟!

وضعت صحن الحساء بجانبها واستدارت إليه لتمسك بوجهه بين كلتا كفيها الدافئتين..

مسحت دمعه واقتربت بعينيها من عينيه قائلة:

لا أعلم، لكن ما حفظت الكلمات يومًا من أجل أحد.. أنا أحيا حين أحترق تحت مصابيح الكاميرات..

قاطعها متهكمًا:

من قال أني أريد الحياة؟! كنتُ حريصًا على حياتي كي لا أكسر قلبها.. سحقت القلب ومضت!

في ألم وضعف أكمل:

لا أستطيع التعامل مع الذكريات.. لا أستطيع أن أحيا فقط على ذكراها..

استدارت نحو شرفة غرفته المغلقة ونظرت إلى شجرة عتيقة منتصبة خلفها وقالت في هدوء:

لا تحيا على ذكراها.. احيا لتتذكرها!

رفع عينيه المثقلتين بالألم والإجهاد في دهشة ينظر إليها وأكملت:

أشتاق إلى جدتي وأبي.. أذكرهما كل يوم وحين أفعل أشعر أني أعيدهما إلى الحياة!

لا يموتون إلا إن نسيناهم!

اكتب عنها.. اكتب عن الحب.. عن ذاك الوجه الصبوح.. عن العطاء والنقاء.. عن ذاك الحنان.. اكتب عنها.. هي كل هذا!

رأته يبتسم للمرة الأولى وأكملت:

لا أحد يؤكد لنا أننا نجتمع بهم فور موتنا.. هناك عقود وأعوام لا يعلم عددها سوى الله حتى نراهم.. أعوام لا نستطيع حتى ذكر أسمائهم فيها..

قال في مرارة:

أعوام ننام فيها أهون من أعوام نتألم بذكرهم.. نحن في قبورنا وإن نسيناهم يكفي أن نفقد الشعور بغيابهم..

قاطعته تضع على جبهته قبلة وتعود برأسه إلى وسادته:

أنانية كبيرة أن نختار نسيانهم.. الأبهى أن نبقى ونذكرهم.. تحدث عنها.. حديثك دواء القلوب..

سكتت لحظة وأكملت:

يستحقون ألمنا.. يستحقون كثيرًا من الوجع!

أغمض جفنيه على كلماتها.. الفراق عَلّمها الحكمة.. ربما كانت على حق!

مد يده إلى كفها وأمسك بها وقال وهو مغمض العينين:

نحن تعساء يا زينب..

شهقت وهي تسمع اسمها من بين شفتيه، أكمل يضغط على كفها وكلماته تتثاقل كأنه يغيب في نوم عميق:

نظن أن الآلاف يحبوننا وفي الحقيقة ينسون أسماءنا حين تظهر بيبا أجمل أو بدرٌ أكمل!

فتح نصف جفنيه وقال:

لا تدعي أمك ترحل في هذا الجفاء..

حاولت أن تدير وجهها لكنه قرر أن يحنث بالعهد، أخبرها بما تركته لها عنده.. أخبرها بكلماتها وكيف

حرمت نفسها نقود زوجها لتكون سندًا حين يهوي النجم وتعود الابنة وحيدة كسيرة.. ضغط على كفها من جديد وقال:

أمك على حق.. بائعة الدجاج البسيطة التي تنكرينها على حق.. نعود دومًا وحدنا تعساء! أردت وداد لأجدها حين أعود وحدي!

لماذا يلاحقونها هذه الليلة باللطمات من كل اتجاه؟!

مات عطية! لديه هذه الآلاف؟! أمها ورثته وتريد أن تُوَرثها؟! تركت سكان الأرض وائتمنت البدر على وصيتها؟!

كأنه كان بحاجة لهذا الاعتراف.. قال كلماته ورفع كفها يقبل أصابعها ثم ارتخت أصابعه في هدوء، علمت أنه نام بعد طول سهر..

البوح يجهد ويضني!

نهضت وتجولت في بيته.. خلعت ثيابها وارتدت من ثيابه..

ما زالت ابنة الفيوم بداخلها.. لم تترك شيئًا إلا وأعادته مكانه.. لم تترك حفنة تراب إلا وجمعتها.. رغم العطور والمستحضرات ما زالت قوية تجيد الكنس والمسح وربما ذبح الطيور!

حين انتهت وضعت جميع ملابسه المتسخة في "الغسالة"..

بعدها ارتدت ثيابها وفتحت باب غرفته ترقب وجهه النائم المضيء..

تحبه لكنها تعلم علم اليقين أنه ليس لها..

في الأزمات تركض إليه.. في الأزمات يرنو لها..

ناير سيتعافى! سيحيا على الكلمات ويعود إلى القلم!

رأته يعزف الموسيقى فكيف يهجر الكلمات؟!

كأنه يراها أشارت بأصبعها إلى صدرها كأنها تخبره أنه دومًا سيبقى فيه!

أغلقت بابه وصعدت سلالم الدور العلوي رغم يقينها ألا أحد يفتح لها.. غابت صاحبة الدار، مسحت بكفها على الباب وقرأت لها من القرآن سورة وخرجت..

خيوط الفجر تغزل سطورًا في السماء.. قطرات الندى تعانق أوراق وبقايا أزهار الشتاء..

أخذت من خزانة ملابسه "جاكيت" قديما كان يُحب ارتداءه وتركت له ما كانت ترتديه..

ضمت نفسها بذراعيها وهي تخطو إلى الشارع الرئيسي..

كان علوي في السيارة يرقبها لكنه شعر أنها لا تراه وأن لها الحق في أن تفعل!

بقيت تخطو وذراعاها كل منهما يضم الآخر..

ترفع رأسها إلى السماء بين خطوة وأخرى..

الضوء يزيد، شفتاها تبتسمان وتأخذ إلى صدرها جرعات من هواء الفجر البارد، تضحك حين ترى دوائر البخار تخرج من فمها..

اتسعت خطواتها كأنها في طريقها إلى المدرسة، أمها رغم القسوة تحبها..

كانت تستدير بين الخطى إلى حيث بيت حبيبها..

ربما ليس حبيبها، ربما كان انبهار طفلة أو شهقة نجمة..

علوي يتبعها بسيارته في هدوء ولا تراه..

ركلت حجرًا صغيرًا وضحكت أكثر حين رأت قدميها في "شبشب" ناير الذي ارتدته حين غسلت له شعره وبيته..

على رأس كورنيش المعادي وقفت..

السماء لم تُنر بعد لكن الظلام يحتضر!

سيارات قليلة لكنها مجنونة تطير فوق أسفلت الشارع..

تذكرت تلك الليلة.. كان يخشى الركض بين السيارات وكانت تجيده.. أتراها ما زالت تفعل؟!

نظرت يسارها لتجد سيارات كمركبات الفضاء تطير قادمة..

ضحكت.. تريد مركبات أسرع..

حين اقتربوا رمت بقدميها أمامهم وداس علوي على مكبح البنزين في جنون يحاول الوصول إليها..

ما عساها تفعل؟!

كانت تركض بينهم وصوت مكابح فراملهم يمزق صدره..

ما زالت تضحك في جنون..

حين أصبحت على رصيف الجزيرة الوسطى اقترب منها يناديها لكن كيف لها أن تسمع؟!

ركضت من جديد تحارب قدرها مع المركبات القادمة، عاد صياح الفرامل يمزق صدره خوفًا عليها لكنه في لحظة أدرك أنها تضحك..

رآها تضحك كثيرًا كما لم يرها يومًا من قبل!

ضحكات قد يحيا ويموت الإنسان دون أن يضحكها..

ماذا إن ماتت بين السيارات؟!

إن ماتت زينب لن تعود نجمة ولن يتذكروا أبدًا كيف كانوا يقفون لها ويركضون خلفها ويَشخصُون فيها الأبصار..

هي نجمة ما بقيت في كبد السماء!

إن هوت أو ماتت قالوا نجمة مخمورة رمت بنفسها بين السيارات! هل يترك السيارة ويركض معها؟

آثر الوقوف في صمت يرقبها ويملأ أذنيه بصوت ضحكها..

إن ماتت يكفيه ويكفيها أن تموت ضاحكة!

كانت تقفز بين السيارات وبدأ بعض من فيها يكيل لها السباب حين تكاد سياراتهم أن تلمس جسدها..

توقف البعض حين عرفوها وبدأوا يصيحون:

"بيبا.. بيبا"!

رفعت كلتا ذراعيها في الهواء تلوح لهم وهي تكمل لهوها مع الموت..

حتى سيارات الصف المعاكس خرج من بعض نوافذها صبية يصيحون باسمها حتى وصلت إلى رصيف الكورنيش..

تنهد علوي كأنه نجا من حبل المشنقة..

رآها تقفز على السور الأسمنتي المطل على النيل..

جلست ومنحت ظهرها للأرض بأكملها، بقيت تنظر إلى النيل وإلى الضوء الذي بدأ يشتد ساعداه!

عبر الشارع في هدوء وعيناه عليها..

حين أصبح خلفها رآها تستند على سور الأسمنت لتنتصب وتقف أعلاه في جنون..

هل ترمي بنفسها إلى النيل؟!

كانت واقفة وهواء الصباح يراقص ملابسها القصيرة حتى تكاد تصبح عارية..

تسير على الخط النحيل، تتأرجح بين النيل والأسمنت..

صاح يناديها وهو يسرع إليها..

لا جدوى إن ماتت الآن إن كانت لا تضحك!

استدارت تنظر إليه وقدماها ترقصان بين السقوط في الماء أو بين ذراعيه!

تمت